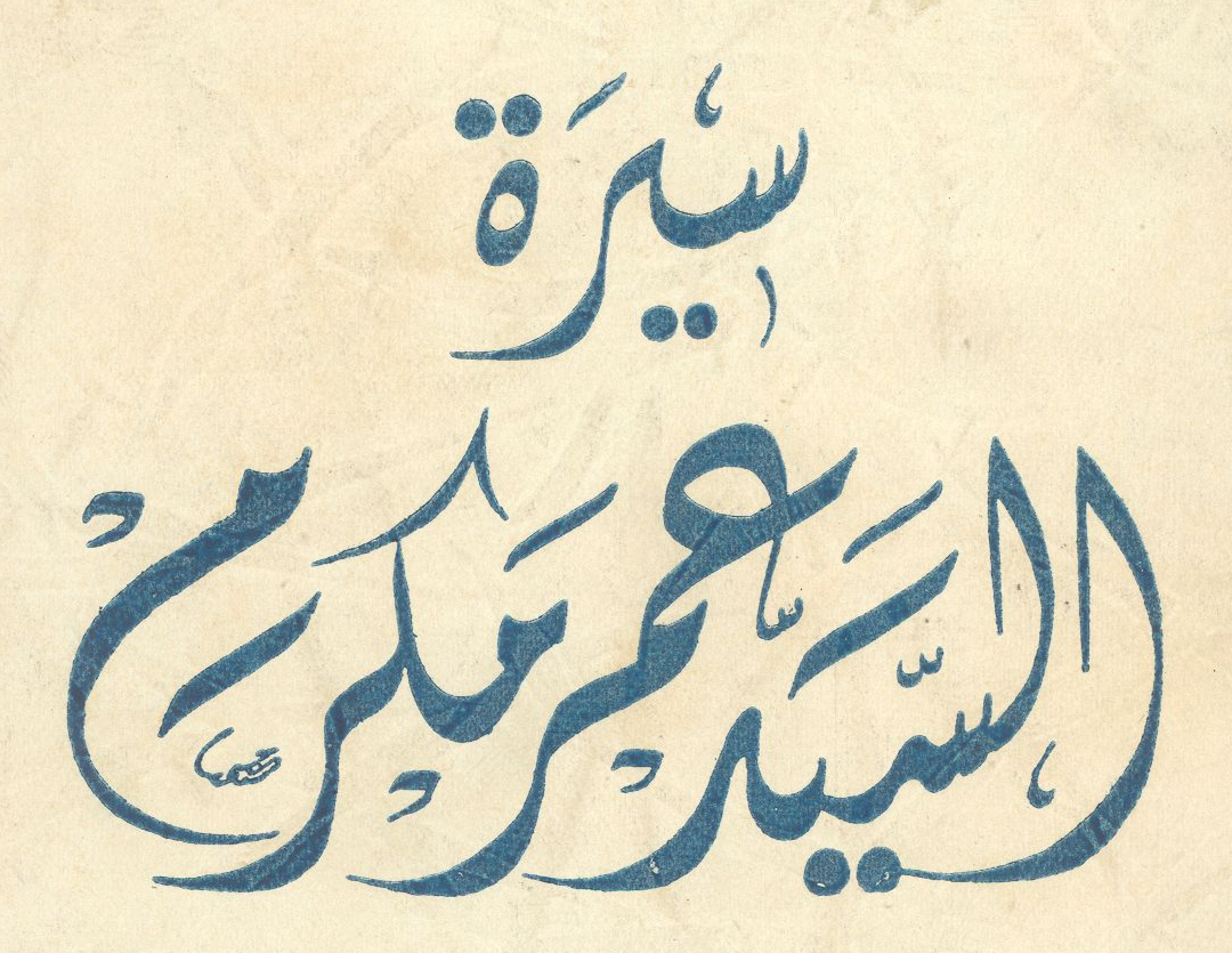
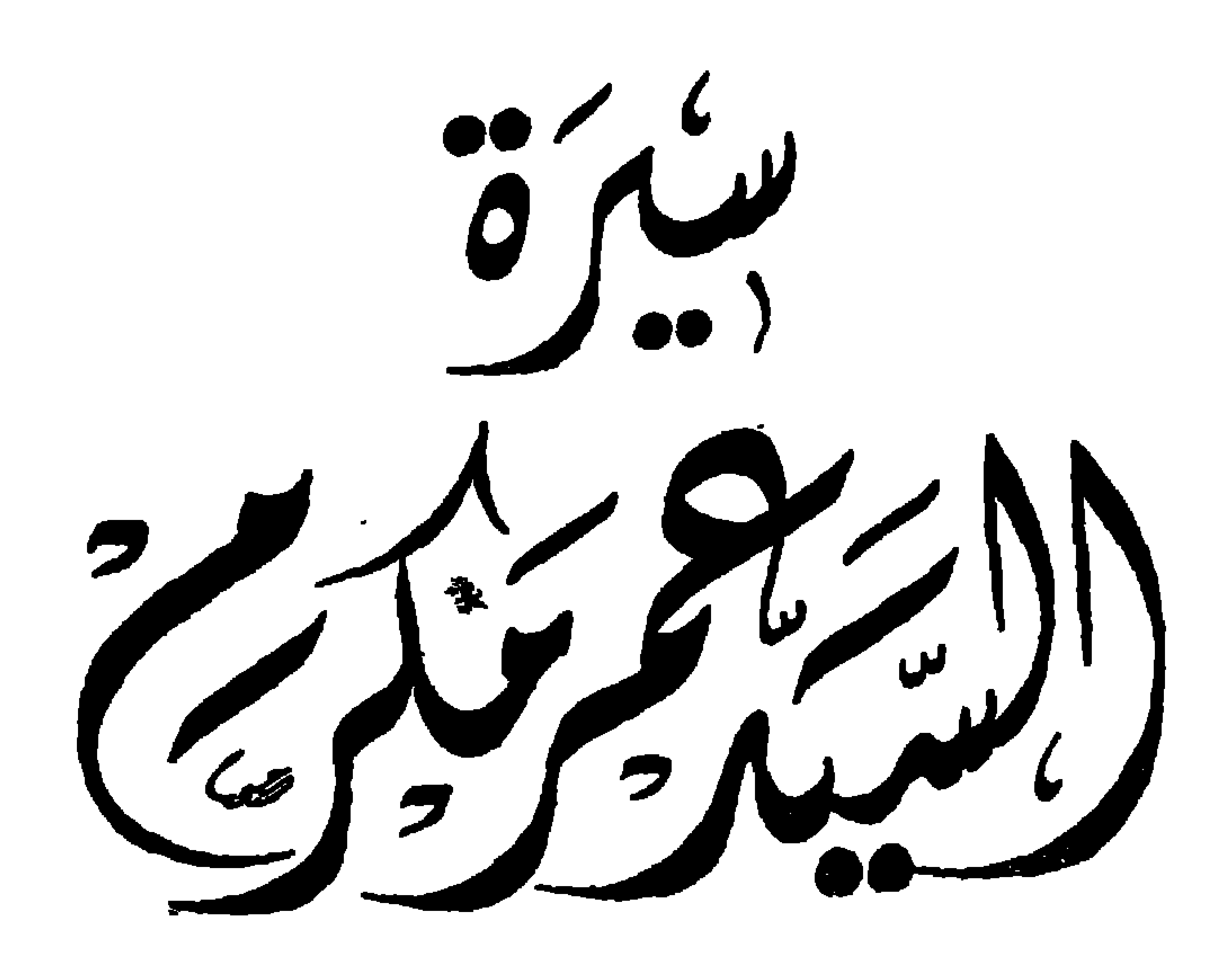
لجنة التأليف والترجمة والنشر

سيرة السيد عمر مكرم



بقلم
محمد فريد أبو حديد

لجنة التأليف والترجمة والنشر



مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٧

فهرس الكتاب

صفحة

أكبر مراجع البحث

لم يكن من الضرورى اثبات هذه المراجع لولا أن رأى بعض من أجل من الأصدقاء أن أثبت بعضها فاجتزأت بذكر أمثلة من الكتب والوثائق التى رجعت إليها لعلها تهم من يريد الاستزادة من صور هذا العصر ولكننى ذكرتها على سبيل التمثيل . ولم أثبت أسماء كثير من المؤلفات الحديثة التى رجعت إليها فى تاريخ هذا العصر حتى لا يطول القول فان تلك المؤلفات متداولة معروفة للباحثين .

---

(١) مراجع عربية

عجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتى .

تاريخ السلطان سليم وفتوحه مصر لابن زنبل

خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للعلامة محمد الأمين المحبى الحموى .

سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر .

تاريخ الحركة القومية فى مصر لعبد الرحمن الرافعى بك .

ذكر تملك الجمهورية الفرنساوية الأقطار المصرية (المعلم نقولا التركى) .

حجتا وقف للسيد عمر مكرم .

(٢) بعض كتب وصف مصر لكتّاب زاروا البلاد في مختلف العصور قبل الحملة الفرنسية

1 — XVI Siecle.
- Le Cordelier Jehan Thenaud. (1512)
- Piérre Belon. (1546—1549)
- M. de Villamont. (1578)

2 — XVII Siecle.
- M. Breve. (1604)
- M. Monconys. (1647)
- Le Père Coppin. (1638)

3 — XVIII Siecle.
- Sicard. (1712—1721)
- Maillet. (1735)
- Savary. (1786—1789)
- Volney. (1787)
- Abbé Binos (1777)
- Sonnini (1777—1778)

(٣) كتب أفرنجية في تاريخ حوادث مصر ووصفها بعد الحملة الفرنسية

Histoire de L'Egypte par Felix Mengin.
Description de L'Egypte.
Recueil de Firmans Imperiaux Ottomans.
Les Contes de Cheikh el Mahdy. par Marcel.
L'Egypte de 1802—1804 par Donin Georges.
Apercu Generale de L'Egypte par Clot Bey.
Egypt and Moh. Ali by St. John.
Egypt and Moh. Ali by Madden etc. etc.

تقديم الكتاب

للأستاذ الجليل أحمد أمين

ما كان لى — ولست متخصصاً فى تاريخ مصر — أن أقدم للقراء كتابا فى تاريخ مصر الحديث .

وأغرب من هـذا أن أقدم كتابا فى تاريخ مصر الحديث للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، وهو الذى وقف حياته على دراسة التاريخ ، وبخاصة تاريخ مصر ، فترجم « فتح العرب لمصر » تأليف الأستاذ بتلر ، وهو الكتاب الفخم الضخم ، لقى فى ترجمته العناء المضنى ، وأخرجه للقراء كأنه مؤلَّف عربى ؛ فذكر الأصول بنصها الأصلى ، وترجم الإنجليزية فلولا ما وضع على الغلاف من أنه ترجمة ما شك القارئ أنه عربى الأصل ، عربى الأسلوب ، عربى التفكير .

وأخرج « ابنة المملوك » ، وهى رواية تمثل عصر المماليك فى مصر تصويراً دقيقاً ، سلسل حوادثها تسلسلا بديعاً ، وصاغها فى أسلوب شيق ، ورونق أنيق .

ثم له الفصول الضافية ، والمقالات الكثيرة فى تاريخ مصر ، وأحداث مصر ، و بطولة مصر .

ما كان لى بعد هذا كله أن أقدم كتاب « السيد عمر مكرم » للقراء ، وكان يكفى أن يقال إنه كتاب فى تاريخ مصر للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ليثق القارئ به ، و يقوّمه أحسن تقويم .

ولكن أتاح لى القدر أن أقرأ الكتاب قبل نشره وطبعه ، فراقنى فيه — بجانب ناحيته التاريخية — ناحيته الأدبية ؛ فقد استطاع مؤلفه أن يصوغه صياغة لذيذة شائقة ، يقرؤه القارئ فكأنه يقرأ رواية ممتعة لا كتابا علميا دقيقاً ، مع أنه كتاب علمى دقيق أيضاً .

نعم أن فى عالم التأليف روايات شائقة ، بنيت على أحداث تاريخية ثابتة ، ولكن عيبها أنها قيّمة من ناحية الأدب ، وليست بقيمة من ناحية التاريخ ، فلا يعرف القارئ أى الحوادث ثابت تاريخيا وأيها من نسج الخيال . أما هذا الكتاب فقيم من ناحيتيه الأدبية والتاريخية معاً ، فليس فيه من الوقائع ما هو نسج الخيال ؛ ومع ذلك استطاع المؤلف بمهارته أن يسبغ عليه متعة الرواية و إن لم يكن رواية .

أشهد لقد بدأت قراءته وفى عزمى أن أفرغ منه بعد أسبوع

على أقل تقدير ، وأن أخصص له كل يوم بعض الوقت ولأعمالى الأخرى بعضه ؛ ولكنى ما بدأت به حتى أنسانى عملى ، وأنسانى وقتى ؛ واستمررت فى قراءته بلذة وشغف حتى أنهيته شاكراً غاضباً ؛ فأما الشكر فلأنه هيأ لى ساعات سعيدة لذيذة صرفتها فى قراءته ، وأما الغضب فلأنه اختلس منى زمنى ، من غير جرم يستوجب الحد .

ومزية أخرى واضحة فى الكتاب تظهر لكل قارئ ، وهو أن المؤلف عنى أكثر ما عنى — لا بالملوك والأمراء كما فعل أكثر مؤرخينا — بل بالشعب وحركاته ونفسيته وحياته الاجتماعية وآماله الوطنية . واتخاذه السيد عمر مكرم محوراً لكتابه أكبر دليل على هذا ؛ فهو ليس ملكا ولا أميراً ، ولكنه أحد أفراد الشعب ، وعظيم من عظمائهم ، يشعر بشعورهم ، ويأمل آمالهم ، ويقصده الشعب فى حوائجهم ، ويرجعون إليه فى خطوبهم . فاتخذه المؤلف نواة نسج حولها تاريخ مصر فى هذا العصر وخاصة تاريخ الشعب وتطوراته ونظراته وآماله وآلامه .

وكان حب « فريد » لمصر ، وعصبيته لكل ما هو مصرى ، وحسن تقديره للشعب المصرى سبباً فى بعض الأحيان أن يلوّن بعض الأحداث لوناً زاهياً جميلا براقا يعجب الأديب والشاعر

والسياسى ، ولست أدرى إلى أى حد يعجب المؤرخ الجاف المتزمت . ولكن نحن — على كل حال — أحوج ما نكون إلى الإكثار من الكتابة فى تاريخ مصر فى عصورها المختلفة ، ومن جوانب الرأى المختلفة ؛ فكل هذا يخدم مصر ويخدم الحق ويخدم التاريخ ويخدم السياسة .

وأخيراً أهنئ أخى « فريداً » بنجاحه فى هذا الكتاب ، وتوفيق الله له ، وأجدنى مغتبطاً سعيداً بتقديمه للقراء ، وأرجو أن يجدوا فيه من الفائدة واللذة ما وجدت .

٩/٧/٣٧ أحمد أمين

مقدمة المؤلف

ليس فى استطاعة أمة من الأمم أن تحيا فى حاضرها منعزلة عن ماضيها ، وليس فى طبيعة الإنسانية أن تنتزع شعباً من مجرى تاريخه ؛ فليست الأمم إلا مجموعات من الأفراد ، وكل فرد فى حياته ليس إلا مجموعة من الغرائز والطباع والميول الفطرية التى تخلفت له من القرون والآباد .

فالأمة التى تريد أن تفتح لنفسها أسهل الطرق وأدناها إلى بلوغ قصارى جهدها ، لا غنى لها عن أن تستوحى ماضى أيامها لكى ترى أين تتجه تيارات أفكارها وأمانيها وعواطفها ؛ فإذا هى لم تستوح ذلك الماضى وحاولت أن تسير على منهاج مبتكر منقول ، كانت حرية أن تصطدم وشيكا أو بعد لأى بالتيار الآتى الذى لم تتنبه إلى وجهته ، فيقطع عليها سيرها ، ويعرقل سبيلها ، وقد يجرفها معه ، ويجتاح ما يعترضه من الجهود .

وأمتنا المصرية اليوم آخذة فى أن ترسم لنفسها خطة فى حياتها بعد أن آل أمرها إليها ، وبعد أن أصبح مصيرها فى أيديها ؛ وأولى بها — وهى آخذة فى رسم سبيلها الجديدة — أن تنظر إلى

خلف كما تنظر إلى قدام ، وأن تجعل مستقبلها متصلا بماضيها ، وأعلا تاريخها قائماً على أدناه .

وتاريخنا الماضى أقدم تواريخ الأمم وأحفلها بالحوادث والمواعظ ، وأكثرها مواطن للمفاخر والمعالى ، فما اتجه إليه باحث إلا ظفر فيه بعظمة الدولة ، وسمو الجماعة ؛ وغاص فيه فى خضم لا حد له من ثروة الفنون والعلوم . فأنى جئته وجدت فيه قصة الإنسانية ماثلة رائعة ، وأنى كشفت عن آثاره رأيت فيه آثار العقل الراجح والنفس السامية .

وقد رأينا الأمم الحديثة — وهى تسعى إلى تحفيز أبنائها إلى المكارم وحضهم على المعالى — تلجأ إلى التاريخ فتستخرج منه صور المجد والبطولة فتعرضها على الجيل الحاضر ليجد فيه مثلا يحتذيه ، وأملا يتطلع إلى تحقيق مثله . وهى تقصد بذلك إلى إعلاء نفوس أبنائها ، والتسامى بأرواحهم وعواطفهم ، وإثارة الخامد من طموحهم ، بالتلويح لهم بأعلام المجد ، والإشارة إلى ذرى الأمانى الإنسانية . ومصر بحمد الله عريقة فى كل مكرمة ، غنية فى كل فن ، عبقرية فى كل وجهة ؛ فليس الواقع بمعجزها ؛ وليس الحق بخاذل لها إذا هى أرادت التماس المثل العالية أو رسم صور البطولة والمجد .

فنحن إذا عدنا إلى تاريخنا وسردناه على حقيقته ، و بينا ما كان فيه على طبيعته ، سردنا قصة حشوها أنبل العواطف وأروع المعانى .

ولقد كنت أسمع بين حين وحين صيحة أشفق منها وأخشى مغبتها ، وهى صيحة صدرت فى أول الأمر عن عدو كاشح ، ثم رددها بعد صديق جاهل ؛ وتلك أن مصر كانت فى عصورها المختلفة مطية للغالب ، وأن شعبها كان عبداً للحاكم . وقد كان أولى بالباحث المنقب ، وطالب الحق الذى لا يستهويه باطل أن يطلع من تاريخ مصر على أنها كانت فى كل عصورها سيدة غالبة ، مستقلة قوية ، وأن روحها كان دائماً مستمدا من روح شعب وثاب نحو المعالى ، طلاب للمكارم ؛ وأنها إن انتابتها أيام ضعف فى بعض حقبات تاريخها الطويل ، فإن روحها الحر كان لا يزال يتطلع إلى الحرية والكرامة ، وأن شعبها كان لا ينى عن الجهاد والنضال حتى ينتصر و يظفر بهما سليمتين .

وكان أعداء مصر يتخذون العصر العثمانى فى العادة حجة على مصر ، يقدمونه دليلا على ذلتها وصغر شأنها ، وقد خفى عنهم أن روح الشعب المصرى لم يضعف فى أثنائه عن النضال والجهاد ، حتى عادت إليه كرامته وحريته ، بعد حوادث وكوارث يضعف

عن مثلها أقوى الشعوب وأحرصها على العزة .

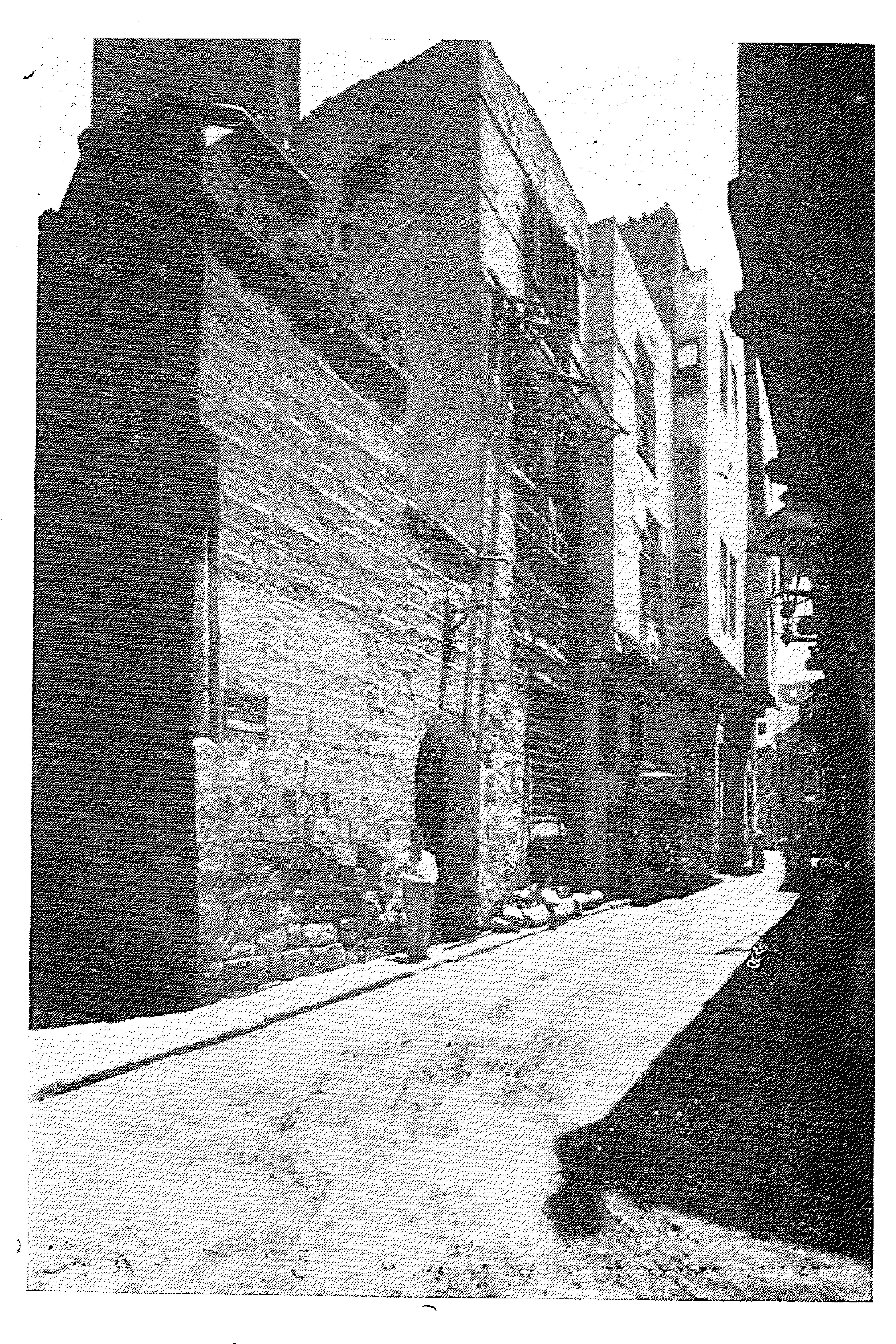
وقد مرت بالبلاد منذ حين سنوات مظلمة غشيتها بسحابة من الطغيان والظلم ، فكنت أجد تسلية وعزاء بأن أرى جهاد الشعب لإزاحة تلك السحابة الداكنة ، وكنت أنصرف إلى التاريخ أطالع فيه أسود صحائفه لأطلع منها على روح الشعب المصرى النبيل وهو يناضل ويجاهد ؛ فكنت أجد من ذكرى ذلك النضال مشجعاً ومناصراً ، وكنت أستبشر بما أعقبه من النصر القديم ، فأطمئن إلى أن جهاد مصر الحديث سيسفر كذلك عن انتصار وفوز . وقد كان سميرى فى تلك المطالعات رجلا من رجالات مصر العظماء وزعمائها النبلاء ، وهو السيد عمر مكرم . قضيت فى مصاحبته فى سير تلك السنوات الغابرة عاماً بعد عام ، حتى لكأنني غدوت صديقه ، أو لكأنني عرفته وعاصرته . وتوفرت منذ خمس سنوات على كتابة سيرة له ، فلم أتمها حتى انبلج النور ، وانقشع الغمام ، ولاح على مصر عهد جديد عقب انتصار يتلوه انتصار ، ويمن يعقبه يمن .

وإنى أقدم ثمرة هذه السنوات الطويلة ، ولست أدعى أنها تستحق إكباراً أو إعجابا ، ولست أظن أننى قد أتيت بشىء يستحق أن يصرف فى تأليفه مثل هذا الوقت ، ولولا إثبات

الحقيقة ما ذكرت أننى صرفت فى مثل هذا الكتيب هذا الوقت الطويل ، فإن فى ذلك اعترافا صريحاً بتقصير الذهن وضعف القريحة .

ومهما يكن من أمرى فإنى أهدى هذه السيرة إلى مواطنى ، ليطلعوا منها على صورة من صور مجاهديهم ، وسيرة من سير أبطالهم ، ليضع من شاء منهم على ذكرياتهم الأكاليل ، أو ليغتبط مجاهدو اليوم بأنهم قد اضطلعوا بأمانة الأجيال ، وأحسنوا القيام بالواجب نحو أرواح الآباء والأجداد .

محمد فريد أبو حديد



منزل السيد عمر مكرم بجوار الجامع الأزهر

(تصوير الأستاذ الفنان عمر أفندى سعودى)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كانت مصر فى القرن الثامن عشر فى عصر نقلة وتغير من جميع الوجوه ، فكانت كالغصن الجاف قد أقبل عليه الربيع الأول فنبتت فيه أول البراعم والأكمام فكانت الحياة تتردد فيه ، ولا يزال لونه مصوحا كالحا يخيل إلى من رآه أنه لايزال على جفافه ويبوسته . غير أنه إذا عجمه فى يده لم يخف عليه ما اعتراه من طراوة ، وما داخله من ماء الحياة .

كانت مصر إذ ذاك تحت نوع فذ من الحكم قد تخلف لها من القرون الماضية ، وتكدست فيه نظم وعادات لم يكن لها دعامة إلا مرور الزمن ، وتعود الناس الخضوع لها ، فكان فيها الحكم لطائفة من الفرسان ينشأون صغاراً وهم مماليك يشتريهم الأمراء الكبار ويربونهم على طريقة خاصة من التعليم والتدريب حتى يصيروا فرسانا مهرة ويحذقوا فنون الحكم على الأساليب المتوارثة . وإذا بلغوا مبلغ الرجال تدرجوا فى مدارج المناصب وتقلبوا فى

الوظائف المختلفة فتفتح لهم ميادين السياسة ، و يوغلون فيها سائرين على الدروب التى سار عليها من قبلهم . وكان أساس الحكم قائماً على أحزاب تقوم فى العادة على عصبيات البيوت الكبرى لأعيان الأمراء . فكان من ينشأ فى بيت أمير يرى واجبه أن يرتبط بذلك البيت و ينصر ربه فيجود فى سبيل نصرته بدمه وما يملك . فإذا ما مات رب البيت أو قتل كان واجبه أن يقوم مع أقرانه على الاستمرار فى حزبه ، والتسمى باسمه والاتسام بسمته ؛ وكانت بيوت الأمراء لا تزال فيما بينها على تشاحن وانقسام ، فلا نكاد نطلع فى هذا العصر إلا على نزوة من حزب على حزب أو على فتكة من أمير بأمير .

وكانت الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر ، يمثلها وال يطلق عليه لقب الباشا . لا يملك من الأمر مع هؤلاء الأمراء إلا سلطة وهمية ، ولا يستطيع من الحكم إلا رسومه ، ولا يحقق من أوامر سلطان الدولة إلا مايوافق هوى الأمراء ؛ فإذا لم يوافقهم من أوامره شىء لم يكن عليهم إلا أن يأمروه بالاعتزال فيعتزل ، ولا يملك السلطان إلا أن يرسل إلى مصر واليا آخر ليحل محله .

وبلغ الاضطراب معظمه فى أوائل القرن الثامن عشر ، إذ

كانت الدولة العثمانية تعالج ماأصابها فى اسمها وكيانها ، وتلتفت إلى عدو مخيف وهو روسيا هبط عليها من شمال البحر الأسود فى حين كانت النمسا تحز جانبها من ناحية الغرب ، فكانت لا تستطيع أن تمد يدا إلى ممثلها فى مصر فتنصره على الأمراء المصريين الذين ظلوا مع مضى السنين والقرون لا ينسون ذكرى موقعة (مرج دابق) ، ولا تغيب عن أذهانهم أن سليما الأول العثمانى قد عدا على دولة أســلافهم المجيدة فاغتصبها ، ونقل عنها ما كان لها من عز وعظمة وأصارها إلى ما صارت إليه من التبعية والصغار . فكانوا إذا رأوا ضعف الدولة وانشغالها بما أصابها فى بلادها الغربية لايتركون الفرصة ، ولا يدعونها تفلت من أيديهم بغير أن يستعيدوا شيئا من الأمر الذى سلب من أسلافهم منذ قرنين .

ولقد أعانهم على المضى فى سعيهم أن القرن الثـامن عشر لم يدع لتركيا فرصة للتنفس من هجمات أعدائها المتوالية ، فإن النمسا والروسيا لم تكتفيا بمهاجمتها بل أثارتا عليها من كان تحت حكمها من شعوب البلقان ، فهبت تحاول أن تسترجع ماضى استقلالهـا ومندثر دولها ، فلما لم تستطع ذلك ، سعت إلى أن تلتحق بدولة من الدول المسيحية التى حملت لواء المسيحية ، ولوحت به إليها تهيب بها أن تنهض فتلحق بها ، إذ هى أولى بحكمها وأبر بها وأحنى عليها .

فكانت تركيا تخرج فى أوربا من حرب إلى حرب فى أثناء ذلك القرن ، وما تكاد ترتق فتقا حتى ترى فتقا آخر يتثاءب فى ناحية أخرى . وما كان لها مع ذلك أن تنصرف إلى أمور مصر وما كان يحدث فيها من أحداث تؤذن بالاستفحال ، ولا يخفى مغزاها على أهل السياسة . ولكن تركيا آثرت بطبيعة الحال أن تضحى بالسلطان المطلق فى مصر ، وسمحت بتسربه إلى أيدى الأحزاب المصرية المتشاحنة ، فان هذا كان أهون خطرا ، وأيسر خطبا من تلك الثورات العنيفة التى كانت تهددها على الأفق الغربى ، وتلك السهام المسمومة التى كانت تصوب من هناك نحو فؤادها لاتقصد إلى أقل من القضاء على حياتها و إزالة وجودها .

ومن ثم شهد القرن الثامن عشر نبوغ سلسلة من الأمراء المصريين ينزعون السيادة من ممثل السلطان شيئا فشيئا . ويختطفون من يده أزمة الحكم زماما فزماما حتى أصاروه اسما ورمزاً لا حقيقة لحكمه ولا هيبة له .

ولكن ذلك الخطب مهما بلغ كان أهون على السلطان من عداوات أوربا . إذ كان الأمراء المصريون على كل حال يذعنون لسلطته الدينية بصفته خليفة المسلمين ، ولا يحاولون بحال أن يخرجوا عن سلطانه الروحى . فكان فى ذلك الخضوع عزاء كبير عن

فقدان السيادة وخسارة الحكم الحقيقى ، وكان الأمل لا يزال يعاود تركيا ، أو بقول أدق كان الأمل لا يزال يعاود الساسة العثمانيين أن يدبروا مؤامرة محكمة يسترجعون بها السلطة بأن يسلطوا بعض الأحزاب المصرية على بعض فيستطيعون بهذه الوسيلة أن يهلكوا الأحزاب جميعاً إذا أتى الوقت الذى تفرغ فيه الدولة العثمانية من شؤونها الهامة فى أوربا .

وكان أول من تحققت له السلطة فى مصر من أبناء الأمراء المصريين إسماعيل بن إيواظ فى أوائل القرن الثامن عشر فانه استطاع أن يكون الحاكم المطلق فى البلاد مدة ثلاث عشرة سنة . ولكن تنافس الزعماء واختلاف أحزابهم أدى بعد تلك المدة إلى اغتيال ذلك الأمير الشاب فقتل فى شبابه وعنفوان قوته قبل أن يبلغ المدى الذى كان يصل إليه لو أمهل ومدَّ له فى الأجل .

غير أن ذهاب إسماعيل بن إيواظ وخلو البلاد من سلطانه وحكمه لم يؤديا إلى عودة الأزمّة إلى أيدى العثمانيين ، فإنما كان أمراء مصر يتطاحنون فيما بينهم ليحل منهم أمير ناشئ يستقبل الحكم بدل أمير ذاهب . وكان بعض الأمراء يلتجئ إلى مساعدة الباشا أحيانا بل كان بعضهم يتسخر له وينفذ له تدبيره وتآمره ، فإذا ما تم الأمر ، وحدث الانقلاب ونزع السلطان من الأمير

المصرى المسيطر تنكر المتآمر على الباشا بعد أن كان من قبل آلة فى يده ، ووقف منه موقف الأمير السابق فيعيد سيرة الاستقلال والتغلب والقهر . وهكذا أصبح الأمر بعد قليل فى قبضة الأمير الذى قتل ابن إيواظ ، وهو ذو الفقار ينازعه منافس خطير وهو محمد چركس . وعاد الباشا العثمانى إلى جوارهما قابضاً على الريح .

واستمر الأميران على تنازعهما حتى انتهى أمرهما إلى التفانى فقتلا فى النضال بعد حكم مضطرب دام نحو ستة أعوام .

وحاول الباشا بعد ذلك النضال أن يسترجع نفوذه وساعدته الدولة العثمانية عند ذلك ، إذ كانت قد فرغت حينا قصيرا من منازعات أوربا ، وفازت بشىء يشبه النصر فى منتصف القرن الثامن عشر قبل أن تقبل عليها روسيا فى حملتها الجارفة فى أيام الإمبراطورة كاترينة الثانية . وكانت الطريقة التى اعتاد ولاة مصر أن يلجأوا إليها لاسترجاع النفوذ طريقة شاذة غير مستقيمة ، وهى أن يوقعوا النفور بين بيوت الأمراء الكبار و بين زعماء الأحزاب المتنافسة يقصدون من وراء ذلك أن يقضوا على الظاهرين منهم فيثبت سلطانهم وتعود إلى مقامهم هيبته ، ولكن ذلك السعى لم يمنع من نبوغ رئيسين كبيرين ملآ فراغ تلك

المدة وهما محمد بك قطامش ، ثم عثمان بك ذو الفقار ، وكان حكمهما بطبيعة الحال ممزقا مضطربا كثير الانقلاب والتغير ، فأما الأول فذهب ضحية مؤامرة دبرها الباشا ، وكان من نتائجها قتل عشرة من كبراء أمراء العصر ، وأما الثانى فكاد أن يذهب ضحية لمؤامرة أخرى دبرها منافسوه بعد أن قضى على حكم مصر نحو سبع سنين ، ولكنه استطاع أن يفر ناجيا بنفسه فخرج من القاهرة فى سنة ١١٥٦ هجرية وهى سنة ١٧٤٣ للميلاد ، وذهب إلى تركيا حيث قضى بقية عمره .

وقد ذكرنا هذه السنة دون غيرها من السنين ، إذ كان لها خطر خاص ، وذلك أن خروج عثمان بك ذو الفقار من القاهرة ، هز أهلها هزة عنيفة ، ولعله قد آلمهم كذلك إذ كان الناس يؤثرون أن ينبغ من أمرائهم من يبقى على الحكم ويرعى المصالح ، وهو بين ظهرانيهم ، يؤثرونه على من كان يفد إليهم من وراء البحر من بلاد الروم (تركيا) لا يعرف لغتهم ، ولا علم له بعاداتهم ولا بعرفهم ، فيحكم سنة أو بضع سنين ثم يذهب عنهم بغير أن يحدث حدثا إلا أن تكون مؤامرة دموية ، يعقبها فتور وسبات عميق . كان الأهلون يؤثرون ذلك فلما رأوا أن أمراءهم إذا نبغوا لا يبقون إلا قليلا ، ثم يذهبون ضحايا المنافسات والمنازعات ، آلمهم ذلك مرة

بعد مرة ، فلما رأو أميرهم عثمان ذا الفقار يخرج هاربا وهو حى بعد أن أحكمت المؤامرة عليه وكادت تودى بحياته ، تأثرت نفوسهم ، وتعلق بالحادث خيالهم ، فأرخوا به ، فما زالوا بعد ذلك مدة طويلة وهم كلما جد جديد قالوا قد حدث ذلك الحادث بعد مقدار كذا سنين من خروج ذى الفقار ، وإذا مات عظيم أو أدخل على نظام البلاد تغيير أرخوا ذلك من خروج عثمان بك ذى الفقار .

وكان أكبر الأمراء بعد خروج عثمان بك هو حسين بك الخشاب ، فأصبح حاكم البلاد الحقيق وقضى على ذلك خمس سنوات أخرى ، غير أن تطلع الأمراء إلى الحكم كان سنة متجددة ، فما يكاد أمير منهم يستقر على رأس الحكم حتى يتحرك له منافسون يريدون الحلول فى محله ، فإذا استطاعوا أن يجلوه عن الأمر فى شىء من السهوله تركوا له الحياة ، وإذا وجدوا منه عناداً وقوة أحكموا تدبير مؤامرة لقتله ؛ وكان نصيب الخشاب مثل نصيب عثمان بك ذى الفقار ، فإنه استطاع أن يهرب إلى الصعيد ، وتفرق عنه أصحابه مفسحين لدولة جديدة زاهرة ، وهى دولة إبراهيم بك وشريكه رضوان بك .

قضى إبراهيم وشريكه رضوان فى حكم مصر نحو ثمان سنوات كانا فى خلالها صاحبى الأمر والسلطان ، وقسما فيما بينهما

أمور الدولة عن تراض وتفاهم ؛ فذهب أولهما بتدبير شؤون الإدارة والحرب وما إليهما من مظاهر السلطة ؛ وذهب الآخر بالقيام على الشؤون المدنية والعمل على تألف القلوب وتقوية دعائم الحزب وإظهار أبهة الملك .

ولاحت فى مصر عند ذلك بشائر الازدهار الذى يصحب عصور الاستقلال المستقر ؛ فأينعت التجارة ، وعم الرخاء ، وظهرت أبهة الملك المصرى ، وكان من آيات مجد ذلك العصر تلك النهضة الأدبية الكبرى التى كان مركزها وقطبها فى دار رضوان بك ، وكان لها أكبر دافع من أسلوب حياة هذا الأمير العظيم وحبه للأدب ، وانصرافه إلى حياة النعيم واللهو ؛ وساعد على تلك النهضة رخاء حال البلاد وكثرة خيراتها ، واستقامة خلق أهلها ، وانصرافهم إلى الجد ، والعمل المنتج فى كل النواحى .

وقد تعود الأدباء والشعراء فى ذلك العصر أن ينعتوا رضوان بلقب الملك لا الإمارة ، كما أن إبراهيم كان فى هيمنته على شؤون البلاد ومصالحها وحمايتها رجلا قوى الشكيمة ، ذا غناء وبلاء ونفوذ رأى وبعد نظر ؛ وإنه لمما يبعث على الاعتقاد باستقرار الأمور له وتمكنه من السلطة وانقياد البلاد والأحزاب له أنه مات حتف

أنفه لم يقتل ولم يكد له أحد كيداً عظيما . غير أنه لما مات ذهب سيف الدولة وجنديها و بقى علمها رضوان بغير حام يدفع عنه ؛ وكان رضوان على ما فيه من التألف والتودد غير كفء لأصحاب المطامع من الأمراء . فما مضت ستة أشهر حتى تحركت عليه الأحزاب وتطلع المنافسون إلى سلطانه ، وأخذوه على غرة وهو يحلق شعره فى منزله ، وكان له مملوك خائن اشترك مع المتآمرين ، فضربه عند إشارة متفق عليها برصاصة كسرت ساقه ؛ وحاول الهروب حتى بلغ خارج القاهرة مع ما كان فيه من ألم ونزف ، فمات فى ذهابه إلى الوجه القبلى فى جهة واقعة شرق وادى النيل عند أولاد يحيى ، وتفرق بموته حزب ظل يملك زمام الأمور و يقبض على نواصيها تلك السنوات الثمانية . وعاد التنافس جديداً ليتمخض عن حدث فذ فى تاريخ مصر فى ذلك القرن وهو تملك على بك بلوط قبان الذى يسميه التاريخ على بك الكبير .

مات رضوان بك سنة ١٧٥٥ للميلاد وذلك عام ١١٦٨ للهجرة ، وكان عظماء الأمراء عند ذلك هم مماليك شريكه إبراهيم بك ؛ فأخذوا يتنافسون فيما بينهم على السلطة ، إلا واحداً منهم وهو على بلوط قبان فانه لم يندفع فى ذلك التنافس فى أول الأمر ، وكأننا به كان ينتظر النتيجة المحتومة لذلك

التنافس ، متوقعاً أن تطاحن المتنافسين لابد يفضى إلى إضعافهم جميعاً . فرضى بالنفى الذى وقع عليه فى أول ذلك العهد ، و بقى فى منفاه حتى تغيرت الأمور وتقلبت مدة ثلاث سنوات كانت كافية لتصفية المتنافسين . فلما دعى من منفاه سنة ١١٧١ (١٧٥٧م) بقى مدة ثلاث سنوات أخرى يرقب الحوادث على حذر ، و يتباعد عن الإيغال فى المنازعات الصغيرة التى كانت لا تفتر ، وانصرف فى هذه السنين إلى الإعلان عن نفســه ، والظهور فى مظهر يبهر الأنظار ، و يســتولى على ألباب العامة والأمراء ؛ وجعل يتخذ لنفســه أعواناً من الأمراء والأعيان . وكان من أكبر أعوانه عبـد الرحمن كتخدا ، صاحب العمارة المعروف الذى له الآثار الـكثيرة من المساجـد والسبل ؛ وهو الذى زاد فى بناء الأزهر زيادات عظيمة بإعادة بناء المدرستين الطيبرسية والاقبغاوية ، وضمهما إلى بناء الأزهر ، وكان أكبر الأمراء وأعظمهم نفوذاً ومالا ، على أنه لم يكن من أقواهم جناناً ، ولا من أليقهم للحكم فانتفع على بك بسلطته ، فأصبح الأمير القوى الذى يلجأ إليه الجميع و ينظر إليه الجميع ؛ و بقى هو واقفاً على شىء يشبه الحياد ، ينتظر الفرصة إذ تسنح له .

وكان فى أثناء ذلك يتخذ كل وسيلة للظهور والاستكثار

من الأعوان ، و إسداء الأيدى إلى الصحب والأتباع . ومن ذلك ظهوره فى تزويج هانم ابنة سيده إبراهيم بك ، إذ قام فى تزويجها قياماً عظيما ، فزفها إلى أحد مماليك أبيها ، وسعى حتى جعله من الأمراء ، و بذل فى ذلك الزفاف أموالا عظيمة جعلت العامة تنظر إليه نظرة الإعجاب والإكبار ، وجعلت أقرانه يزيدون له تقديرا وفيه أملا و به تعلقاً .

وكانت حوادث السنوات التى مضت منذ موت رضوان بك كافية لاقتناع الأمراء الباقين أن الوقت قد حان لاستيلاء رجل قوى على الدولة والقبض على أمورها التى اختلت وفسدت . فكان من الطبيعى أن ينظروا إلى الرجل الذى رأوا نجمه صاعداً كل هذه المدة ؛ والذى رأوا من حسن تصرفه وشدة جنانه وقوته ما رأوا ، والذى لم يتورط فى أثناء تلك السنين فى المنازعات الضئيلة التى كانت مثل الرمال الخائنة تبتلع كل من يتورط فيها .

وكانت أول خطوة فى سبيله إلى الحكم فى سنة ١١٧٦هجرية أى سنة ١٧٦٣ عند ما اختاره عبد الرحمن كتخدا ليكون شيخاً للبلد ، أى ليكون الحاكم الأعلى فى داخل البلاد . وقد أعقبت ذلك خطوة أخرى فى سنة ١١٧٧ هجرية عند ما صار أميراً



على بك بلوط قبان (الكبير)

للحج ، أى عند ما صار أكبر قائد حربى معترف به فى البلاد . وقد أحاط على بك حجه فى ذلك العام بما اعتاد أن يحيط به نفسه من الإعلان والظهور فى مظهر الأبهة والعظمة . فلما عاد من حجه كان أكبر رجل فى البلاد فى نظر العامة والأمراء على حد سواء ؛ وأخذ الناس يرددون أسماء أتباعه ورجاله مثل محمد أبى الذهب ، فضلا عن ترديدهم لاسمه ، وإعجابهم بمقدرته ، وإقرارهم له بالزعامة والقوة .

وكانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت قد ثقلت عليها يد الروسيا فى حين كانت النمسا تخز جنبها وتدمى جوارحها ؛ فلم يكن لها مع ذلك فضلة من قوة ، ولا بقية من تفرغ ، لتنظر إلى أحوال مصر ، وترقب سير الحوادث فيها ؛ فكان هذا الانشغال ممهدا لدولة من أكبر الدول الحديثة التى قامت بمصر على سيف هذا الحاكم القادر .

ومهما يكن من أمره وأمر حكمه وأسلوبه فقد كانت دولته فذة فى ذلك العصر ، إذ بلغت فيها موجة الاستقلال السياسى جمامها وقصاراها ، وأصبح الاستقلال معلناً صريحاً لا شبهة فيه ولا تقية . وأزيل مكان الباشا التركى من دولة البك الكبير ، وأصبح ملكا فى داخل البلاد وخارجها . وكان مع حرصه على

الملك فى داخل بلاده ، شــديد التفطن إلى الدول الأجنبية ومطامعها ؛ لا يضيره أن تقول له روسيا كلمة تشجيع أو أن تمد إليه يد الصداقة ، ولـكنه كان لا يبيح لدولة من دول أوربا أن يكون لها شأن فى دولته المستقلة القوية . ثم زلت به القـدم ، فأقدم على التوسع فى الفتح ، واتسع عليه الخرق حتى رأى نفسه منزلقاً إلى حرب مع دولة الترك فى الشام ، متحديا بذلك شعور العامة من المسلمين ، ومستهدفا لتهم من يتهمه بالإنكار والخيانة ؛ فوجدت الأطماع الدفينة ثلمة تنفذ منها ، وكان مأتاه من قبـل خازنداره الأمين وقائده المنتصر محمد بك أبى الذهب . فانهارت دولته فى عشية أو ضحاها ؛ ولم يستطع الرجل الـكبير أن يثبت فى تيار أتى تحلب عليه من كل فج عميق . وحاول النضال فلم يستطعه ، ولـكنه أبى إلا القبر مسكناً إذا عزه المنافس على مكان الصدر ؛ فقتل فى عام ١١٨٧ للهجرة ، أى عام ١٧٧٣ للميلاد ، ولم يرد له الله ذلا ، فقـد بذل له مملوكه الثائر من الإكرام ما جعل موته شبيهاً بميتة الأسد الـكريم لا يطمع أحد فى النيل من كرامته إلى أن يلفظ النفس الأخير .

على أن عهد الاستقلال المصرى و إن فقد مليكه على بك ، لم يفقد قوامه ، ولم يذهب عنه رونقه ، فقد بقى الاستقلال كاملا

مهيباً تحت سلطان الأمير الثائر محمد أبي الذهب ، ولم يعد الأمر أن يكون انتقال السياسة من يد إلى يد أخرى مع بقاء كل مظاهر السيادة والدولة على ما كانت عليه ، ولم يتعظ أبو الذهب بما آل إليه أمر سيده على بك عند ما حاول بسط سلطانه على ما يلى مصر من البلاد ، فاقتفى أثره فى الإغارة على الشام وانتزع الجزء الجنوبى منها حتى بلغ عكاء ، غير أن الأجل لم يمهله ، ولا ندرى بأى مرض مات ، وهو فى عنفوان شبابه وقوته ، فإنه لم يبق بعد دخول عكاء إلا أياما أربعة قضاها محموما ثم توفى . وتناقلت الرسل نبأ موته ، فلم تبلغ مصر أنباء انتصاره إلا مع إشاعة وفاته ، وذلك فى سنة ١١٨٩ أى فى سنة ١٧٧٥ للميلاد .

ولقد كانت وفاة أبى الذهب فى هذه الآونة ضربة قاسية لمصر واستقلالها وتاريخها ، ذلك بأن مدته التى قضاها على ملك مصر لم تكن طويلة كافية لتصفية أصحابه وإظهار جديرهم من سفيههم ، فإن على بك قضى على ملك مصر نيفاً وعشر سنوات فكانت تلك المدة كافية لاستقرار الأمر وظهور أعوان أشداء أقوياء على الحكم مثل محمد بك أبى الذهب ، ولكن أبا الذهب لم يحكم سوى نيف وعامين . فلما مات كان أتباعه لا يذعنون لواحد معترف بجدارته ، ولا يخضعون لزعيم منهم يولونه

أمور الحكم ، فكان لابد من وقوع الاصطدام فيما بينهم ، وكان لابد لتلك الدولة أن تتحطم وتتقوض دعائمها . وكانت تركيا واقفة على انتظار ما يؤول إليه الأمر ، فلما مات أبو الذهب رأت مصر تحت قدميها تستطيع أن تتحكم فى مصيرها . ولو كانت عند ذلك خالية اليمين من نضالها فى أوربا لاستعادت كل سلطانها عليها ، ولكن روسيا كانت توالى لها الطعنات والضربات ، فما تكاد تفيق من ضربة حتى تهوى عليها أخرى . ولهذا كان لابد لها أن تترك الأمر على مجراه فى مصر ، واكتفت بأن الحاكمين الذين قبضا على زمام السلطة عند ذلك لم يكونا على شىء من الصفات التى تؤهلهما لجليل الأعمال ، واطمأنت إلى أن مصر لن تستقل عنها على أيديهما .

خلص الأمر بعد وفاة أبى الذهب إلى مراد وإبراهيم ، وإنا إذ نذكر مرادا وإبراهيم نذكر طاغيتين قصيرى النظر ، آل اليهما ملك قد مهدت له أجيال من الحكام والأمراء ، فلم يجدا فى ذلك الملك إلا طعمة يشبعان بها نهمهما أو يستعينان بها على حياة نعيم فوضى لا نظام فيها . ولسنا هنا بسبيل وصف مفصل لحكم هذين الطاغيتين ، فإن هذا ليس مما نقصد إليه ؛ وحسبنا أن نقول إنهما عاثا فى البلاد فسادا مدة طويلة زاد طولها



مراد بك

ما أحـدثاه من التدمير والتخريب ؛ فلقد طالت مدة حكمهما على غير عادة ، إذ نيفت على السنين العشرين . وانتهى أمرهما فى ذلك الحكم إلى كوارث وأحداث وحروب ؛ فحروب فيما بينهما ، إذ كان أحدهما يغاضب الآخر ، فينفصل عنه إلى الصعيد فيخرب ويدمر ويحرق ويغير حتى يحدث الصلح بينه وبين شريكه ، فلا يكاد الأمر يستقر بينهما حتى يغاضب الآخر الأول ، فيهرب إلى الصعيد ، ويبارى قرينـــه فى الفساد والعبث والتخريب .

وضج الناس ضجيجاً لم يسبق لهم مثله حتى بلغت أصواتهم دار الخـلافة فى قسطنطينية ، فتحرك السلطان إلى إرسال حملة تأديبية مع كثرة مشاغـله فى أوربا ، ومع ما كان يهدده من الخطر من قبل روسيا . فجاء أسطول وجيش من الدولة يقودها حسن باشا الجزائرلى القبودان ؛ فتهالك الطاغيتان أمام تلك الحملة وهربا ولم يثبتا . وتنفس الناس أجمعون وظنوا أن حكم الطاغيتين قد ذهب وانقشع . غير أن الجيش التركى لم يستطع البقاء فى مصر لحاجة تركيا إلى خـدمة كل جندى فيها للدفاع عن حياتها فى نضالهـا العظيم مع روسيا ، ذلك النضال الذى كان نضال حياة أو موت لها . واضطر حسن باشا إلى أن يصالح الطاغيتين مرغماً

فى سنة ١٢٠١ للهجرة أى سنة ١٧٨٧ للميلاد . فعادا إلى حكم البلاد ، وإن شئت فقل إنهما عادا إلى تخريب البلاد والعيث فيها .

لم تبق طائفة من أهل مصر لم تحس وبال حكم هذين الطاغيتين ، ولا سيما التجار والعامة . فاضطربت أحوالهم وآثروا أن يقاوموا ذلك الحكم ، ويثوروا على طغيانه ، فقامت الثورات بعضها يتلو بعضاً ، منها ما كان فى الريف ، ومنها ما كان فى القاهرة ، وتعددت وسائل الثوار ، فبعضهم كان يتخذ وسيلته الاحتجاج واللجوء إلى الحاكم لرفع المظالم ، وبعضهم كان يتخذ وسيلة العداء والمغاضبة . ولم يكن ظلم مراد وإبراهيم ليقف عند حد ، بل تساوى فيه المصرى والأجنبى ، ففزع الأجانب وهم على الأكثر من أهل فرنسا ، وكانت فرنسا قد تبدلت حكومتها عند ذلك ، وصارت جمهورية متحمسة ؛ فلجأ الفرنسيون إلى كبرياء الجمهورية الناشئة يطلبون إليها حمايتهم .

على هذا الاضطراب اقترب القرن الثامن عشر من نهايته ، وعلى هذا التعقد وهذا التورط انتهى سعى مصر نحو الاستقلال مدى ذلك القرن . والمسئول عن ذلك إنما هما ذانك الطاغيتان القصيرا النظر ، القاترا الهمة ، المفتونان بالبغى ؛ مراد وإبراهيم .

• وفى عام ١٧٩٨ للميلاد حـدثت النكبة الجارفة التى كان التمهيد لها فى ذلك الحكم البغيض وذلك الطغيان الخائر ، ألا وهى نكبة الحملة الفرنسية . فرأى أهل مصر أنفسهم حيال انقلاب لا عهد لهم بمثله ، ورأوا الطاغيتين يفر أحدهما عند امبابه فى الغرب ويهرب ثانيهما من القاهرة نحو الشرق إلى الشام ، يشهدان الأيام المتعاقبـة أنهما من أخس من حكم تلك البلاد وأحقر من ولى أمرها . ولما صار أهـل مصر أمام الأجنبى وجهاً لوجه وقفوا حيارى ، ثم أخـذوا يتلمسون طريقهم من خلال القتام الثائر ، فتخبطوا واضطربوا وتفرقوا ، ولا لوم عليهم فى شىء من ذلك ؛ فلقد كان ذلك القتام أكثف من أن تهتدى فيه أبصار الإنسانية .

وفيما كانت مصر تشهد هـذه الأحداث ، وتتعاقب عليها تلك العصور ، كان شعبها ينظر ثم ينتقد ثم يتحرك . وكانت حركته فى أول الأمر فاترة هادئة ثم قويت ثم تعاظمت واشتدت حتى بلغت حد الاضطراب والثورة . وسنعرض فيما يلى طرفا من وصف روح هذا الشعب النبيل فى نهضته .

جهاد شعب مصر فى سبيل حقوقه

فى القرن الثامن عشر

كان شعب مصر منذ أول الفتح العثمانى منحى عن التدخل فى أمور السياسة بوجه عام ، إلا إذا عددنا بعض الأعضاء المصريين فى الديوان الذى كان ينعقد بين حين وحين فى القلعة للإشارة على الباشا فى أمر يطلب فيه المشورة أو للتفاوض فى شأن من الشؤون الهامة ، أو لتلقى أوامر السلطان العثمانى إذا هو أرسل فرمانا فى أمر من أمور الدولة .

وإنه ليكون من المغالاة أن نقول إن مثل هذا النظام يمكن تسميته نظاماً شوريا أو أن فيه تقديراً للمصريين أو إشراكا لممثلى الشعب فى شؤون الدولة .

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد فإن القرن الثامن عشر شهد تغيراً كبيراً فى علاقة الشعب بالحكومة ، كما شهد تغيراً كبيراً فى نظرة الحكومة إلى ذلك الشعب ، فإن الأمراء المصريين عندما بدأوا حركتهم الاستقلالية التى وصفنا شيئاً منها فيما سبق ، كان همهم الأول أن يكون الشعب راضياً عن

حكمهم حتى يأمنوا جانبه فى نضالهم ، وحتى تكون حجتهم قوية فى محاولة الاستقلال عن دولة الخلافة العظمى .

وإنا نستبيح لأنفسنا أن نخالف ما اعتاد الناس ترديده فى وصف أسلوب الحكم المصرى فى القرن الثامن عشر ؛ فإنا نرى أن حكومة الأمراء فى ذلك القرن فيما قبل حكم مراد وإبراهيم لم تكن الحكومة المفسدة الظالمة التى لاهم لها إلا العسف بالشعب وابتزاز أمواله ، وإهدار دمه وحقوقه ، بل كانت حكومة تسعى جهدها فى إصلاح البلاد والعدل فى أهلها بحسب مستوى عقلية العصر وأساليبه .

نعم كانت تحدث بمصر اضطرابات وحروب بين الأحزاب . وكانت تثور بين حين وآخر مشاحنات على الحكم ، ولكن ذلك كان لا يتعدى طبقة الحكام والأمراء ، وكان الشعب فى مثل هذه الأحوال يعتزل أماكن النضال ويبعد عن ميادينه أو يقفل متاجره على بضائعه ، ومنازله على أنفسه حتى إذا ما انجلت الفتنة بعد أيام وسكن الاضطراب ، عاد إلى أعماله ولم يحدث له شىء ، ولم ينله أذى من أحد المتنازعين لا فى نفسه ولا فى ماله . ويمكن أن نقول إن الأمر استمر على ذلك إلى أول أيام إبراهيم ومراد ، وعند ذلك ابتدأ عصر الفساد الذى آذن بذهاب دولة الأمراء وانتهاء أمرهم .

على أن الشعب وإن كانت وطأة الحكم لم تشتد عليه إلا فى أواخر القرن الثامن عشر ، قد كان يتحرك للمحافظة على حقوقه وحرياته منذ أول ذلك القرن ، فنسمع فى عام ١١١٤ للهجرة أى فى سنة ١٧٠٢ للميلاد . « أن أهل الأسواق أصابهم غبن من وراء تزييف النقود فاجتمعوا ودخلوا الجامع الأزهر وشكوا أمرهم إلى العلماء وألزموهم بالركوب معهم إلى الديوان » .

فأمر الباشا باجتماع عام يحضره الأمراء والقاضى التركى والأغوات (قواد فرق الجيش) ونقيب الأشراف وكبار العلماء .

ونظر المجتمعون فى الأمر واستقر رأيهم على خطة محددة تحفظ مصلحة الناس وتزيل وجه شكواهم .

ونسمع فى عام ١١٤٨ للهجرة أى فى سنة ١٧٣٥ للميلاد أن السلطان أرسل إلى مصر أمراً خاصا بشؤون مالية بقصد إبطال بعض المرتبات التى كان تصرف فى وجوه خيرية ، واجتمع أعضاء الديوان لتلقى ذلك الأمر ، فلما قرئ المرسوم السلطانى بادر القاضى العثمانى فقال : « أمر السلطان لا يخالف وتجب إطاعته » فانبرى له أحد الأعضاء المصريين وهو الشيخ سليمان المنصورى فقال : « يا شيخ الإسلام . هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان . وهذا شىء جرت به

العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة ، فلا يجوز إبطال ذلك ، وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك . فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطله ، وإن أمر ولى الأمر بإبطاله لا يسلم له ويخالف أمره ، لأن ذلك مخالفة للشرع ولا يسلم للإمام فى فعل يخالف الشرع » ، وكانت وقفة الشيخ الجليل سبباً فى عدول الحكومة عما كانت عازمة عليه . وإنه لا يسع الإنسان إلا الإعجاب بمثل هذه الدقة فى القول وهذا الاتزان فى المنطق ، وهذه الجرأة فى الحق ، كما لا يسع من يسمع مثل هذا القول أن يدعى أن صوت مصر لم يكن قويا فى أندية الحكم ودواوينه . بل إن مثل ذلك القول ينم عن يقظة ممثلى الشعب وتنبههم إلى المحافظة على حقوق قومهم وتقدير حكام مصر لرأى هؤلاء الممثلين الأجلاء .

ولم يكن صوت المصريين داوياً فى مجتمعات الديوان وحدها بل كان للشعب منافذ أخرى يعبر بها عن إرادته ويردد منها شكواه ويرسم بوساطتها أمانيه ومثله العليا ، فإن بعض المتكلمين من الوعاظ الذين كانوا يتعاقبون فى تلك العصور كانوا بمثابة الصحفيين يعقدون مجالسهم فى المساجد فيلقون فيها دروساً فى

معانى العدل وواجبات الحكام وحقوق المحكومين ، ويدسون فى خلال تلك الدروس نقدات للحكام ، لا يخشون منهم غضباً ولا يتوجسون منهم خوفاً . وكان بعض الحكام يضيق بنقدهم ، ولكنهم كانوا فى أغلب الأحوال يتركونهم آمنين أحراراً لا يقيدون ولا يعاقبون على ما يصدر عنهم من النقد . وكان نقدهم فى كل الأحوال نقداً عالياً نبيلاً يقصدون به تصوير المثل الأعلى للحكم ، ويدعون فيه إلى العدل وأداء الواجب . ولعل أول من نبغ من هؤلاء الوعاظ هو الشيخ الحفنى الذى كان يعاصر ملك مصر العظيم على بك الكبير . وهو محمد بن سالم الحفناوى أو الحفنى الحسينى نسباً . وكان زاهداً ورعاً كريماً كثير البذل للفقراء . واتخذ سبيل الدعوة إلى الخير على طريقة صوفية اسمها الطريقة الخلوتية ، وكثر أتباعه واعتقد فيه الناس اعتقاداً كبيراً سواء فى ذلك العامة والخاصة ، حتى قال عنه الجبرتى صاحب « عجائب الآثار » : « إنه كان قطب رحى الديار المصرية لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته » ، وكان لا يتردد فى إبداء نصحه صريحاً قويا وإن كره أهل الحكم رأيه وصراحته .

وكان الشيخ الحفنى فوق هذا عضواً فى ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى مع جماعة من إخوانه تمثيلاً رائعاً ، حتى كان على بك

الكبير على شدته وقوة ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته . وكان فى مناقشاته فى الديوان لا يتردد أحياناً أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا هم عمدوا إلى ما يسىء إليه أو يضر بمصلحته ، فقد وقف مرة يناقش فى ضرورة إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين فى الصعيد . وكان رأيه أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ، فلم يتردد فى آخر خطبته القوية أن يصيح قائلا : « والله لن نسمح أن يسافر أحد وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبداً » .

ولما توفى الشيخ الحفنى حل محله فى زعامة النقد واعظ آخر وهو ابن النقيب السيد على بن موسى الحسينى المقدسى ، وعرف بابن النقيب لأن جدوده كانوا نقباء الأشراف فى بيت المقدس . وكان واسع العلم يلقى دروساً فى المسجد الحسينى فى التفسير والفقه والحديث . وكان فوق ذلك كاتباً أديباً حسن الأسلوب وزاهداً لا يضن بشىء يملكه على سائليه . ولهذا كانت له مكانة عظيمة فى قلوب الناس . وكان فوق كل هذا فارساً ماهراً فى فنون الحرب واستعمال السلاح واللعب بالرماح ، فكان يجمع كل صفات النساك المحاربين الذين ينهجون نهج القاضى عيسى الهكارى الذى كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبى واشترك معه فى محاربة الصليبيين .

وكان أهل مصر يعرفونه بالمحدث ، ومع أنه كان محبوباً عند الأمراء ورجال الدولة لم يمتنع عن نقد ما كان يراه فيهم وفى أحكامهم من العيوب ، وكان نقده أحياناً يبلغ حد المرارة والعنف . ولكن صدر هؤلاء الحكام لم يضق به ، ولم يحدث له من وراء نقده أى ضرر . مع أنه ذهب مرة إلى القسطنطينية حوالى عام ١٧٦٣ للميلاد فلم يسمح له بالبقاء طويلا فيها لما عرف عنه من الصراحة فى النقد ، واضطر إلى العودة إلى مصر . وكان الأمير محمد بك أبو الذهب يرحب به ويوسع له فى مجلسه مع ما يلقى منه من النقد ، وكان يقابل نقده بالإحسان فوق التسامح ، ومن ذلك أنه سأله مرة عن حاله ، وكيف وجد عاصمة الخلافة فى استامبول عند زيارته لها ، فكان جوابه على ذلك قوله : « لم يبق باستامبول خير ولا بمصر كذلك خير ، فلا يكرم بهما إلا شرار الخلق » فلم يغضب الأمير من رده بل أرسل إليه بعد انصرافه من مجلسه هدية قدرها مائة ألف نصف فضة ليقضى بها ديونه ولينفق منها على الفقراء كعادته .

وقد عاصر هذا الواعظ الكبير شيخ آخر جليل كان ينهج مثل نهجه مع شىء من الاعتدال ، وهو الشيخ على الصعيدى وكان معاصراً لملكى مصر العظيمين على بك الكبير ، ومحمد بك

أبى الذهب . وبلغ من إكرام هذين الملكين له أنهما كانا إذا دخل عليهما أفسحا له وقبلا يده ، ولم يردا له شفاعة ، وكان كثير الشفاعة عندهما ، يتدخل لمصالح الناس . فكان من الدولة بمثابة النائب الشعبي الذى يسعى لمصالح الناس عند أهل الحكم . وكان الناس يلجأون إليه إذا ما مسهم ما يشكون منه ، فيكتب شكاواهم فى ثبت ويدخل بها على الأمير ، فلا يخالفه فى شىء مما يرجوه فيه ، ولا ينقبض عنه . وكان يقول لمحمد بك أبى الذهب إذا وجد منه شيئاً من التردد : « لا تضجر ولا تأسف على شىء يفوتك بغير حق فى الدنيا ، فإن الدنيا فانية وكلنا نموت ويوم القيامة يسألنا الله عن تأخرنا عن نصحك ؛ وها نحن قد نصحناك وخرجنا من العهدة » . فإذا امتنع الأمير عن إجابة مطلب له صرخ وقال له : « اتق النار وعذاب جهنم » ثم يمسك يده ويقول له : « أنا خائف على هذه اليد من النار » .

وسنذكر فيما يأتى أسماء بعض زعماء الشعب الذين انتهجوا فيما بعد خطة أخرى غير النقد والنصح عند ما تحولت مجارى الأمور فى أيام مراد وإبراهيم . وحسبنا هنا أن نقول إن أمراء مصر فى أثناء القرن الثامن عشر كانوا يحاولون بكل ما استطاعوا أن يكون حكمهم مرضيا عنه عند الشعب ، وأن يكونوا فى

سياستهم موفقين إلى العدل فيهم بحسب عقلية عصرهم وأساليبه . وكانوا يعملون على تقريب أهل العلم والأعيان والأدباء ، ويشجعونهم على غشيان مجالسهم ؛ فكانت مجالس على بك الكبير تمتاز بوقار من يؤمها من العلماء الأجلاء ، والزهاد الفضلاء . وكذلك كانت مجالس أبي الذهب من بعده ، في حين كانت مجالس الأمير رضوان قبل ذلك مضرب الأمثال في البهجة الفنية والسمو الأدبي ، حافلة بأسماء تباهى بها مصر من الأدباء المبرزين الأعلام . وكان هذا التقريب عاملاً من أقوى العوامل على إيجاد روح من الود طالما ساعد على تبادل العطف بين الحاكم والمحكوم ، وهو عطف كان يؤدي بغير شك إلى إصلاح الحكم والمحافظة على حقوق الناس وعواطفهم .

ولما تولى الطاغيتان إبراهيم ومراد ؛ تغير الحال واختل الأمر ورأى الشعب أن لا بد له من انتهاج خطة جديدة للمحافظة على حرياته وحقوقه ؛ فخطا خطوة جديدة لم يسبق له عهد بها . فإن الطاغيتين كانت تحيط بهما هالة من أهل الطاغوت ، وهي عصبة للشر ما كانت تتنبه إلى حق ، ولا ترعوى عن غي . ورأى أهل مصر أنهم حيال نوع جديد من الحكم ، لا تنفع فيه النصيحة ولا تستقيم معه الأمور على الشفاعة . ولم يكن للشعب

بعد أن عجز عن النصح إلا ذلك الحق الطبيعى الذى للشعوب ، وهو أن يرغم الحكام على الإصلاح . وهكذا رأى أهل مصر ألاّ ملجأ لهم من طغيان إبراهيم ومراد ، إلا بأن يلجأوا إلى القوة والثورة .

بعد مضى سنة واحدة من حكم الطاغيتين ، ثارت مسألة فى خلاف على وقف . ولم يكن للمسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان القصد منها نضالاً على مبدإ قانونى وهو : هل يجوز للأمير القوى أن يدل بقوته و يثور على القانون فيعصاه ، أم لا بد له من الخضوع للقانون ولو كان خصمه ضعيفاً لا سند له من سلطان الدولة . وكانت الخصومة بين رجل من أفراد الشعب ، وأمير من كبار الأمراء من عصابة الطغيان . واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة فلجأ إلى القضاء ، ولوح الأمير القوى بالقوة والبطش . وحكم الشرع للرجل الضعيف ، فأبى الأمير الإذعان للحق ؛ وأصبح الأمر معلقاً بين أن ينتصر القانون ، و بين أن تجتاح القوة كل سياج وكل حرمة .

فأدرك العلماء أن واجبهم يناديهم — وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه — بالمحافظة على القانون والحق . ولم يترددوا لحظة ، بل هبوا لنداء الواجب ، وتصدر فيهم زعيم اسمه

الشيخ الدردير ، رحمه الله وطيب ثراه . فأرعد الأمير المدل وأبرق ، وأرغى وأزبد ، ونهر وتوعد . فوقف العلماء وثبتوا ، وأرغوا وأزبدوا كذلك ، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم . وكانت مظاهرة كبرى ، فأغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة ، وأوشك الأمر أن يؤدى إلى فوضى شاملة ، لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب ، وأشفقوا من تلك الحال ، فاجتمعوا وتشاوروا ، ثم أرسلوا إلى الأمير المعاند فلاموه على وقفته ، وأمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة . ولم يرض العلماء أن يدعوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتسبونه للناس ، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب ، وكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء ، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ويحتمه العرف .

وقد أثرت أمثال هذه الصيحة فى الأمراء ، فصاروا يخشون الشعب خشية عظيمة ، حتى أنه عند ما أشيع مجىء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة مراد وإبراهيم بقيادة القبودان حسن باشا ، ذعر الطاغيتان خوفاً من أن ينتهز الشعب تلك الفرصة فيثور مظهراً ما فى نفسه من الألم ، فحاولوا التقرب إلى زعمائه . وقد

وصف أحد من شهد ذلك العصر تذلل الأمراء بقوله : « فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ، ثم الشيخ العروسى والشيخ الدردير ، وصار يبكى لهم وتصاغر فى نفســه جدا وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فإنه كان يخاف ذلك جدا »[١] .

والحق أن شعب مصر كان عنـد ذلك قوى الإحساس بنفسه ، وبمـا ينبغى له من الحرية ، وما يجب له من الحقوق ، لا يتهاون فى إظهار ذلك الإحساس بشتى الوسائل كلمـا لاحت له فرصة ، أو كلمـا حدث حادث يشتم منه رائحة الاستهانة بكرامته أو الاعتداء على حرماته . ولهذا كانت ثوراته تتوالى عنـد كل مناسبة ، فمـا تـكاد ثورة تهدأ فى القاهرة حتى تشب أخت لهـا فى رشيد ، وما تـكاد تلك تخبو حتى تبـدأ أخرى فى بلبيس ، وكان بعض هذه الثورات يبدو عنيفاً كأنمـا هو ينذر بثورة شاملة كثورة فرنسا . ونحن إذا بحثنا حال فرنسا قبيل ثورتها لانستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس أكثر مما بدا فى أواخر القرن الثامن عشر فى مصر ، فإن فرنسا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم ، ومن العبث بالحريات إلى أواخر ذلك القرن ؛ لا بل

(١) عجائب الآثار جزء ٢ ص ١١٨ .

إن سوء الحكم فيها قد زاد فى أواخر ذلك القرن عما كان فى أواسطه . فكانت أفاعيل لويس الخامس عشر وخليلته المشئومة فى أواخر ذلك القرن جديرة بكل حنق وكل غيظ ، ولكن الفرنسيين لم يثوروا عند ذلك ، وإنما كانت ثورتهم فى أيام الملك الطيب الذى جاء عقبه . أما فى مصر فقد بدت تلك الثورات كالشرر المتطاير وما كان أقمنها أن تنتهى إما بثورة تامة كثورة فرنسا ، وإما بإصلاح تدريجى شامل يتناول كل نظمها . وأغلب ظننا أن حكام مصر ما كانوا ليسمحوا للأمور أن تتفاقم إلى أن تحرج الصدور وتدفع بها إلى الثورة المدمرة ، فقد كانوا دائما ينزلون عند إرادة الشعب بعد أن يروا غضبته ، ويصلحون ما يشكو منه من فساد ، ويقومون ما يشير إليه من اعوجاج ؛ وتكررت الأمثلة الدالة على ذلك ، وإنا نسوق هنا بعضها للدلالة على ما كان يتحرك به حكام مصر إذ ذاك ، وإن كانوا على ما كانوا عليه من الطغيان .

اعتدى مرة موظف إدارى (الوالى) على بعض أهالى الحسينية ، واشتد فى مطالبة قصاب اسمه أحمد سالم بأموال الحكومة ، وأراد القبض عليه بغير حكم شرعى مخالفاً فى ذلك حقا كان أهل مصر قد اكتسبوه من قبل ألا يمس أحد منهم إلا على مقتضى

الشريعة ؛ فثار أهل الحسينية لذلك الاعتداء والتجأوا إلى الشيخ العروسى (وكان الشيخ الدردير قد توفى إلى رحمة ربه) ، فقام الشيخ العروسى بأمر الوساطة فى شأن الشعب . وانتهى الأمر إلى مشادة طويلة خاف الأمراء غبها ، فنزلوا عند إرادة الثائرين وعزلوا الوالى وولوا آخر بدله ، ونزل الوالى الجديد من الديوان إلى الأزهر ، وقابل المشايخ الحاضرين واسترضاهم ، ورأى أهل مصر أن حقهم لن يضيع ما داموا حريصين على المحافظة عليه .

وفى أواخر عام ١٢٠٩ (١٧٩٥) اشتدت وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس فى تحصيل الأموال ، فالتجأ الفلاحون إلى الشيخ الشرقاوى ليحميهم وكان الشيخ قد أصابه ضرر من تحصيل تلك الأموال إذ كانت له حصة من أرض ذلك الريف ، فبدأ الشيخ بمخاطبة مراد وإبراهيم ، فلما لم يجد لمسعاه أثراً فى إصلاح الحال بالسعى السلمى دعا إلى الثورة فوجد النفوس مستعدة لدعوته فاجتمع له كثير من أهل القاهرة ومن أهل الأطراف ، وأوشك الأمر أن يؤدى إلى ثورة دموية مدمرة ، وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف ، والناس مصرون على أن يقفوا الحكام عند حد العدل والحق أو يواصلوا الجهاد وإن أدى إلى إراقة الدماء وبذل الأموال والأنفس ، فرأى كبار الأمراء أن الأمر

يوشك أن ينتهى إلى اضطراب لا قبل لهم به ، قال شاهد عيان :

« فنزل الباشا إلى بيت إبراهيم بك ، واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير . . . . ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم (الأمراء) تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح على شروط منها . . . . . أن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس . . . . وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة . . . . وكان القاضى حاضراً بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفَرْمن عليها الباشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضاً ، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل منهم وأمامه وخلفه جملة من العامة وهم ينادون الخ الخ » .

ولئن كانت هذه البوادر لم تنته إلى حادث حاسم كما انتهت إليه الثورة الفرنسية ، ولم تنته إلى نمو تدريجى فى إصلاح نظام الحكم كما حدث على مر السنين فى انجلترة ، فإن ذلك إنما يرجع إلى تلك النكبة التى نزلت بالبلاد عقب هذا ، تلك النكبة التى عاقت سير مصر إلى نهايته وقطعت عليها سبيلها نحو الحياة الحرة الكريمة واعترضت نموها بكوارثها ونتائجها ، أعنى نكبة الغزوة

الأجنبية الفرنسية التى قذفتها على مصر ثورة طالبى الحقوق والحرية فى فرنسا . تلك الغزوة التى حفرت هوة عميقة بين ماضى مصر وحاضرها وجعلت بلاد مصر الحديثة أعجوبة من أعاجيب النمو المختلط المضطرب المشوه ، لا يمت إلى الماضى بصلة متينة توحد بين عواطف القرون المتعاقبة ولا يتصل بسعى الأجيال السالفة من الآباء والجدود .

على أننا يجب ألا ننسى أنه قد طرأ مع هذه الروح الجديدة فى شعب مصر تغير محسوس على نظام الحكم فيها يتمثل فى الديوان الكبير الذى كان يدير أمورها . فإن ذلك الديوان كان لا يجتمع إلا نادراً فى أوائل القرن الثامن عشر وأواسطه ، وأما فى أواخر القرن فقد كثر اجتماعه وتعددت جلساته ، وكان صوت مصر فيه أوضح وأعلى . فلم يكن ممثلو شعب مصر أقل شأناً فى الديوان من الأمراء أو من الباشا ممثل السلطان ، بل لقد كانوا دائماً فى مكان الإجلال والتقديم ، وكانوا يعدون أثبت الأعضاء قدماً وأوثقهم ذمة ، ومن أمثله ذلك أنه عند ما أشيع نبأ إرسال الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مصر فى أيام إبراهيم ومراد ، أراد هذان الطاغيان أن يقنعا الباشا التركى بعزمهم على الإصلاح والاعتدال وحاولا أن يوهماه بأنهما قد تابا عن الطغيان وطلبا إليه أن يرسل

إلى السلطان يرجوه أن يمتنع عن إرسال الحملة التأديبية إليهما . وكانا فى كل ذلك السعى يلجآن إلى أعضاء الديوان المصريين يتذللان لهم ويظهران الخضوع والندم ، ويرجوانهم أن يساعدوهما عند الباشا ويضمنوهما عنده فى تعهدهما بالاستقامة والعدل . ولما تحقق مجيء الحملة التركية بقيادة حسن باشا القبودان ، اختير الأعضاء المصريون ليكونوا على رأس الوفد الذاهب لمقابلته والمفاوضة معه باسم المصريين . ولما اقترب من العاصمة ورأى الأمراء أن انتصاره محقق عليهم لم يجدوا من يوسطونه فى الصلح معه سوى ممثلى الشعب .

ولقد بلغ من أمر الأعضاء المصريين فى الديوان أنهم لم يحجموا عن معارضة القائد المنتصر نفسه إذا كانت أوامره فى نظرهم ضارة بمصر ، غير ناظرين إلى مصلحة أخرى غير مصلحتها . ومن أمثلة ذلك أنه عرض عليهم مرة اقتراح الاستعانة بجنود تركية تطلب من دار الخلافة لمحاربة الأمراء الهاربين فى الصعيد ، فعارض الشيخ العروسى فى ذلك قائلا فيما قال : « والأولى استجلاب خواطر الجند (المصرى) بالإحسان إليهم والذى تعطونه للأغراب أعطوه لأهل بلادكم » وكانت نتيجة معارضته أن أغفل الاقتراح وأهمل . ولما اشتد النضال بين الأمراء المطرودين و بين الحكومة

القائمة فى القاهرة عقب رجوع حسن باشا القبودان إلى بلاده ، جمع الباشا الديوان للنظر فى وسائل الدفاع عن القاهرة ، فقرئ كتاب على الأعضاء باللغة التركية ، فتكلم الشيخ العروسى وقال : « أخبرونا عن حاصل هذا الكلام فاننا لا نعرف التركية » فلما أخبر بمعنى القول ألقى خطبة مملوءة بالتهكم يقول فيها للحكام إنه لا يعبأ بأن يكون الحاكم هـذا الأمير أو ذاك و إنما الذى يهمه و يملأ قلبه حال الناس ومصلحة الشعب ، ثم قال فى آخر خطابه للأمراء الحاضرين : « فاخرجوا إليهم للحرب ساعة فإما أن تغلبوا و إما أن تغلبوا ، فان هـذا الحال من النضال يستدعى طولا و يقتضى خراباً وتعطيلا » . أليس معنى هذا أنه يقول للأمراء إنه لا يعبأ بأن ينصر ذلك الحزب منهم أو ذاك ، و إن الشىء الجدير بنظره هو منفعة الشعب وتيسير أحواله ورفع مضرة الحرب عنه فى أسرع وقت وأقصره ؟

فى هذا الوقت من القرن الثامن عشر بدأ ظهور رجل كانت حياته تتمة لذلك الجهاد القومى الذى استمر طول القرن كما كانت روحه من الروح الجـديد المنبعث من سعى مصر نحو النور والاستقلال ، وذلك هو السيد عمر مكرم ، وهو الذى نترجم له فى هذا الـكتاب .

السيد عمر مكرم

ولد السيد عمر مكرم فى مدينة أسيوط ونشأ بها فى أسرة شريفة تنتسب إلى البيت النبوى الكريم ، ولكننا لم نستطع أن نهتدى إلى تفصيل نسبه مع سعينا المتواصل فى هذا السبيل فى كل نطاق البحث ولم نجد ما يهدينا إلى شرف نسبه إلا ما جاء فى حجتين لوقفين وقفهما ، عثرنا عليهما فى مكتبته ، إحداهما سجلت فى سنة ١٢١٠ هجرية ، والأخرى فى سنة ١٢٣٥ هجرية ، وفيهما نعت بأنه « فرع الشجرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية الشيخ الإمام العلامة الهمام أوحد الأفاضل العظام السيد الشريف الطاهر العفيف مولانا سراج الدين عمر أفندى نقيب السادة الأشراف » .

ولهذا فنحن لا نعرف أسماء أحد من آبائه إلا اسم والده ، وقد ذكر عرضاً فى إحدى الحجتين وهو السيد حسين . ولا نستطيع أن نؤول هذا إلا بأنه كان رجلاً شديد الاعتزاز بنفسه لا يرى أنه كبير بنسبه و بعظمة آبائه ، بل بما يحسه من الكرامة والفضل .

ولسنا نعرف سنة مولده على وجه التحقيق لأننا لم نجد له ترجمة تخلفت عن العصر ، فإن كاتب التراجم الصادق الذى ترجم لمئات من أعيان القرنين الحادى عشر والثانى عشر للهجرة

و بدء الثالث عشر ، وهو مؤلف كتاب « عجائب الآثار » لم يذكر ترجمة له إذ كان لا يكتب سيرة رجل إلا فى سنة وفاته ، وقد توفى ذلك المؤلف قبل وفاة السيد عمر ، ففاتنا قسط ثمين من العلم عن ذلك البطل المصرى ، كنا نظفر به لو فزنا بتلك الترجمة فى كتابه .

وليس السيد عمر فذا بين الأبطال فى أن الناس يجهلون مولده وأوليته ، فإن أكثر العظماء سواء فى هذا . فالبطل الذى يولد من آحاد الناس ثم يظهر أمره و يبنى لنفسه مجداً إنما يعرف الناس آخرته خيراً من معرفتهم لأولاه ، وقلما نرى أحداً من هؤلاء الأمجاد ليس فى تاريخ ولادته وحياته الأولى تشكيك وتردد .

غير أنا مع ذلك نستطيع أن نقول على وجه التقريب أنه ولد حوالى عام ١٧٥٥ للميلاد ، أى فى أواخر حكم إبراهيم ورضوان وقبل أن يعلو نجم ملك مصر العظيم على بك الكبير . ولسنا نستخلص هذا التاريخ من وثيقة ولا من خبر ، بل نستخلصه من الاستنتاج والمقارنة .

فقد قيل إن محمد على باشا كان يتحدث بأنه ولد فى سنة ١٧٦٩ للميلاد ، وهو العام الذى ولد فيه نابليون بونابرت ، وصار والياً على مصر فى عام ١٨٠٥ ، فكانت سنه عند ذلك

نحو ستة وثلاثين عاماً . وكان السيد عمر مكرم أسن منه بغير شك ، إذ كان الباشا يجله إجلال الابن للوالد ، وقد خاطبه بقوله : « والدنا » فى بعض كتبه فى عام ١٨١٩ . وكانت سن الباشا عند ذلك قد أوفت على الخمسين ، فما كان ليخاطبه بمثل هذا الخطاب إلا إذا كان فى سن متقدمة .

وذكره أحد الفرنسيين الذين زاروا مصر حوالى سنة ١٨٢٠ ووصفه بأنه كان شيخاً كبير السن لا يتحمل مشقة الانتقال والأسفار ، وهذا لا يكون إلا إذا كان قد بلغ ما فوق الستين .

غير أننا من جهة أخرى لا نستطيع أن نتصور أنه ولد قبل عام ١٧٥٥ ، لأنه فى أثناء الحوادث الجلى التى حدثت بمصر فى عام ١٨٠٥ ، كان روح الحركة المصرية ومدير ثورتها وقائد الشعب الذى لا يفتر ولا يسكن . وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت سنه لا تزال دون الخمسين وهى السن التى لا يعجز صاحبها عن العمل المتواصل والحركة المستمرة ، والتى تمتاز بنضوج العقل واستقرار النفس واتزان الفعل . ولو كان ميلاده قبل عام ١٧٥٥ بكثير لكان فى سنة ١٨٠٥ شيخاً ضعيفاً لا يستطيع بذل مثل هذا الجهد العنيف فى مثل تلك الأوقات العصيبة .

وكان السيد عمر فى عام ١٢٠٥ هجرية (١٧٩١ للميلاد) ،

رجلا ناضجاً جديراً بأن توكل إليه أمور هامة من أمور الدولة ، فإنه قام عند ذلك بسفارة هامة بين كبار أمراء مصر كما سيأتى ؛ ولا نظن أن مثل تلك السفارة كانت لتوكل إلى من لم ينيف على الثلاثين .

لهذا كله نرى أنه قد ولد فى أواخر حكم إبراهيم ورضوان حوالى سنة ١٧٥٥ وأدرك وعقل فى مدة على بك الكبير ، ثم شهد فتوحه وما بلغته مصر فى أيامه من التقدم الاقتصادى والمجد السياسى ، ثم رأى الانقلاب الذى أحدثه محمد بك أبو الذهب ، ثم وفاته العجيبة وهو فى قمة المجد وزهو الانتصار ، ورأى بعد ذلك ما أصاب مصر من الانتكاس والاضطراب فى أيام إبراهيم ومراد ، وما لحق بها من تدهور فى حياتها العامة وثروتها ونظامها .

وقد تعلم على أسلوب عصره وتخرج فى الأزهر ، وحصل على قسط وافر من العلوم التى كانت معروفة فى مصر فى عصره ، وكانت له عناية بالقراءة فى كتب الدين والفقه ؛ واقتنى مكتبة كبيرة لا يزال جزء منها محفوظاً فى دار الكتب المصرية يحمل اسمه ، وله سجل خاص . غير أنه كان بطبعه ميالا إلى الانصراف للحياة العامة ، ولهذا لم يشتغل بالتدريس فى الأزهر كما كانت عادة علماء العصر ، ولم يتفرغ لتأليف ولا لتصنيف ، إذ

كان استعداده العقلى والنفسى يميل به نحو السياسة والاهتمام بأمور المجتمع المصرى . وقد اتخذ أعداؤه ومنافسوه هذا الميل إلى الانصراف للأمور السياسية وسيلة للحط من شأنه فيما بعد ، فكانوا يصفونه بأنه « صاحب حرفة » أو « جابى وقف » على ما سيأتى ذكره فيما بعد .

ولهذا لم يكن معروفا فى وقته باللقب الذى اعتاد الناس أن يلقبوا به مشايخ الأزهر وهو لقب « الشيخ » ، بل كان معروفا بلقب « السيد » ، كما كان يشار إليه أحياناً باسم « السيد عمر أفندى » .

وهو وإن كان من فروع الدوحة النبوية الشريفة لم يكن من أعرق بيوتها ولا أعظمها شأناً إذ كان محل الصدارة فى تلك البيوت لأسرتين أعرق من أسرته لهما فى الناس مكانة معروفة منذ أجيال ، وهما أسرة السادات المنتسبة إلى السيد وفا ، وأسرة البكرى . وكانت رياسة الأسر الشريفة محصورة فى هذين البيتين يتوارثانها ويتعاقبان عليها ويتنافسان فيها .

وكان أول ظهور السيد عمر فى ميدان السياسة فى عام ١٢٠٥ للهجرة (سنة ١٧٩١ للميلاد) ، وذلك بعد رجوع القائد التركى حسن باشا الجزائرلى إلى بلاده مع جيشه الذى أتى به لتأديب

إبراهيم ومراد ، فان حزب الأمراء الذى كان يحكم البلاد تحت جناح القائد التركى المنتصر لم يستطع المحافظة على السلطة بعد خروج حاميه الذى كان يعززه بقوة جيشه ، وانتهز مراد و إبراهيم هذه الفرصة ، فأرسلا من قبلهما رسولا يفاوض الحكومة القائمة فى أن يعودا إلى القاهرة و يشتركا فى الحكم ، وكان رسولهما هو السيد عمر مكرم ، وكان قد اتصل بالأميرين فى مدة وجودهما فى الصعيد ، فاختاراه ليؤدى عنهما تلك الرسالة لما توسما فيه من المقدرة والنفوذ .

فأقام فى القاهرة يومين اثنين تمكن فيهما من تمهيد السبيل لعودة صديقيه إلى الحكم كما أنه اتصل فى أثناء هذه المدة القصيرة بكثير من الأمراء والمشايخ ، وكان مسعاه فى هذا السبيل من أكبر ما سهل رجوع الحكم إلى مراد و إبراهيم .

ولسنا نرى من واجبنا الدفاع عن السيد عمر فى أنه قد خدم هذين الطاغيتين ، أو أنه مهد السبيل إلى عودتهما إلى الحكم ؛ ولكننا لا نجد بدا من أن نشير إلى حقيقة واحدة ، وهى أن الحكم القائم فى القاهرة عند ذلك لم يكن إلا على مثال حكم مراد و إبراهيم ، بل لعله كان أسوأ وأشد قسوة و إفساداً . وكان قيام السيد عمر بأداء تلك الرسالة خدمة لرجلين اتصل بهما ، فكان

بمثابة صديق يؤدى خدمة لصديق له . فإذا نحن قدرنا أن إبراهيم ومراد كانا عند ذلك خارج الحكم ، وأنهما كانا طريدين فى منفى بعيد ، وأنهما كانا بطبيعة الحال يظهران له مساوئ الحكم القائم فى القاهرة ، ويبرران له عودتهما إلى القبض على زمام الأمور ، إذا قدرنا كل ذلك كان موقفه غير بعيد من أن يكون موقفاً طبيعيا .

صار اسم السيد عمر بعد نجاحه فى هذه السفارة من الأسماء المعروفة التى تتردد على الألسنة ، وكان من نتائج ذلك أن صار من رجال الدولة المقربين إلى الأميرين بعد عودتهما إلى الحكم ، ولم يقصرا فى مكافأته على خدمته العظيمة عند ما سنحت الفرصة لذلك بعد ثلاث سنوات ، أى فى عام ١٢٠٨ للهجرة (سنة ١٧٩٣ للميلاد) ، فقد توفى فى ذلك العام السيد محمد البكرى نقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية ، ولم يكن له عقب فى بيته لأنه مات فى مقتبل العمر ، فورثه فى مشيخة البكرية خاله السيد خليل البكرى ، وأسندت نقابة الأشراف إلى « السيد عمر مكرم أفندى السيوطى » .

وكان السيد عمر بغير شك أثيراً عند الناس ذا مكانة سامية فى نفوسهم ، لدماثة خلقه ، وكرم نفسه ، وعفته عن المال

فلم يرتفع صوت إنكار عنـد ما تولى نقابة الأشراف ، ولم يجرؤ زعيم بيت السادات على تجريحه ولا الحط من شأنه علانية ، بل اكتفى بالحقد عليه ، وكتم ذلك فى نفسه حتى لاحت له فرصة الانتقام ، فانتهزها بعد سنين طويلة .

وقضى السيد عمر فى نقابة الأشراف فى دولة إبراهيم ومراد نحو خمس سنوات ، كانت من أكثر أوقات مصر اضطرابا ، ومن أشدها هولا ، إذ أظهر هذان الأميران فى أثنائها من الطغيان والظلم مالم يسبق لمصر أن شهدته ، فكان أحدهما وهو مراد عنيفاً غليظاً شديد البطش قصير النظر ، طاغية من أشد الطواغيت وطأة ، أفسد كل ما أصلح السابقون منذ أول القرن الثامن عشر ، واعتدى هو ومماليكه على حقوق الناس وحرياتهم اعتداء لم يقووا على احتماله ، فاندفعوا إلى الثورة برغمهم ، وكان الآخر وهو إبراهيم جباناً شديد الحرص ، بلغ من ضعفه أنه كان مطية لزوجته ، حتى قيل إنها صفعته فى مناسبة دنيئة ، فلم يغضب ولم يرعو عما صفع من أجـله ؛ وكان همه الأكبر أن يحتفظ بنصيبه من غنيمة الحكم فترك لشريكه الحبل على الغارب ، وقنع بمـا كان يلقيه إليه من فىء عسفه وسوء حكمه .

وإنه ليبدو عجيباً أن يكون السيد عمر من رجال هـذه

الدولة وهو الذي قضى حياته الأخيرة كلها فى خدمة شعب مصر وتحقيق أمانيه ، والسعى إلى تحريره وإعلاء كرامته .
فقد ثار أهل مصر فى مدة هذين الطاغيتين كما سبق لنا وصفه ، ولكننا لا نجده يتصدى فى أثناء تلك الثورات المتلاحقة لقيادة العامة ، بل بقى بمعزل عن حركاتهم لا نكاد نسمع اسمه فى قيادتهم ، ولا نسمع دوى صوته مع ندائهم . ولكن المتأمل فى هذا لا يعجز عن وجود المخرج من حيرته إذا اعتد بأمرين :
الأمر الأول أنه كان صنيعة دولة مراد وسفير مفاوضاتها على ما مر ذكره ، فلم يكن من الطبيعى أن يكون فى صدر الساعين فى نقضها . والثانى أنه لم يكن بعد قد شارك الناس فى الحوادث ، ولم يكن بعد قد أنس إليهم وأنسوا إليه حتى يكون إليه مفزعهم عند الملمات ، وكان للناس عنه مندوحة إذ كان بينهم من المشايخ المتقدمين فى السن والمعترف لهم بالصدارة من اعتادوا أن يفزعوا إليهم إذا دعت الأحوال ؛ فكان هناك الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر ، والشيخ الأمير المقدم فى أهل العلم لسنه ولمكانته من الدولة العثمانية ، ولتقدمه فى العلوم المعروفة بين أهل العصر ، وكان ثمة بيتا السادات والبكرى ، وما إليهما من البيوت القدامى التى اعتاد الناس أن يلجأوا إليها إذا أصابتهم من

رجال الدولة مظلمة ؛ على أنه مع ذلك لم يقصر عن الاشتراك في حل المشاكل وإن لم يشترك في الثورات ، فكان كلما ثار الناس كان بين العاملين على تهدئة الحال ، وكانت مشورته دائما أن يتبع الأمراء سبيل العدل والإحسان ، وأن يعدلوا عن طريق العسف والطغيان ، وكان له في أواخر عام ١٢٠٩ هـ سنة ١٧٩٥ م فضل في الاشتراك في كتابة الوثيقة الاجتماعية الكبرى التي مرت الإشارة إليها ، أو هي الوثيقة السياسية الكبرى التي يجوز لنا أن نسميها وثيقة بيت إبراهيم بك والتي أعلن فيها مراد وإبراهيم والأمراء جميعاً أنهم يتعهدون بالعدل ، ويتوبون عن المظالم ، ويعدون بالقيام بالواجبات التي يفرضها عليهم القانون والعرف ، من صرف الأموال على مستحقيها وإرسال غلال الحرمين إليهما ، ورفع الضرائب المستحدثة ما عدا الضرائب المحصلة في ديوان بولاق ، ويتكفلون بكف أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، وبأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة . وإنه لما يشرف السيد عمر أن يشترك في كتابة هذه الحجة التاريخية القيمة وهو مدين للدولة بما سما إليه من مكانة .

لم يرعو الطاغيتان بعد كتابة هذه الوثيقة ولم يقلعا عن ظلمهما بل انتكس بهما الأمر وعادا إلى ما كانا عليه من سيرة الإفساد

والتخريب ، وتحفز الشعب مرة أخرى ليعيد الكرة عليهما . ولسنا ندرى ماذا كان المآل لو تمت للشعب وثبته الجديدة ، ومضت ثلاثة أعوام مكفهرة معتكرة الأفق ، والنفوس قلقة والقلوب واجفة مضطربة ، والصدور محرجة متقدة . وفيما كان شعب مصر متردداً بين الوثوب والأناة أتاه نبأ الفرنجة ينزلون على شواطئه الشمالية فى ٣ يولية سنة ١٧٩٨ (وهو يوم الاثنين ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ) . فنظر إلى الطغاة الذين سلبوه وآذوه لعله يجد فيهم من الحماية ما ينسيه مرارة عسفهم ، ولعلهم يكفرون فى ذلك اليوم عن ماضى طغيانهم ، وانتفخت أوداج مراد ، واربد الجرح الغائر الذى كان فى وجهه[1] ، وقال فى حماقة الغرير : « سأحطم هؤلاء الفرنجة تحت سنابك خيلى » ، وسكن الناس فى انتظار الوقعة ، وعلقوا أنفاسهم وهم قلقون .

وجاءت الرسل تترى تنبئ الأميرين والناس بأن العدو الذى جاء لغزو البلاد لم يكن كسائر الأعداء الذين عهدوهم من قبل ، وأن إغارته لم تكن كاغارة بعض البدو الذين كان الأمراء يحطمونهم بصدمة من صدماتهم القوية ، وأنه قد استطاع أن

---

(١) كان لمراد جرح غائر فى وجهه من أثر ضربة سيف وكان يربد لونه إذا غضب وملكه الغيظ .

يستولى على الإسكندرية بغير مقاومة تذكر ، ثم أتت تفاصيل الأخبار ، فعرف الناس منها أن الدولة القائمة كانت دولة جبن وعسف ؛ فبينما هى تطأ الناس وتحطم نفوسهم إذا بها لا تصمد للدفاع ولا تقدر على الحماية ، لأن شعب الإسكندرية ترك والعدو المغير يدافع عن نفسه بنفسه إذا استطاع ، ولم يتحرك أحد من الأمراء لنجدته ، ولم يكن بين ظهرانيه من جنود الدولة من يقدر على الذود عنه ، فلم يجد بدا من أن يستسلم بعد قليل إذ وجد نفسه أعزل لا سلاح معه ، ولا قائد يدبر أمره ، ولا حصن يتحصن به .

وكان شعب القاهرة كلما بلغته تلك الأنباء اضطرب وانزعج ، ولكنه كان لا يزال يطمع فى أن يرى أمراءه يبرزون للحرب دونه . وتحرك الأمراء بعد تريث ، فألفوا جيشين وقف أحدهما فى شرق النيل عند بولاق بقيادة إبراهيم ، وذهب الآخر بقيادة مراد إلى الغرب ليلاقى العدو فى طريقه قبل أن يبلغ القاهرة .

وسار مراد إلى الشمال فى البر مع جزء من جيشه ، وحمل جزءاً آخر فى النهر خشية أن يكون العدو قد سلك طريق الماء فى زحفه ، والتقى بالعدو أخيراً عند شبراخيت فى ١٤ يوليه ، أى بعد نزوله بالإسكندرية بأحد عشر يوما . وهناك كانت الوقعة

الأولى بين الغزاة والأمراء ، وما كانت إلا صدمة صغيرة حتى انهزم مراد وفر إلى القاهرة بعد أن أيقن أنه لن يستطيع تحطيم عدوه تحت سنابك خيله عند أول صدمة .

وجعل مراد يتحصن عند امبابة فى البر الغربى ، وهو أكثر حذراً وأكبر وجلا .

وكان السيد عمر قد تبين له فى أثناء هذه الحوادث أن أولئك الأمراء لن يستطيعوا حماية الشعب ، وأنهم لا يعبأون إلا بأن يحتفظوا بسيادتهم فى البلاد ، فإنه كان يرى الكثيرين منهم يسرعون فى تلك الشدة إلى كنوزهم وتحفهم فينقلونها من منازلهم المعروفة إلى منازل صغيرة ، يخفونها بها فى مخابئ سرية حتى لا تصل الأيدى إليها ، ثم يذهبون إلى الحرب فيكون أول هم لهم أن يصدموا العدو صدمة عنيفة فجائية ، فإذا هى أخفقت لم يثبتوا ولم يناضلوا ولم يجاهدوا ، بل أسرعوا بالهروب ناجين بأنفسهم حرصاً على الحياة ؛ وما كانت تلك شيمة من يقصد إلى الجهاد والدفاع ، وما كان هذا نضال من يذود عن وطنه ويدافع عن حرمه . فلما رأى السيد عمر أن رجال الدولة لم يحققوا الأمل فيهم ، ولم يحسنوا القيام بالفرض الواجب عليهم ، نادى الشعب أن يهب لحماية نفسه بما استطاع ، وأخذ يدعوه

ويحرضه ويحمسه لعله يستغنى بنفسه فى الدفاع .

وكان جواب الشعب باهراً نبيلا ، إذ لبى جميعه نداء الواجب فخرج كل من فى القاهرة وضواحيها من الرجال والشبان ، حتى لم يبق أحد إلا الضعفاء والنساء ، وجاد كل منهم بما عنده من مال قليل دراهم اقتطعها الفقراء من أقواتهم وأقوات عيالهم ، وجادوا بها ليشتروا سلاحا وخياما وذخيرة . ولكن هل كان ذلك الوشل ليروى ؟ وهل كانت النية وحدها وصدق الرغبة لتغنى عن العدة والسلاح ؟ فإن شعب مصر وإن صدقت عزيمته فى الجهاد قد خانته المقدرة ، وعصته الحيلة ، وعزت عليه الوسيلة .

وماذا يستطيع الألوف من العامة فى مثل ذلك الوقت ، وهم كالقطيع لا راعى له ، ولم يكن لهم عهد من قبل بحرب ولا دفاع ، ولم يكن لهم علم بطرق الرماية وحيل السلاح ؟

نشر السيد عمر علماً كان العامة يسمونه « البيرق النبوى » ونزل من القلعة إلى بولاق ، والناس حوله ألوفا مؤلفة يحملون السلاح الساذج من عصى ونبابيت ، وهم يهللون ويكبرون ، ومعهم الطبول والزمور ، ووقفوا فى غير نظام على الشاطئ الشرقى للنيل على مقربة من جيش إبراهيم ؛ وكانوا جميعاً يتطلعون إلى الجانب الغربى ينتظرون ما يصنع مراد الجبار فى الموقعة المقبلة .

ولم يطل انتظارهم فقد ظهرت طلائع الفرنسيين فى شمال انبابة فى ٢١ يوليه بقيادة (ديزه) و (رينييه) ، وكان ذلك الجيش المغير مقسما إلى خمس وحدات كل منها على شكل مربع من ستة صفوف وضعت المدافع بينها ، فيستطيع المربع أن يتجه سريعا إلى أية ناحية أتاه الهجوم من قبلها ، فأسرع مراد مع ثمانية آلاف من مماليكه ليفاجئ هذه الطلائع ، وأمسك الفرنسيون عن قتاله ، حتى صار على مرمى نيرانهم ، ثم أطلقوا عليه النيران فجأة فحصدت مئات من المغيرين ، ولكنهم فى الحق صدقوا الهجوم فلم يرتدوا ، بل ألقوا بأنفسهم فى فم المدافع وعلى أسنة الحراب ، حتى استطاعوا أن يثلموا مربع (ديزه) ودخلوا فى وسطه ، ولكنهم اضطروا إلى الارتداد خوف أن ينحصروا فيه ، فاندفعوا نحو مربع (رينييه) ولكنهم لم يستطيعوا اختراقه . وحاولوا الثبات فأقبل عليهم مربع ثالث يقوده (دوجا) ، وكان فيه (بونابرت) فوقف بين المصريين و بين انبابه . فرأى مراد نفسه بين ثلاثة مربعات فاضطرب ، وتفرق جيشه فبعضه قصد الصحراء و بعضه قصد انبابه ، وعند ذلك جاءت بقية الجيش مكونة من مربعى (مينو) و (بون) فهاجمت انبابة فارتد عنها من قصدها من المصريين ، وانهزمت الفلول قاصدة شاطئ النيل فطاردها الفرنسيون حتى ألقوا بها فيه .

فلم تمض إلا ساعات قليلة حتى قتل من الجيش ستمائة وغرق نحو الألف ، وأصبح نظامه أثرا بعد عين ؛ وانهزم مراد ناجياً بنفسه إلى الجنوب قاصدا إلى الجيزة .

وحاول من بالجانب الشرقى أن يعبر إلى الغرب للاشتراك فى المعركة ولا سيما عندما استعر القتال ، وظهر الضعف فى صفوف المصريين ، ولكن عاكستهم الرياح الثائرة والرمال الحارة والغبار المتطاير ، فلم يبلغوا الشاطئ الغربى ، حتى كانت الهزيمة قد قضت على الجيش و بعثرته .

ولما أيقن الشعب الذى فى الجانب الشرقى أن مرادا قدفشل وهرب نظر إلى إبراهيم فلم يجد فيه إلا جبانا خائر النفس . أسرع بالهرب قبل أن يفكر فى الثبات . ورأى الشعب نفسه أعزل لا دراية له ولا قدرة . وقد كان خياله يصور له قادة ينضوى تحت لوائهم فى الجهاد فلم يجد له قادة يوجهونه ، وكان السيد عمر بينهم واحدا منهم قد امتلأ قلبه حماسة ، ولكن لا علم له بالحرب ولا قدرة له عليها . فعم الاضطراب والفزع وامتلأت القلوب كلها روعا وهلعا ، وزادها الخيال والوهم خوفا على خوف ، إذ أن بعض سفن مراد احترقت فى أثناء هروبه ، وانفجر ما فيها من المفرقعات ، فذهبت الظنون مذاهب شتى ، وحسب الناس أن الجيش المنتصر

ينسف ما يعترض سبيله و يهلك مايقع بين يديه لا يبقى ولا يذر ، وأن ذلك الحريق وهذا الانفجار من بطشه وعسفه بعد الانتصار . فعلت بينهم صيحة « إلى النجاة ! إلى الفرار ! » وأخذ الناس تيار جارف من الفزع ، فما كانوا يعرفون إلى أين يذهبون فى هروبهم ، وطارت أحلامهم ، وخرجوا من القاهرة زرافات ووحدانا يطلبون المنجى ولا يعرفون أين هو . وهاموا على وجوههم حتى تخطفهم لصوص البدو وقطاع الطرق .

وكانت الطبيعة عند ذلك ثائرة تشارك الناس فى اضطرابهم ، فكانت الرياح تهب حارة كأنفاس اللهيب ، يثور غبارها ودخانها فتزيد من نكبة الهاربين البائسين .

وطلع صباح اليوم التالى ، وكان ضوء النهار قد آنس الناس و بعث فيهم شيئا من الطمأنينة بعد تلك الكارثة ، فعلموا أن العدو لم يحرق ولم ينسف ، وهدأت الطبيعة وعاد الصفاء إلى سماء القاهرة الوديع ، فاجتمع من بقى من زعماء الشعب فى القاهرة ليروا رأيا فى مآل الأمر المنخذل . وكان أكثر هؤلاء من الذين كانوا بعيدين عن حركة الجهاد والنضال ، الذين كانوا قد اعتزلوا وأقاموا فى بيوتهم فى الأيام السابقة ، وهم من مشايخ العلم الذين لا حظ لهم فى العادة من أمور النضال ، والذين لم يكونوا بحكم سنهم وميولهم ممن يستطيعون تحمل جهد القتال .

وأما السيد عمر مكرم ومن كان معه من زعماء الشعب الذين اشتركوا فى الحركة ، فإنهم آثروا الخروج من القاهرة فاتبعوا جيش إبراهيم نحو الشرق ، وخرجوا من القاهرة .

واستقر رأى شيوخ القاهرة على أن يعلنوا للقائد الفرنسى التسليم ، فأرسلوا من قبلهم رسولين ليحملا له ذلك الرأى ، فأجاب القائد على رسالتهم جوابا حسنا وطلب إليهم أن يقابلوه ، فذهب جماعة منهم إليه ليفاوضوه وأخذت القاهرة تستعد للقاء الفاتح ، وأخذت الأمور بعد ذلك تستقر على دعائم حكم جديد .

و بعد قليل أعلن قائد الفرنسيين الأمان عقب اتفاقه مع زعماء الشعب ، فعاد كثير من الزعماء الذين كانوا قد أزمعوا الهجرة مع السيد عمر ، وكان منهم الشيخ السادات السرى الكبير ، والشيخ الشرقاوى كبير العلماء ؛ وكثيرون سواهما من جلة المشايخ وكبار الأعيان ، وعاد معهم كثير ممن هاجر من أهل القاهرة وعامة شعبها . وأما السيد عمر وجماعة أخرى قليلة معه ، فإنهم أنفوا أن يعودوا إلا إذا كانت عودتهم على جهاد ، أو سنحت لهم كرة من ثنايا حوادث المستقبل .

ولقد كانت له عن ذلك مندوحة لو شاء المسالمة والموادعة ، ولو أراد اختيار المسلك الألين والأودع ، فإنه سمع ما أعلن

الفرنسيون من الرغبة فى مصادقة أهل مصر ، وما رددوه من قولهم إنهم إنما أتوا إلى البلاد لتطهيرها من ظلم المماليك وطغيان الطغاة ، وكان اسم السيد عمر من أعلى أسماء المصريين ذكراً ، ومن أولاها عند الفرنسيين بالاستمالة والتودد ؛ ولعله سمع وهو لا يزال قريباً فى شرق البلاد أو شمالها عقب خروجه من القاهرة أن القائد الفرنسى اختاره فيمن اختارهم من زعماء البلاد ليكونوا على رأس الحكم إلى جانب الفرنسيين ، يشيرون عليهم ويؤخذ رأيهم ، ويعمل بما يرضونه . ولو كان نظره إلى نفسه ومصلحتها لآثر العودة ، كما عاد السادات والشرقاوى ، على أن يكون أحد زعماء الحكم الجديد ، فلا يتحمل التشريد والنفى ، والحرمان والفقر ، ومعاناة الأهوال والشدائد ؛ ولكنه لم يكن ينظر إلى نفسه وما تتجشمه من الأخطار وما تتكبده من المشقة ، بل كان ينظر إلى بلاد شهد أول تحركها نحو التحرر ، وذكر حقها فى الحياة الحرة المستقلة ؛ فلم يجد له وسيلة إلا أن يضحى بنفسه راضياً فى سبيل الجهاد ، مهما كلفه ذلك من عناء .

وكان السيد عمر فى هجرته من القاهرة واختياره البقاء خارج بلاده أنبل قصداً من الذين كانوا طغاة الأمس ؛ فإن مراداً وإبراهيم ومن معهما من الأمراء إنما هربوا من ميدان الحرب لكى

يستعدوا ويعيدوا الكرة رجاء أن يعودوا إلى الحكم ؛ ولم يكن في استطاعتهم أن يعودوا ما دام الفرنسيون في البلاد ؛ فهم إذا تحملوا البعد عن مصر كانوا مضطرين إلى ذلك اضطراراً ، إذ كانت مصر مغلقة في وجوههم ؛ ولو استطاعوا أن يعودوا إلى الحكم بالاتفاق مع الفرنسيين لما ترددوا في ذلك لحظة . فلم تكن بأحدهم رغبة في الجهاد لنجاة البلاد من حكم الأجنبي ، أو للمحافظة على حياتها وحريتها ، بل كان كل ما يرمون إليه أن يسترجعوا السيادة ، ويعودوا إلى سيرة طغيانهم وعسفهم ؛ ولو وجدوا من الفرنسيين ميلا إلى الاتفاق على أن يعودوا إلى الحكم تحت علمهم وحمايتهم لما ترددوا في ذلك ، ولما أبوا العودة إلى الحكم تحت اللواء الأجنبي . وأما السيد عمر فما كان يمنعه مانع من العودة ، بل كانت عودته من أحب الأمور إلى الفرنسيين الذين كانوا يودون أن تستقر نفوس أهل مصر على الحكم الجديد ، وأن يؤلفوا قلوب زعماء الأهلين ويجعلوها دعامة لدولة مصرية ناشئة يعلقون عيها آمالا كبارا في المستقبل ، وكان السيد عمر بغير شك من أعظم الزعماء مكانة في أعين الشعب المصري ولا سيما بعد موقفه في الدفاع الأخير . فكانت عودته إلى القاهرة واستقراره على الحكم الجديد من أكبر ما يحبه الفرنسيون ويطمعون فيه . فإذا كان

السيد عمر قد آثر النفى وملاقاة الأهوال فإنه اختار ذلك اختيارا ورغب فيه وهو غير مكره .

وكانت رغبته منصرفة إلى الجهاد إلى غايتــه و إلى المقاومة إلى منتهاها . فإنه صحب جيش إبراهيم بك فى تقهقره إلى الشرق و إلى الشمال نحو المنصورة . حتى إذا ما شهد انهزامه إلى برية سيناء فالشام لم ينخلع عن الجهاد بل ذهب معه ، ولعله بقى فى العريش شهوراً حتى أقبلت جنود الفرنسيين على تلك القلعة مع قائدها العظيم بونابرت فى ١٧ فبراير سنة ٩٩ ، وكان ما كان لابد منه ، فانهزم الترك هنالك ولجأوا إلى يافا ، وكان السيد عمر ممن لجأ إلى يافا و بقى فيها إلى أن فتحها بونابرت . وعلى ذلك نراه قد صمد للأعداء يقاومهم خطوة خطوة و يقابلهم فى موطن موطن .

ولما فتح بونابرت يافا وارتــكب خطأه السياسى العظيم ، بأن قتل من أهلها نحو ستة آلاف كانوا قد سلموا له ، ونزلوا على حكمه ، كان حريصاً كل الحرص على إكرام من وجدهم هناك من المصريين ؛ فإنه قربهم وآنسهم وأكرمهم وأرسلهم إلى مصر ، وكان من بين هؤلاء السيد عمر مكرم وجماعة من كبار الموظفين والأعيان ؛ ولو كان السيد عمر ضعيف الإيمــان فى جهاده لــكان ما شهده من مناظر الحرب ، وما قاساه من شدائدها ، كافياً لأن

يخلع قلبه ويحمله على النكوص والرجوع ؛ ولا سيما وأنه وجد أمام الناس عذراً ، وأى عذر يتهيأ له أعظم من أنه عاد إلى مصر مكرهاً ، وأنه إذا استسلم فإنما استسلم بعد جهاد ونضال ؟ ولكن نفس ذلك الرجل العظيم لم تكن من النفوس التى تلتمس الأعذار رياء الناس ، أو تريد النجاة من تحمل الواجب ، فتسلك إلى ذلك ما يتهيأ لها من السبل . ولهذا نجد أنه بقى على مسلكه وعقيدته . واستمر يترقب الفرصة لاستئناف النضال ، حتى إذا ما سنحت له انتهزها مبادراً .

وكانت عودته إلى مصر عقب عيد الفطر ، فكانت مدة غيابه عن القاهرة هذه المرة نحو ثمانية أشهر ، حدثت فى أثنائها حوادث جلى وانقلابات كثيرة ، نمر بها مراً سريعاً لننظم آخر الأخبار بأولها .

انهارت دولة إبراهيم ومراد فى موقعة انبابة فى يوليه ، واستقر حكم الفرنسيين فى مصر بعد أسابيع قليلة ؛ ولكن ذلك الحكم صدم صدمة كانت فى آخر الأمر سبباً فى خيبة الحملة الفرنسية خيبة تامة ، وذلك أن الإنجليز حطموا أسطول الفرنسيين فى وقعة أبى قير فى أول أغسطس ، وهى الوقعة التى علا فيها اسم أمير البحر العظيم نلسون . ثم ثارت القاهرة ثورتها الأولى

فى ٢١ أكتوبر أى بعد ثلاثة أشهر من مقدم الجيوش المغيرة ؛ وكان أكبر زعمائها السيد بدر الدين المقدسى المعروف بابن النقيب شقيق السيد على بن موسى الواعظ الذى مر ذكره . وليس من العسير أن نتصور اتصالا بين السيد عمر و بين السيد بدر الدين ، إذ كانت الرسائل لا تنقطع بين الزعماء المهاجرين و بين من فى القاهرة . ولكن تلك الثورة أخفقت ، وهرب السيد بدر إلى الشام ، فلحق بالسيد عمر ، واستمرا بها إلى أن سار بونابرت إلى الشام ، وفتح يافا كما تقدم . فلما عاد السيد عمر بعد هذه الشهور الثمانية كان يخيل إليه أنه قد غاب عن بلاده أعواما طويلة ، إذ أنه شهد ما طرأ على شعب مصر من التغيير ، وما دخل فى نفسه من الانقلاب . فما مر عليه من تلك الحادثات أيقظ فيه العاطفة العامة التى طال انكباتها .

ولسنا ببعيدين عن الحق إذا قلنا إن السيد عمر عندما عاد إلى بلاده زادت فى قلبه جذوة الجهاد اشتعالا ، لأن التغير الذى طرأ على قومه خلق فى نفسه معنى جديداً جعل يسعى له فيما بعد ، وهو أن يقود ذلك الشعب إلى حكم نفسه بنفسه .

وكانت مصر تغلى غليانا طول مدة الحملة الفرنسية ، وكان غليانها أحيانا يبدو واضحا إذا لاءمت الظروف وضوحه ، فإذا لم تواته

الظروف بقى فى الصدور يثور بها و يضطرب ، ولهذا علة نفسية ترجع إلى تاريخ مصر وماضى شعبها . فلقد كانت مصر منذ الفتح العربى فى حكم دول أكثرها مستقل بالأمر ، قريب إلى عادات الناس ومبادئهم وعقائدهم ، فحكمتها الدولة الطولونية والإخشيدية ؛ ثم قامت بها دولة الفواطم ودولة بنى أيوب ، ثم ورثت دولتها سلطنة الفرسان الأبطال الذين بقوا يملكون زمام العظمة الحربية فى العالم مدة ثلاثة قرون ، إلى أن أسلموا الحكم للدولة العثمانية الناشئة الجديدة ، ثم خلص الحكم بعد حين إلى الأمراء المصريين على ما قدمناه فى أول هذا الكتاب . فلما جاءت حملة بونابرت الفرنسية كانت أول غزوة أجنبية غربية نجحت فى امتلاك مصر ، ولم تحمل معها للناس إلا الذكريات القديمة من غزوة لويس التاسع ، ولكن على فارق واضح ؛ وذلك أن لويس التاسع هزم وأسر وتشتت جيشه ، وانتصرت عليه جيوش الأيوبيين ؛ فى حين أن جيش بونابرت دخل البلاد فأزاً وجاس خلالها واخترق قلبها حتى استولى على عاصمتها وأطرافها ، وأقام فيها حكما أجنبيا عن عاداتها وعواطفها . فإذا كان أهل مصر قد أحسوا كراهة الغزاة فقد كرهوهم كراهة مضاعفة ، لأن غزوتهم كانت أول ما ذاقوه من انخذال دولتهم أمام فرنجة الغرب ، وهم الذين كانت أحلامهم

لا تزال متعلقة بالمجد القديم والقوة الغابرة ؛ فلما اتضح لهم مبلغ انخداعهم وغرورهم لم يزدهم ذلك إلا حنقاً وغضباً . فما كان أهل مصر ليخضعوا لحكم الفرنسيين إلا على مضض عند استشعار العجز وظهور قوة عدوهم ، فاذا لاحت لهم فرصة للوثوب وثبوا كأنهم على موعد مدبر . فحدثت وثبات عدة لا يكاد يحصيها الحصر فى كل أنحاد البلاد ، فلا نكاد نرى الأمر يستقر للفرنسيين فى جانب حتى نرى انتقاضاً عليهم فى ناحية أخرى . وفى هذا ما يدل على أن الناس كانوا على ثورة مذكاة فى قرارة نفوسهم ، كلما وجدت منفذاً اندلعت ألسنتها وظهرت جمرتها .

عاد السيد عمر والشعب المصرى فى هذه الثورة النفسية الكامنة ، ورأى منذ عاد أن الجيش الفرنسى قد بسط سلطانه على جميع الأرض حواضرها وأريافها ، واتخذ له فيها أعوانا وخولا يعينونه على حكمها بالقسر والقهر . فلم تكن له حيلة فى أن يخضع للضرورة القاهرة خضوع الكاره الذى يسكن لأنه لا يستطيع الانفكاك ، ولكنه كان مع ذلك لا يزال ينتظر العون أن يأتى إليه من خارج الحدود ، وكان الشعب كله يعتقد أن ذلك العون آت لا شك فيه ؛ فكان خياله يصور له بين حين وحين قدوم جماعة من البدو أتت لتطرد عنه عدوه ، أو هبوط الانجليز بسواحله

مع جيش من الترك يسعون لخلاصه ، وكان السيد عمر وهو يرى ضعف أمته يتحرق و يتألم وهو ساكن لا تصدر عنه كلمة تنم عن سخطه ولا عن يأسه ، فبقى ساكنا معتزلا لا يظهر للأجانب كراهة ولا عداوة ، إذ لم ير فائدة فى إظهار عداوته فى ألفاظ لا تؤذى عدوا ولا تدفع غائلة . على أنه مع ذلك لم يرض بأن يشترك فى أمر الحكم أى اشتراك ، إذ أن اشتراكه فى ذلك الحكم فيه معنى إقراره والرضا عنه . فلم يدخل الديوان ، ولم يسترجع مكانه فى نقابة الأشراف ، ولا فى نظارة الأوقاف التى كان يدير أمورها من قبل ، بل ترك كل ذلك لمن كانوا حريصين عليه ضنينين به . ولم ينل من الفرنسيين بعد عودته إلى القاهرة إلا أنهم ردوا إليه البعض القليل من أملاكه ليعيش منها ، بل لقد تكبر وتعفف عن أن يطالب برد سائر تلك الأملاك ، إذ كان يرى فى المطالبة بها نزولا عن تجهمه للغاصب الأجنبى . وسنذكر طرفا من ذلك فى الفصل التالى .

فى ثورة مارس سنة ١٨٠٠

فتحت يافا فى غرة شوال من عام ١٢١٣ للهجرة ، وذلك التاريخ يوافق ٨ مارس سنة ١٧٩٩ ، وصار السيد عمر فى يد بونابرت كأنما هو أسير . ولكن بونابرت آثر أن يستميل قلبه وقلوب من معه من المصريين فبعث بهم مكرمين إلى دمياط ، ولعلهم بلغوا ذلك الثغر فى أواخر الشهر ، فإن أنباء نزولهم بدمياط بلغت القاهرة فى الرابع والعشرين من شوال أى فى أول ابريل .

على أن السيد عمر لم يحضر إلى القاهرة إلا بعد نيف وثلاثة أشهر ، فإنه بلغها فى الثالث من صفر سنة ١٢١٤ وهو اليوم السابع من يوليه سنة ١٧٩٩ . ولسنا نجد تفسيرا لبقائه فى دمياط هذه المدة إلا أن يكون الفرنسيون قد عاقوه بها عن السير إلى القاهرة لسبب من الأسباب . فلعلهم قد احتاطوا فى ذلك احتياطا صحيا ، فحجزوه هو ومن معه خوفا من نقل عدوى الوباء إلى مصر ، فقد كانو يحاولون جهد استطاعتهم أن يتخذوا فى هذا السبيل كل حيطة ، إذ كانوا يخشون حدوث الوباء أعظم الخشية ، ويذهبون فى التماس الوسائل إلى اتقائه كل مذهب . فإنهم كانوا فى مصر

منـذ تحطم أسطولهم فى أبى قير كمن أحيط به فى معتقل ، فلا هم يستطيعون الرجوع إلى بلادهم ، ولا هم يستطيعون أن يتصلوا بها فتأتيهم منها الأمداد تقوى ما يضعف من صفوفهـم ، وتقيم ما يتصدع من قوتهم . على أن الاحتياط الصحى وحده لا يفسر طول المدة التى أقامها السيد عمر فى دمياط . وأكبر الظن أن الفرنسيين لم يريدوا أن يعود إلى القاهرة فى ذلك الحين ، وهو من عرفوا عداوته وشدة أنفته من غزوة الأجنبى ، وعلى ذلك لم يسمح له بالرجوع إلى القاهرة ما دام القائد الفرنسى العظيم غائباً عنها فى جيشه يحارب بالشام . فلما أن بلغ الأمر مستقره ، وعاد بونابرت فى جيشـه إلى القاهرة فى عاشر المحرم (١٤ يونيه) أمكن أن يباح للسيد عمر المسير من دمياط .

ولقد ذهب إلى بونابرت عقب رجوعه إلى القاهرة ، فقابله بالبشر والإجلال ، وكان يصحبه فى تلك المقابلة الشيخ المهدى . وتدلنا هذه المصاحبة على أن السـيد عمر لم يذهب إلى القائد من تلقاء نفسه ، بل دُعى إلى المقابلة عن قصد ، فإن الشيخ المهدى كان ممن خضع للفرنسيين منذ حلولهم فى القاهرة ، وممن أظهروا لحكمهم أعظم الحماسة والإخلاص . ولم يكن بقلبه مودة للسيد عمر ، بل كان يحس غيرة شديدة منه وكراهة دفينة نحوه ، وهذه

الكراهة سوف تبدو فيما بعد فى مواطن نحن ذاكروها إذا جاء محلها إن شاء الله . فلم يكن إسراعه إلى زيارة السيد عمر ومصاحبته للقاء بونابرت إلا تدبيراً مقصوداً وأمراً مبيتاً ، فما كان أحب إلى بونابرت من أن يستميل ذلك الزعيم الأبى ، وما كان شىء أحرصه على أن يأمن جانبه ، ويبذل فى سبيل مرضاته كل تضحية . على أن السيد عمر ذهب إلى القائد العظيم فلم يخضع ولم يتذلل ، بل أبى أن يطلب شيئاً ، إلا أنه قبل أن ترد إليه بعض أمواله وهو متكبر أن يطالب بسائرها . وانصرف بعد المقابلة إلى داره ، ولم يشترك بعد ذلك فى حفل عام ولا فى مهرجان ولا فى ديوان .

ومرت بعد ذلك أشهر الصيف والخريف مليئة بالحوادث الجليلة التى كان لها أعظم الأثر فى مصير الفرنسيين فى مصر . لم يمض على حلول السيد عمر بالقاهرة أسبوع واحد حتى كانت حملة تركية تنزل بشواطئ أبى قير بقرب الإسكندرية لغزو مصر وإخراج الفرنسيين منها ؛ وبالغ بونابرت فى إخفاء حركاته ، وحاول أن يمنع أنباء الحملة أن تتسرب إلى أهل مصر ، لأنه رأى بنظره الثاقب أن نفوسهم مازالت تتربص الدوائر بحكمه الأجنبى ، ثم أسرع إلى الشمال فلاقى أعداءه وهزمهم هزيمة منكرة فى

اليوم الثانى من أغسطس بعد موقعة دامت نحو تسعة أيام . وعند ذلك رأى أن يذيع الأمر على أهل مصر ، فأرسل خطاباً إليهم يحمل نبأ نصره الجديد قبل أن يسمعوا بخبر المعركة . ثم عاد فى موكب عظيم إلى القاهرة يحاول أن يخفى تحت مظاهره الصاخبة ما كان فى قلبه من اليأس والفشل ؛ إذ كان عند ذلك قد استقر عزمه على ترك مصر والعودة إلى فرنسا ، منذ رأى أن مقامه فى تلك البلاد صار أشبه شىء بمقام الأسير فى معتقله ، وأن الآمال التى كان يعقدها على فتح مصر كانت وليدة خيال قد انقشع وتبدد . ولم يطل مقامه فى القاهرة بعد ذلك بل سافر فى الثامن عشر من أغسطس إلى الإسكندرية (السادس عشر من ربيع الأول) ، ومن ثم سافر خفية مع بعض ضباطه قاصداً إلى فرنسا فى الثانى والعشرين من أغسطس .

وكان خروج بونابرت من مصر عائداً إلى فرنسا ذا أثر عميق فى تاريخ حملة الفرنسيين ، إذ دل المصريين على أن تلك الحملة لم تكن تقصد البقاء ، فتزعزعت ثقة من كان وثق بها ، وتردد من كان مؤمناً بحكمها ، وعصفت بالفرنسيين عامة عاصفة الغضب والغيظ من ذلك القائد الذى رأوا عمله غدرا وتغريراً وجبناً ، حتى جعلوا يسمونه فيما بينهم (بوناتراب) تحريفاً لاسمه

(بونابرت) ، وهم يقصـدون من ذلك اللفظ معناه الحرفى وهو « الفخ المحـكم » ، يلمحون بذلك إلى أنه قد أوقعهم فى الفخ ثم ولى عنهم هارباً .

أمر بونابرت أن يكون قائد الحملة بعده (كليبر) الشجاع ، ولم يكن استطلع رأيه فى ذلك ، ولم يره قبل سفره ، فكان غيظ كليبر وغضبه عظيمين عند ما عرف الحقيقة ، ولم ير دونه سبيلا للنجاة غير أن يحاول الخروج بجيشـه من مصر إذا استطاع أن يفعل ذلك بغير أن يمس شرف فرنسـا ، وقد ظهر للمصريين ذلك الميل واضحاً ، فما كان مثل هذا الميل ليخفى أثره على الناس طويلا .

وتغيرت عواطف النـاس على الفرنسيين فوق ذلك ، لأن القائد الفرنسى الجديد لم يكن على مثل ما كان عليه بونابرت من البشاشة ولين الجانب والـكياسة ؛ بل كان شجاعاً جافياً ، زاده جفاء تلك الحال التى رأى نفسه وجيشه فيها .

وكانت أول خطوة فى سبيل إنفاذ الخطة الجديدة التى رسمها كليبر أن بدأ يفاوض مراد بك ، وكان لا يزال فى أقصى الوجه القبلى ، حتى اتفق معه على أن يكون حاكما على الصعيد تحت الحـكم الفرنسى ، وكأنما بذلك الأمير قد رأى فى ذلك أملا

جديداً للعودة إلى ما كان عليه من قبل من الطغيان . وتم ذلك الاتفاق فى أوائل شهر جمادى الأولى من عام ١٢١٤ ، وهو يوافق أوائل شهر أكتوبر من عام ١٧٩٩ .

وجاءت الخطوة الثانية فى السبيل نفسه عقب ذلك ؛ فبدأ كليبر يفاوض الانجليز والترك فى الشروط التى يستطيع بها أن يخرج من مصر ، وكان الجيش التركى قد بدأ يزحف نحو مصر مرة أخرى من ناحية الشام . فساعد هذا على الإسراع بالمفاوضة حتى تمت على شروط تبلغ الاثنين والعشرين ، أعلنت للناس فى يناير سنة ١٨٠٠ (شهر شعبان سنة ١٢١٤) .

فلما دخل شتاء سنة ١٨٠٠ كانت القاهرة تستعد لرحيل الفرنسيين عنها . ودخل إلى قلوب أهلها الاعتقاد أن أمر هؤلاء الأغراب قد ذهب ، وأن حكمهم قد انتهى ، وأن دولتهم قد زالت ، وأنه لم يبق إلا أن يرحلوا عن بلادهم على ما اشترطوا من الشروط . وكان من تلك الشروط أن تكون نفقة رحيلهم على مصر ، فاجتهد المصريون فى جمع المال المطلوب لهذا الغرض ، وجاد كل بما طلب منه راضياً منشرح القلب ، توقعاً لما يكون من جلاء العدو عن الوطن . وقام على جمع ذلك المال كبير تجار العاصمة وأحد كبار أعيانها السيد أحمد المحروقى ، وهو أحد من

حاولوا الهروب إلى الشام عند أول دخول الفرنسيين ، ولكنه لم يستطع فعاد إلى مصر ، بعد مخاطرات جسيمة وخسائر فادحة أصابته فى أمواله التى كانت معه .

وأقبل جيش الترك فى هذه الأثناء نحو القاهرة للاستيلاء عليها ، وسهل لهم كليبر الأمر متوقعاً إنفاذ المعاهدة بعد الهدنة التى اتفق عليها لمدة ثلاثة أشهر ، واجتمع جيش الترك فى بلبيس بقيادة الوزير يوسف باشا وكان الجيش المصرى يقبل إلى جانبه بقيادة إبراهيم بك ، وحضر مراد بك من الصعيد بإذن القائد الفرنسى ، حتى صار عند أبواب القاهرة ينتظر الدخول ، وأخذ الفرنسيون فى إخلاء قلعة الجبل وسائر القلاع التى كانوا يحتلونها ، ثم اقترب الجيش التركى المصرى حتى صار عند المطرية خارج القاهرة .

غير أنه لما حان وقت الرحيل اتضح أن الاتفاق على المعاهدة كان على أساس غير متين ، فإن الحكومة الانجليزية أبت أن تقر ما وافق عليه الأميرال السير سدنى سميث الذى كانت المفاوضة معه ، وكانت حجتها فى ذلك أنها لم تفوض إليه الاتفاق على تلك المعاهدة ، وعلم الفرنسيون أنهم قد أصبحوا فى مأزق من أضيق المآزق وأخطرها : فالانكليز فى البحر على

غير اتفاق معهم ، وجيش الترك والمصريين واقف فى أرباض القاهرة ، وأهل القاهرة والأقاليم أنفسهم متحفزون متطلعون إلى خروجهم عن بلادهم ، فكان لا بد لهم من تجربة جديدة فى ميدان القتال إذا أرادوا أن يسلم لهم شرفهم على الأقل من تسليم مطلق على حكم عدوهم ؛ فاستعد كليبر على أسرع ما استطاع ، وباغت الجيش التركى المصرى عند المطرية ، واستطاع أن ينتصر عليه فى موقعة طاحنة فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ (٢٣ شوال سنة ١٢١٤) .

تسربت أخبار هذه الحوادث إلى القاهرة ، وعاد جماعة من الترك المنهزمين إلى العاصمة ، فدخلوها مع نصوح باشا الذى كان معيناً للولاية ، فشاعت بين الناس أنباء تخالف ما كانوا يتوقعونه ، وإذا بهم يرون الآمال التى كانوا يتطلعون إلى تحقيقها توشك أن تتبدد ، فيعود إليهم الأجنبى ليحكم بلادهم بعد أن عللوا النفس بقرب انصرافه عنهم ، فهاجوا واضطربوا واشتعلت فى صدورهم نيران الكراهية والكبرياء ، وانفجرت حفيظتهم انفجارا لم يسبق لهم مثله ، واتجهت أنظارهم إلى زعماء يثقون بهم ويتيمنون برأيهم ، فكان السيد عمر مكرم كبير هؤلاء الزعماء وأعظمهم فى أعين الناس ، فنادوه وهتفوا باسمه ، ولم يكن ذلك

الزعيم لينتظر دعوة ولا هتافاً ، بل سارع إلى الخروج من عزلته إذ رأى الواجب يناديه إلى العمل ، وإلى مكافحة العدو وإلى مواجهة الأخطار مرة أخرى ، واجتمع فى قلوب الشعب عامة عوامل تدفعه وتذكى حماسته ، من غضب الكريم لكرامته وخوف الشريف على شرفه ، واشتعلت العاطفة الوطنية فى الصدور ، تثيرها ذكريات المجد التالد من ماضى القرون ، فلم يكن إلا أن صاح السيد عمر صيحته ، ورددها معه جماعة من الزعماء أمثال السيد أحمد المحروقى ، حتى هبت الثورة المصرية الكبرى التى دامت تضطرب فى القاهرة سبعة وثلاثين يوماً ، ودخلت فى أثنائها قلوب المصريين عامة فى بوتقة الانصهار ، ليتكون منها شعب جديد يتقارب فيه الأمير من العامى ، ويمتزج فيه الكبير بالصغير ، وتنبغ من غمرات ذلك أمة حديثة ، يحس فيها الفرد بأنه للمجموع ، ويحس فيها المجموع بأنه من الأفراد .

ولقد كانت حوادث الاضطراب الكبرى أبدا هى المعالم الظاهرة فى تاريخ الشعوب ، ولو شئنا ضرب الأمثال لذكرنا من تاريخ كل شعب حوادث اضطرابه وثوراته .

اجتمع على ميدان الجهاد أمراء مصر الأقدمون ، الذين جاءوا إلى القاهرة فى الأيام الأخيرة ، مثل حسين بك شنن وحسن

بك الجداوى وعثمان بك الأشقر و إبراهيم السنارى كتخدا مراد بك ، وتناسوا كبرياءهم القديمة ، فساروا على رأس مماليكهم إلى جانب العامة من أهل القاهرة ، وهم بين بناء وقصاب وخضرى ، وجعلوا قبلتهم جميعا تحرير مصر والجهاد فى سبيلها . وكان روح الثورة وقلبها النابض هو السيد عمر ، لا تفتر له حركة ولا يخفت له صوت ، فبينا نسمع صوته عند باب النصر يدعو الناس للخروج والجهاد ولقاء العدو ، إذا بنا نراه عند المتاريس التى أقامها الناس وتحصنوا بها فى جهة الأزبكية يساعد الأمير المصرى الشجاع حسن بك الجداوى الذى وقف هناك بمماليكه وقفة الأسد الباسل ، فكان السيد عمر يقف حينا فى موضع من المواضع ، يحرض الناس ويحمسهم أو يشاركهم فيما هم فيه من مشقة الحرب والجهاد ، فإذا به يسمع صريخاً ينادى أن الفرنسيين قد هاجموا طرفاً من أطراف المدينة وكادوا يتغلبون على المدافعين عنه ، فلا يكاد يسمع هذا النبأ حتى ينفر إلى مكان الخوف والخطر ، فيخوض الغمار مع الخائضين ، ويتعرض لما يتعرض له الناس من الأهوال والمخاوف . ولم يكن جهاده يضعف فى ليل ولا فى نهار ، ولا جنانه يكل فى هيعة بيات أو فجأة صباح ، هذا ولم يكن أحد من الناس يلتفت إلى مساعدة من ورائه ، بل كانوا جميعاً يستبسلون لأنفسهم ، ويستميتون من

أجل جهادهم . لم يعدم أحد بسلاح ، فأنشأوا معملاً للبارود ببيت قائد أغا فى الخرنفش ، وجاءوا بالصناع والعمال ، واحتالوا فى صنع آلات الحرب من مدافع وذخائر ، واتخذوا من بيت القاضى وما جاوره من المساكن فى حى المشهد الحسينى مصنعاً حربيا لا تفتر فيه الحركة ، ولا يخمد فيه ضجيج العمل . وكان الفرنسيون الباقون فى القاهرة قد تحصنوا فى القلاع المحيطة بالمدينة ، أو فى بعض البيوت الكبيرة ، ينتظرون عودة جيشهم لإخماد الثورة وتخليصهم مما هم فيه . واجتهد أهل القاهرة فى هذه الثورة اجتهاداً لا نظير له ، على ما كانوا فيه من رقة الحال ونضوب الموارد ، وتوالى المحن عليهم ، فكان السيد عمر لا يشير إشارة إلا سارعوا إلى تلبيتها . فأشار عليهم بأن يبذلوا أنفسهم فى سبيل بلادهم ، فلم يتخلف فى المنازل إلا كل ضعيف لا يقوى على النضال ، أو كل جبان نالته من قومه معرة الجبن وقطيعة الأقران ، وازدراء الملأ . ثم أمرهم ببذل ما يملكون فى سبيل الجهاد ، فلم يتخلف أحد عن التلبية ، فسمح كل بما يملك وقام على جمع الأموال والإنفاق جماعة من التجار ، وعلى رأسهم كبيرهم السيد أحمد المحروقى . فكان أهل القاهرة يدبرون أمرهم فيما بينهم ، لا يعتمدون إلا على سواعدهم ، ولا ينظرون إلا إلى مافى أيديهم

من العدة والنفقة . وكان حى بولاق من أطراف المدينة ، فكان معرضاً لهجمات الجيش الفرنسى إذا أقبل إلى القاهرة ، ولم تكن تحيط به أسوار ولا تحصنه حصون ، ومع ذلك فقد قام أهله بالجهاد ، لا يركنون إلى حصن إلا قلوبهم ، ولا يستترون وراء شىء إلا استبسالهم . وكان على رأسهم من أهل الحى رجل كبير القلب قوى الجنان ، اسمه الحاج مصطفى البشتيلى ، يساعده جماعة من التجار والصناع ، فنالوا نصراً على كتيبة من الجيش الفرنسى كانت معسكرة فى حيهم ، وغنموا ما كان عندها من سلاح وزاد ، وأقاموا لأنفسهم متاريس ومرابط ، وهم على اتصال مستمر بإخوانهم فى أحياء القاهرة الأخرى .

مضى على الثورة أسبوع كان فى أثنائه الجيش الفرنسى قد انتهى من القضاء على جيش الصدر الأعظم فى هليو بولس ، وتبعه فى إقليم الشرقية حتى أمن عودته ، إذ رآه ينسحب نحو الشام فى غير نظام ولا قوة على العودة ، ولما تم له ذلك عاد إلى القاهرة ليقضى على ثورتها بالحديد والنار . وكان كليبر رئيس ذلك الجيش رجلاً له شجاعة الأسد وقسوة قلب النمر ، وأحاط الفرنسيون بالقاهرة ، وبدأ النضال المر بين المحاصرين والمدافعين مدة شهر شهدت فيه المدينة كيف يستبسل أبناؤها

فى الدفاع عنها ، وكيف يجودون بدمائهم فى سبيل الذود عن حوضها ، وكيف تسخو نفوسهم بكل ما يملكون فى سبيل حفظ كرامتها والدفاع عن علمها .

كان الناس يبيتون فى ليالى ذلك الفزع فى الأزقة والطرق حتى الأمراء والأعيان ، توقعا للبيات والمفاجأة من العدو ، واشتد الحصار فمنع القوت عن المدينة وغلت الأسعار ، فهلكت البهائم من الجوع ، واشتد الأمر على الناس حتى أصبح أكلهم الأرز يطبخونه بالعسل . ولكنهم لم يضعفوا عن المقاومة ، بل كانوا يقبلون على الهجوم فى الجهات التى يستطيعون فيها الاتصال بالعدو ، مثل الأطراف المحيطة بالأزبكية ، حيث كان الأمير الشجاع حسن بك الجداوى يصول كالأسد مع مماليكه ومن تبعه من أهل مصر ، وهو جرىء على العدو يصيبه بضربات موجعة ، ويسارع إليه أنى كان ، فمايكاد يسمع وهو فى عسكره عند رصيف الخشاب (موقعه اليوم قرب ميدان الأوبرا مما يلى جامع الكيخيا) بأن العدو يهاجم طرفاً آخر من الأطراف ، حتى يسارع إليه فيبلى فى الدفاع مع المدافعين أحسن البلاء .

وكان السيد عمر فوق كل تلك الحركة مع جماعة من صحبه الأوفياء ، كالسيد أحمد المحروقى يبعثون فيها روحهم القوى ،

ويوجهونها إلى الثبات والصبر بما فى قلوبهم من قوة وإيمان .

وشهد الفرنسيون من هذه الثورة غير ما كانوا يتوقعون ، وخشوا تطاول المدة فراسلوا بعض الزعماء يطلبون إليهم الصلح ، فذهب إليهم جماعة من المشايخ إشفاقاً على البلد وأهلها ، ففاوضوا الفرنسيين فى شروط الصلح ، وكان فى هؤلاء الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ الفيومى والشيخ السرسى ، وعادوا إلى الناس يحملون إليهم مطالبة الفرنسيين بإيقاف الحرب ، على أن ترجع الحال إلى ما كانت عليه قبل الثورة بغير جزاء ولا عقاب ، فمن شاء أن يخرج من الأمراء والأجناد سمح له ، ومن شاء البقاء بقى فى غير حرج . فما كاد الناس يسمعون هذه الشروط حتى ثار ثائرهم ، ونادوا باستمرار القتال إذ كانوا لا يقصدون إلا الخلاص من العدو ، فأما إذا كان منتهى المفاوضة إلى عودته للمدينة والبقاء بين ظهرانيهم فلا قبول لها ولا حرص عليها ، ولن يحكم بينهم وبينه إلا النضال المر إلى نهايته . وقد بلغ من حنقهم على تلك الأنباء أن اعتدوا على الذين حملوها إليهم : فضربوا الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى « ورموا عمائمهم إلى الأرض وأسمعوهم قبيح الكلام » .

واستمر القتال بعد ذلك إلى اليوم الثانى والعشرين من

ذى القعـدة (وهو يوم ١٩ أبريل) . ثم ضيق الفرنسيون الحصار على المدينة ، وهاجمها الجنرال فريان (Friant) مهاجمة شـديدة من جميع الأنحاء ، وساعدت حالة الجو على اشتداد الهجوم ووقوع الاضطراب فى المدينة ، فوق ما كان يطحن أهلها من الجوع والشدة . وذلك أن السماء أمطرت مطراً شديداً ، صحبه برق ورعد . فسالت الطرق بالمياه ، وسدت بالأوحال ، وكان ذلك عائقاً لحركات الجند والأهلين ، فى حين أنه ساعد المهاجمين من خارج المدينـة ، إذ كانوا يهاجمون من مساحات مفتوحة ، لا تؤثر فيها المياه كما تؤثر فى الطرق المحصورة . واستعمل الفرنسيون أقصى ما يستعمل فى الحرب من القسوة ، فألقوا النيران على المساكن فى جميع أطراف المدينـة ، من باب الحديد ، وبركة الرطل والحسينية ، فى أقصى الشمال الشرقى ، إلى بولاق ، فى الشمال الغربى . فكانوا يهجمون بالمدافع والبنادق من الخارج ، فى حين كانت الحصون الباقية لهم فى داخل المدينـة تقذف بقذائفها على الثائرين من حصونها فى جامع الظاهر ، وقلعة قنطرة الليمون .

ولم يكن من البعيد أن يثبت المصريون مع كل هذا للمقاومة لو أتى إليهم مدد من الخارج . ولـكنهم كانوا يأملون كل يوم أن

يطلع جيش الترك من الشرق ، أو تلوح لهم جنود مراد بك من الجنوب ، ولكن أملهم فى كل ذلك كان خائباً ، إذ أن العثمانيين كانوا فى شغل من هزيمتهم التى أوقعها بهم الجنرال كليبر ، وكان مراد بك لايعبأ بشىء غير أن يضمن لنفسه الحكم ، وأن يقبض على الأمر ، فلم يتحرك لمساعدة الثائرين بالقاهرة ، بل انتظر ريثما ينجلى الأمر ، حتى يضمن الانضمام إلى المنتصر . ولهذا نجح كليبر فى أن يكتفى شره بتأكيد الاتفاق السابق معه ، وجعله حاكما على الوجه القبلى تحت الحماية الفرنسية . ولم يقتصر أمر مراد بك على أنه تخلى عن مساعدة الثائرين فى ذلك المأزق الحرج ، بل جعل يرسل إليهم ينصح لهم بالتسليم والمصالحة .

وأمسى أهل تلك الأحياء المنكوبة ليلة العاصفة ، وهم فى أشد حالات البؤس والكرب ، يحاولون الخروج من منازلهم رغم الرعد والبرق والمطر المنهمر فتعوقهم المياه المتدفقة ، وتنزلق أقدامهم فى الأوحال الخوانة ، فإذا بهم يسمعون قصف المدافع من بين أيديهم ، ويرى بعضهم أخاه صريعاً إلى جانبه قد أصابته رصاصة لا يرى قاذفها البعيد ؛ فيقف لحظة ينظر فى إسعاف الصريع ، فإذا به يسمع هيعة من خلفه ؛ فينظر ، فإذا باللهب يندلع فى منزله الذى تركه منذ حين قصير ، فيذكر الصبية الذين

خلفهم فيه ، فيثب قلبه فى صدره ، ويهم منتفضاً كالملسوع ، ويعدو نحو بيته وهو لا يعى من الفزع . وفيما هو يعدو تطرق أذنيه صرخات داوية يملؤها الهلع والذعر ، من نساء كدن يخرجن عن الوعى من الهول . ويرى ماء المطر يهبط على النيران فلا يزيدها إلا توهجاً واندلاعاً ، ويسمع من دون فحيح اللهب ، وقعقعة النار صوتاً كأنما هو من صبية يستغيثون . فيندفع فى وسط اللهيب يطمع أن يخرج بفلذات كبده من بين أنياب السعير ؛ فما يكاد يخطو فى المنزل خطوات حتى تحيط به النيران ، ويطيش سيره ويتخبط حائراً ؛ حتى يوقن أنه لن يستطيع إنجاء ولده ، فتثور الطبيعة فى نفسه ويخشى على نفسه ، فيحاول العودة من حيث أتى . ولكن النار تحيط به وتأسره ، فيضطرب ويختنق ويحاول الصراخ فلا يخرج صوته ، ثم يثب فى مكانه ويقع لا يعى ؛ وينطبق اللهب مرة أخرى كأن ليس فى جوفه شيء .

ودخل الجند الفرنسى فى هذا المنظر المريع ، فأتموا ما بدأته النيران والقذائف ، وصارت بولاق أول ما فتح من أنحاء القاهرة الثائرة .

ولم تبق سائر أنحاء القاهرة على المقاومة بعد ذلك طويلاً ، فإنها سلمت جهة بعد جهة ، واستولى الفرنسيون على متراس منها

بعد متراس ، وهم يعيدون فى كل جهة سيرة الحرق والتخريب التى جروا عليها فى بولاق .

على أن الثوار كانوا مع ذلك أشد على عدوهم بلاء من أن ينزلهم على حكمه ، فإن الفرنسيين لم يأبوا أن يفاوضوهم على صلح ليسلموا ويكفوا عن مقاومتهم ، فأمهلوا بقية من بالقاهرة من العثمانيين ثلاثة أيام ليتجهزوا للخروج ، ثم حملوهم إلى الصالحية ليسيروا منها إلى خارج مصر ، وأبيح لمن أراد الخروج معهم من أهل مصر أن يخرج ، وكان إنفاذ تلك المعاهدة فى أول ذى الحجة سنة ١٢١٥ (٢٥ أبريل سنة ١٨٠٠) ، بعد أن أغلقت الثورة أبواب القاهرة مدة سبعة وثلاثين يوماً . وكان السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروقى فيمن خرج من أهل مصر مع الجيش العثمانى .

كان السيد عمر قد عاد إلى مصر مضطرا ، ثم حاول أن يقاوم الأجنبى عند ما لاحت له الفرصة ، فلم تواته الظروف وعجز ، ولكنه كان لا يزال يأمل أن يبقى على جهاده حتى تحين فرصة أخرى ، فلم يرض أن يقيم فى أرض مصر ما دامت أقدام الأجنبى تطؤها ، فآثر العودة إلى الهجرة والبعد عن وطنه ، وأن يتكبد المشقة والفقر ، ولوعة الفرقة من أحبائه وأشياعه ، على أن يقيم فى

بلاده لا يستطيع أن يتنفس فيها حرا .

وعاد الجيش الفرنسى إلى حكم مصر وهو محرج محنق ؛ فأما حرجه فلأنه رأى أن العبور إلى بلاده قد امتنع عليه ، وكان الجيش وقائده يرون أن خيرهم فى ترك هـذه البلاد والعودة إلى ديارهم ، بعد أن تبين لهم أنهم لن يستطيعوا البقاء ؛ وأما حنقه ، فلما لاقاه من محاربة المصريين له وثورتهم عليه ، إذ تبين له مرة أخرى أن أهل البلاد يكرهون حكم الأجنبى ، وأنه إن أراد الحكم فلن يكون ذلك إلا بالقوة وسلطان السيف . وكان من آثار ذلك الحنق أن أول شىء قرره القائد الفرنسى بعد عودته فرض غرامة على أهل القاهرة قدرها عشرة ملايين من الفرنكات ، وارتكب فى تحصيلها من صنوف العسف والقسوة ما تتضاءل إلى جانبه مظالم مراد وإبراهيم .

وأما السيد عمر فقد ناله من نقمة الفرنسيين قسط خاص به ، لأن حنقهم عليه كان فوق حنقهم على سائر المصريين ، فنهبوا بيته كما نهبوا بيوت الأمراء الذين آثروا الخروج من مصر مع جيش الأتراك .

غير أن الحوادث كانت تسير فى هذه الأيام سراعاً ، وكانت حوادث جليلة . فما مضى على رجوع الفرنسيين إلى القاهرة

أ كثر من شهر ونصف حتى قتل قائد الجيش الشجاع كليبر (فى ١٤ يونيه) ، وذهب بذهابه من جيش فرنسا روح المقاومة والهيبة والاتحاد . فلا عجب أن يسخط الفرنسيون لقتله أشد السخط ، وأن يوقعوا بقاتله سليمان الحلبى أشد العقوبة وأفظعها ، لأن فقده كان ضربة فى صميم قوة جيشهم وأمله فى المقاومة . ولم يكتف الفرنسيون بإنزال العقاب الوحشى على ذلك القاتل ، بل قتلوا معه أربعة بتهمة العلم بالجريمة ، أو بالشبهة فى أنهم كانوا راضين فى أنفسهم عنها . فأما القاتل سليمان الحلبى فقد أحرقت يمينه ، ثم خرقت أحشاؤه ومات بطيئاً على الخازوق ، وأبقى جسده ليأكله الطير قطعة قطعة . وأما الآخرون فقد حكم عليهم بالقتل ومصادرة المال ، على أن يمثل بأجسادهم بالحرق بعد القتل ، وتعرض رؤوسهم فوق (نبابيت) ليراها الناس ، وليشتفى ما فى صدور الفرنسيين من غل .

ولعل ذلك العقاب لم يكن كافياً لشفاء ذلك الغل ، فإن الفرنسيين فرضوا غرامة جديدة على الناس قدرها أربعة ملايين من الفرنكات ، تبعتها غرامة أخرى قدرها مليون من الفرنكات . وكان هذا العقاب أحب إلى نفوس الجيش وقواده من التعذيب ، إذ كانوا عند ذلك فى أشد حالات الاحتياج إلى المال ، فإن

الحوادث التى حدثت فى هذين الشهرين قد أخرجت من أيديهم أكثر بلاد القطر ، فأما الصعيد فقد صار كله فى يد (مراد بك) ، وأما الوجه البحرى فكان مضطرباً اضطراباً لا يجعله مورداً سائغاً لجامعى الأموال . وأحس أهل القاهرة بثقل هذه الأحمال الفادحة ، فأخذوا يهاجرون من المدينة خوفاً على أنفسهم وأهليهم من مظالم الفرنسيين ، إذ كان الكثيرون من التجار والعامة يموتون فى السجون ، أو تحت سياط التعذيب ، وهم يرغمون على أداء تلك الغرامات الثقيلة . فلما رأى الفرنسيون ذلك لجأوا فى تحصيل المال إلى أشد أنواع القسر والظلم ؛ فكانوا يختمون على مخازن التجار ، ثم ينهبون ما بها من البضائع ، و يبيعونها بأبخس الأثمان استيفاء لما تقرر عليهم ، بل كانوا إذا بقى لهم شىء على تاجر استوفوه من مخزن جاره ، ولو كان ممن سددوا ما فرض عليهم . ولكم أهين من قادة الشعب وزعمائه فى هذه الفترة ، ولكم أوذوا فى أموالهم وأنفسهم . و بقيت مصر تئن فى صمت أنيناً مكتوماً ، والآلام تحز قلبها مدة تسعة أشهر أخرى ، كان فيها قائد الجيش الفرنسى هو « مينو » ، الذى أسلم وتزوج من مصرية شريفة النسب من أهل رشيد ، وهى ابنة السيد على الرشيدى ، وسمى نفسه (عبد الله جاك مينو) . وكان ذلك القائد يرى فى سياسته

رأيا لا يوافقه عليه إلا قليل من ضباط الجيش الفرنسى وجنوده ، وذلك أنه كان ينتظر النجدة من فرنسا ، ويرجو أنه يستطيع البقاء فى مصر وإنفاذ الفكرة الأولى التى جاءت الحملة الفرنسية إلى هذه البلاد من أجلها ، ألا وهى تكوين مستعمرة فرنسية دائمة على ضفاف النيل . وكان فى هذا مخالفا لرأى أكثر القواد والجنود ، فكان الرأى فى الجيش مقسما ، والعزيمة موزعة ، وساعد ذلك على خذلان الفرنسيين واضطراب سياستهم .

وأخيراً بدأت مقدمات النهاية فى أوائل مارس سنة ١٨٠١ إذ نزل على مقربة من الإسكندرية خمسة آلاف انجليزى كانوا مقدمة الجيوش المتلاحقة التى تجمعت فى آسيا الصغرى تقصد قصداً واحداً وهو إخراج بقية الفرنسيين من مصر ، على حين تجمعت جيوش الترك فى الشام حتى بلغت ثلاثين ألفاً ، وبدأت تتحرك نحو القاهرة فى أواخر فبراير من ذلك العام .

ولا حاجة بنا إلى وصف تفاصيل هذه الحرب الأخيرة ، وحسبنا أن نقول إن مينو هزم فى شرق الإسكندرية ، واضطر إلى العودة إلى المدينة والتحصن فيها . وبدأ حصار الانجليز له منذ آخر شهر مارس ، وزحف جزء من الجيش المغير نحو القاهرة يسير فى بطء عظيم ليقطع الصلة بين الإسكندرية والعاصمة ،

فاستولى على الرحمانية وهى نقطة الاتصال الوسطى بينهما فى ٨ مايو سنة ١٨٠١ . وأما جيش الترك الشرقى فقد بلغ أرباض القاهرة فى أوائل مايو ، وخرجت إليه كتيبة فرنسية صغيرة من القاهرة فى ١٥ مايو سنة ١٨٠١ ، وحدث اصطدام خفيف عند (الخانكة) لم يدم طويلا ، إذ رأى الفرنسيون أنهم لن يستطيعوا الوقوف فى معركة تشبه معركة كليبر فى هليو بولس ، فاستقر رأيهم على المقاومة فى القاهرة نفسها . وجاء جيش الترك إلى الضفة الشرقية للنيل ، وتوزع على ما حول العاصمة من المواقع . وكانت المعارك الصغيرة تحدث بين الجانبين من حين إلى حين فينسحب الجيش الفرنسى فى كل مرة عاجزاً إلى داخل القاهرة .

وجاء جزء من الجيش الانجليزى المرابط حول الإسكندرية لتعزيز المهاجمين على القاهرة ، فظهر عند انبابه فى أواسط يونية . فرأى (بيبار) القائد الفرنسى أنه لن يستطيع المقاومة طويلاً وبدأ يفاوض فى التسليم ، وتمت المفاوضات أخيرا فى ٢٧ يونية سنة ١٨٠١ ، على أن يخرج الفرنسيون من القاهرة بسلاحهم ومتاعهم ، وأن يحملوا من رشيد إلى سواحل فرنسا بغير تعرض ؛ وفى ٩ يولية خرج الفرنسيون من القاهرة وعسكروا فى جزيرة الروضة ريثما يسيرون إلى رشيد حسب المعاهدة ؛ ثم بدأوا

سيرهم نحو الشمال فى منتصف ذلك الشهر .

وأما الإسكندرية فقد بقى فيها مينو يدافع دفاع المستميت لمدة شهرين آخرين حتى سلمت فى أواخر أغسطس ، وخرجت جنود فرنسا منها فى ١٢ سبتمبر من ذلك العام .

وبذلك عادت مصر إلى حكم تركيا بعد ثلاث سنوات وشهرين من نضال مستمر تخللته أجلّ الحوادث وأروعها .

كان السيد عمر من أول من عاد إلى ظاهر القاهرة مع الصدر الأعظم يوسف باشا ، عند ما تم الصلح مع القائد الفرنسى (بيبار) ، وعاد معه جماعة من أمثال السيد أحمد المحروقى ، الذين غادروا مصر عقب ثورة مارس الكبرى ، وخرجت إليهم وفود العلماء والأعيان بإذن من القائد الفرنسى ، فحيتهم وتقربت إليهم ، وكان من هؤلاء الشيخ السادات كبير أعيان القاهرة . وأصبح السيد عمر بعد رجوعه مع الجيش المنتصر رجل مصر وزعيمها ، اجتمت فيه الزعامة والجهاد والتضحية ، وقد علاه عند ذلك تاج الانتصار والانخراط فى سلك رجال الدولة الجديدة . ودخل القاهرة بعد بضعة أيام من مقامه مع الجيش التركى خارج المدينة ، فكان دخوله يوماً من الأيام المشهودة ، إذ خرج الناس للقائه والترحيب به ، وسار فيهم إلى داره مع صاحبه فى الهجرة ،

وشريكه فى الجهاد السيد المحروقى ، وكلاهما عليه خلعة ثمينة من فراء السمور ، رمزاً على ما لهما من مكانة عند الدولة الجديدة .
ومما كان يسترعى النظر أنه دخل القاهرة فى نفس اليوم الذى سار فيه آخر جنود الفرنسيين من أرباض المدينة ، تشيعهم قوة كبيرة من الأتراك والانجليز والمماليك ، منحدرين إلى رشيد ليسافروا منها إلى بلادهم على ما تم عليه الاتفاق .

فى البركان المضطرب

تقوضت فى أيام الحملة الفرنسية كل دعائم الحكم القديم فى مصر ، لأن إقامة الفرنسيين بين ظهرانى الشعب نيفاً وثلاث سنوات قد كشفت له أموراً كثيرة كانت خفية عنه ، فإنه رأى أن ظالميه و إن كانوا يستأسدون عليه ضعفاء عن دفع العاديات عنه ، فرأى السلطان يعجز عن محاربة بونابرت ، ولا يستطيع العودة بأعلامه إلى القاهرة إلا مع نصرائه الانجليز ؛ ورأى عند ذلك أول عظة من عظات السياسة الدولية ماثلة أمام عينيه ، تهدم ما اعتاده من الاعتزاز بسلطان العثمانيين وهيكل دولتهم الأجوف ؛ ثم رأى الأمراء وهم يهربون بعضهم إلى الشرق ، و بعضهم إلى الجنوب ، لا يثبتون فى موقعة ولا يحرصون على جهاد ، إذ كان همهم الأكبر أن يضمنوا السيادة على الشعب ، لكى يستمروا على ابتزاز أمواله والتعسف فى حكمه .

فكان بعضهم يصادق الفرنسيين كما فعل مراد عند ما رأى أن مصادقتهم وسيلة إلى مشاركتهم فى الغنيمة ، و بعضهم يصادق العثمانيين كما فعل إبراهيم منذ رأى نفسه مضطراً إلى

الالتجاء إليهم لكى يتوسل بهم إلى العودة إلى الحكم والسلطة ، ولم يجد منهم من فكر فى مصلحته ولا فى رخائه ، بل رأى نفسه مطية لمن غلب ، لا فرق بين أن يرزح تحت هذا أو ذاك منهم .

ورأى أنه كان مع كل هذا هو الموئل الأخير لتلك القوى المتنازعة ، وأنه يستطيع أن يصمد للحرب أياماً وشهوراً ، كما فعل فى ثورته الثانية على الجيش الفرنسى ؛ فكان من الطبيعى أن يتجرأ على النضال ، وأن يزيد حظه من الإقدام ، لا سيما وقد رأى أن الذين كانوا يطأونه وطأً ثقيلاً ، ليسوا على ما كان يتوهمه فيهم من السطوة وقوة البطش .

فلما عاد السيد عمر وأصحابه مع الجيش العثمانى أخيراً ، كان الشعب على غير ما كان عليه منذ ثلاث سنوات ، وكان السيد عمر وقادة المصريين الذين حوله ليسوا على عقيدتهم الأولى فى ترك الأمر لأصحابه من الأتراك والأمراء . فبدأ منذ ذلك الوقت عهد جديد كانت فيه صورة الشعب المصرى وزعمائه أظهر وأوضح ، وكان فيه الشعب أعلى صوتاً وأقوى نفساً .

وكانت السنوات التى تلت خروج الفرنسيين من مصر ، سنوات اضطراب وشدة ، كأشد ما مر على البلاد فى أيام الاحتلال الفرنسى ، وما قبل ذلك من عصر إبراهيم ومراد .

وحسبنا أن نذكر أن جنود الأتراك قد دخلوا إليها منتصرين ، وكانوا أخلاطاً من أجناس مختلفه وشعوب متباينة . وكانوا قد جمعوا من كل الأقطار ، بين شوام ، وترك ، وأرنؤود ، ومغاربة وسودان ؛ وأرسلوا إلى مصر بقصد إخراج الفرنسيين منها . فما كان يربطهم رباط ولا يشملهم نظام ، بل ما كان لهم إلا قصد واحد ، وهو أن يحصلوا على أثمان خدماتهم وغنائم حربهم على عادة محاربي العصور الوسطى . فلما انتهت الحرب لم يكن أمامهم إلا الشعب المصري ، ينالونه بما تسوله لهم نفوسهم من الأذى والغصب . ولسنا في حاجة إلى ذكر أمثلة من ذلك ، إذ يكفي أن نتصور ما يفعله مثل هذا الجند المضطرب المنهوم بشعب منصرف إلى عمله ، لايجد فراغاً من وقته لاتقاء العدوان ، ودفع الشر بمثله .

وكانت الحكومة الجديدة غير قادرة على تدارك الأمر ، ومداواة شرور الموقف ، فإن وسائل الحكم القديمة هي التي كانت في متناول عقول حكام الدولة ، لا يستطيعون أن يرتفعوا عنها أو ينفكوا منها . فكان أول هم لممثلي السلطان أن يحتالوا في القضاء على قوة الأمراء المصريين (المماليك) بأدنأ الوسائل ، وأنذل المكائد ، ومن ذلك أن القبطان العثماني حسين باشا . أولَمَ لكبارهم وليمة في أكبر سفنه ، ودبر في أثناء ذلك مكيدة للإيقاع بهم ، فقُتل

منهم سبعة ، وجرح آخرون ؛ وأسر عدد كبير . غير أن المكيدة لم تتم على ما اشتهى ، إذ دافع الأمراء عن أنفسهم دفاعاً باسلا ، ولجأوا إلى الإنجليز ، وكانوا لا يزالون فى سفنهم فى ميناء الإسكندرية . وكاد الأمر يؤدى إلى اصطدام بين الانجليز والقبطان ، لولا أن خضع القبطان لكل ما طلبه الإنجليز منه ، فسلم الأسرى إليهم ، واحتفل الإنجليز بدفن القتلى احتفالا باهراً ، والقبطان ينظر إلى ذلك وهو فى غصة الخيبة والهزيمة . وفى الوقت نفسه كان الصدر الأعظم يوسف باشا يدبر مكيدة أخرى لمن كان فى القاهرة من الأمراء . فدعاهم إلى الديوان ثم قبض عليهم ، وكان فيهم إبراهيم بك الكبير . غير أن فرقة من الإنجليز كانت لا تزال بالجيزة عند ذلك ، فتدخل قائدها فى الأمر ، واضطر الوزير العثمانى أن يفرج عنهم . فلم يفعل القبطان والوزير أكثر من أن برهنا للأمراء على سوء نيتهم ، ولم يتما ما قصدا إليه من الإيقاع . فكان هذا إعلاناً بأن السلام بين العثمانيين وأمراء المصريين (المماليك) أمر لا يرجى تحقيقه . ولم يكن من العجيب بعد ذلك أن يكون الأمراء على حذر دائم ، وعداوة متأصلة للدولة الجديدة .

غير أن أكبر الحوادث التى حدثت بمصر عقب عودة الحكم

العثمانى ، كانت حوادث المنافسة والنضال بين فرق الجيش المختلفة ، و بين أصحاب السلطه من رجال الحكم العثمانى أنفسهم .

سافر حسين باشا القبطان بعد قليل ، ثم سافر الوزير يوسف باشا ، وعين لحكم مصر وال جديد ، وهو محمد باشا خسرو . ولسنا فى سبيل وصفه ، ولا الحكم على طريقته فى الحكم ، فلنقتصر على وصف ما كان من مسلكه مع جنده ، وما أدى إليه ذلك المسلك من الاضطراب والفوضى .

تولى محمد باشا خسرو فى أواخر سبتمبر سنة ١٨٠١ ، وكانت توليته نتيجة سعى سيده حسين باشا القبودان . وكان ممن درجوا فى خدمة السراى السلطانية فى قسطنطينية ، وحذقوا طرقها فى الحكم . وكان لا يهتم إلا بمظاهر الحكم وأبهته ، غير مبال ما فيه من مشاكل . فإذا اعترضه أمر مشكل قابله بثورة الطفل الغرير المدلل ، الذى لم يعتد مقاومة رغبته ولا مخالفة هواه ، فإذا وجد ثورته لا تجدى فى التغلب والفوز ، خار واستخذى ، ونزل إلى الصغار والمسكنة والتذلل .

ولم تظهر له همة فى عمل من الأعمال ، إلا عندما نصب خيمة بقرب بيته فى أوائل أيام حكمه ، وكان بقرب منزله هدم من آثار التخريب فى أيام الغزوة الفرنسية ، فأراد أن يقيم مكانه بناء ،

واحتفل بذلك احتفالا عظيما ، كأنه يشرف على استعداد دولى خطير . فكان يوعز إلى أعوانه فيحضرون طوائف القاهرة على اختلاف أنواعها لتشاركه فى تعميره لداره ، وكان أعظم سروره أن تحضر إليه تلك الطوائف بالطبول والزمور ، تصحبها جماعات من محترفى الهزل واللهو ، وهو يشرف على هذه الضجة وقد ارتسمت على وجهه كل علامات الارتياح والسعادة . وقضى فى هذا العمل أشهراً ، وهو منقطع له لا يكاد ينصرف إلى أمر آخر من أمور الدولة ، مع أنه كان فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى تدبير وتفكير ، ودأب على العمل وسهر على مجرى الحوادث . وسنرى فى تصرفاته الأخرى التى سنذكرها فى هذه السيرة ما يدل على ما أشرنا إليه من ضعف عقله وسخف طبعه .

بقى فى أول حكمه فى الإسكندرية نيفاً وأربعة أشهر ، شهد فيها مؤامرة القبطان ووقعته بالأمراء ، كما شهد إذلال الإنجليز إياه ونفرة الأمراء منه ومن الحكم العثمانى . فلما قدم إلى القاهرة كان الوزير يوسف باشا على أهبة الخروج منها عائداً إلى بلاده ، بعد أن خاب هو أيضاً فى مؤامرته للإيقاع بالأمراء . ولعله أراد أن يداوى العلة التى أصابت الحكم التركى منذ أول عهده الجديد ، فلم يجد دونه وسيلة يلجأ إليها إلا أن أعلن بعد أيام من استقراره بالقاهرة أماناً عاما للأمراء ، ونادى بذلك المنادون فى أنحاء

المدينة . وكأنه أراد كذلك أن يستميل الناس بمظاهر العدل ليدلهم على أن العهد الجديد بشير بأمل جديد ، فأعلن الناس بأنه آخذ جنده بالشدة والحزم ، وبأنه لن يسمح لأحد منهم أن يؤذى الرعية ، وبأنه سيوقع أشد العقاب بمن يجنح منهم إلى أذى الناس أو العبث بالأمن .

غير أن الأمر فى كلا الحالين لم يتعد الألفاظ والمظاهر ، فإن الجنود لم يأبهوا بإنذاره ، بل ظلوا على ما كانوا عليه من الاعتداء فى صور مختلفة ، وكان أتباعه أنفسهم يخرجون الناس من بيوتهم ليخلوها لسكنى الجنود ، بحجة أن الفرنسيين كانوا يفعلون مثل ذلك ، وكثيراً ما أدى هذا إلى فظائع ومظالم أحقدت قلوب الناس وملأتها حفيظة عليهم . وأما الأمراء فلم يلب أحد منهم دعوته إلى السلم والمصافاة ؛ بل ذهبوا إلى أطراف القطر على عزم النضال ، بعد أن تبينوا ما تبيته لهم الدولة التركية من الغدر ، ولم يرضوا بعد ذلك بأقل من العودة إلى سيادتهم الأولى ، وإلى نظام الحكم القديم ، الذى كانوا فيه أصحاب الحل والعقد ، أيام كان الباشا العثمانى لعبة فى أيديهم يصرفونه كيف شاءوا . وهكذا وجد خسرو نفسه مضطراً إلى خوض حرب مع الأمراء ، وإلى معاناة أشد المشقة مع جنوده المختلفين .

وكان فى موقفه هذا بين الأمراء والجند حائراً فى أمره ، لا يستقر له رأى على خطة واضحة . فلقد كان لا بد له من الجيش وطاعته ونصرته إذا أراد أن يقف أمام الأمراء ، وكان لا بد له من مصافاة الأمراء إذا أراد أن يأخذ الجيش بالنظام والطاعة . ولم يتبين له سلوك أى هذين الطريقين ، ولم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يرى رأياً ويمضى قدماً فى إنفاذه . فانساق مع الحوادث نحو الكارثة التى لا محيد عنها .

أرسل خسرو جيشاً بلغت عدته نحو ستة آلاف لقتال الأمراء فى الصعيد ، وكان ذلك عقب حضوره إلى القاهرة بعد أن ظهر له أن إعلان الأمان لم يؤد إلى رجوع الأمراء إلى العاصمة واطمئنانهم إلى حكمه ، ووقع الاصطدام بين هذه الجنود و بين جيش الأمراء عند (أرمنت) بعد نيف وثلاثة أشهر . فانتصر الأمراء ، وعاد الجند العثمانى نحو القاهرة منهزماً ، وأراد خسرو فى أثناء ذلك أن يتخذ جيشاً جديداً من المماليك والسودان والمغاربة ، واكتفى من دلائل الكفاية والنظام فيهم بأن ألبسهم لباساً ضيقاً على مثال ملابس الفرنسيين ، وجعل لهم ضباطاً من بعض عوام الأجانب يعلمونهم أساليب يسمونها أساليب الحرب الحديثة .

غير أن الأمراء لم يضيعوا وقتاً . فإنهم بعد انتصارهم فى الجنوب زحفوا إلى أسيوط وما وراءها من بلاد الصعيد ، وكانوا حيث يأتون يجدون من الأهلين استعداداً لحكمهم ، واطمئناناً إلى انتصارهم . لأنهم اعتادوا أن يروهم سادة الأرض ، وزادهم ترحيباً بهم ما رأوه من إفساد أخلاط الجند العثمانى وشدة وطأتهم عليهم .

وأرسل خسرو جيشاً آخر لعله يستطيع أن يوقف تقدم الأمراء ، ولكن العثمانيين كانوا كلما اصطدموا بالأمراء نكصوا وهزموا ، وكان بين القواد الذين أرسلوا لإيقاف الأمراء وصدهم عن القاهرة محمد على سر شسمه (أى القائد) .

ولما رأى الباشا أن الجنود العثمانية لا تغنى عنه شيئا ، حاول أن يعرض الصلح على الأمراء ، فلم يرضوا بالعودة إلى القاهرة والعيش فى ظل الدولة العثمانية ، بعد ما رأوه من محاولتها الغدر بهم ، ولم يرضوا بأقل من أن يستقلوا بحكم الصعيد من أسيوط إلى آخر الحدود الجنوبيـة . وكان الباشا يعلق أكبر الأمل على نجاح الجيش الأخير الذى أرسله بقيادة محمد على ، وانتظر أنباءه وهو بادى القلق . غير أن أنباء الحرب التى كانت تفد عليه كانت تدله على الخيبة والضعف . واستمر الأمراء فى

زحفهم حتى بلغوا الفيوم ، وتحصن العثمانيون منهم فى المدن والحصون فى كل مكان . ثم بلغوا أرباض الجيزة ، حتى اضطر الباشا أن يرسل (كتخداه) إلى انبابة فيمن استطاع جمعه من الجند ليقفوا دون عاصمتـه ، وكان فيمن ذهب إلى هناك طاهر باشا القائد الأرنؤودى ، الذى ستكون له قصة فى تاريخ الحوادث المقبلة .

وأخذ الأمراء بعد ذلك يحاصرون المتحصنين فى المدن من العثمانيين ، فاستولوا على المنيا ، ثم هبطوا على البلاد مدينة بعد أخرى ، حتى صار كل الصعيد فى أيديهم ، وعاد من استطاع العودة من العثمانيين إلى القاهرة ، وكان محمد على فيمن عاد عند ذلك . ونقم الباشا عليه كما نقم على سواه من القواد ، الذين كان ذنبهم عنده أنهم لم يستطيعوا القضاء على أعدائه الأمراء . وكان لا بد لهذا الجند المنهزم أن يوفى حقه وتطلق له أعطياته ، ولـكن استمرار الصرف على ما يلزم للحرب من ذخيرة وعدة ، وما كان الباشا مولعاً به من إقامة البناء وتعمير ما خربته الحروب الماضية ، كل ذلك كان قد استنزف ما فى خزائن الحكومة من المـال ، وأثقل كاهل الناس بالضرائب والسلف .

ولـكن الجنود لم يلتمسوا للباشا عذراً فى موقفه الحرج ،

بل طالبوه بمرتباتهم وألحوا فى الطلب . وهزت الهزيمة نفس الباشا هزة عنيفة ، وزادت من ضعفها ، فأخذ الجنود فى حضرتهم وفى غيبتهم على الانهزام ، وأنحى باللائمة عليهم وعلى رؤسائهم ، فتغيرت نفوس الجنود والرؤساء عليه . وأدى هذا إلى ضجة فى القاهرة بينه وبينهم ، انتهت إلى ثورة شاملة . ولم يجد الباشا نصيراً يشد أزره فى تلك المحنة ، فلجأ إلى أهل القاهرة يبث فيهم المنادين ، يطلبون إليهم أن يتركوا تجارتهم وحرفهم ويلبسوا السلاح ويسارعوا إلى نصرته ، فلم يجبه أحد منهم ، وما كان ينبغى لهم أن يجيبوه ، فاستولى عليه الذعر فجأة وملك عليه لبه ، وهرب إلى الشمال وترك العاصمة كالبركان المضطرم ، وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٨٠٣ .

وكان أشد الجنود ثورة عليه طائفة الأرنؤود ، وهى أكبر طوائف الجيش عند ذلك بعد الانكشارية . وكان أكبر رؤوسها القائد طاهر باشا ومحمد على سرشسمه ، فلما هرب الباشا خلفه القائد الأرنؤودى الذى لم يرض مواطنوه المنتصرون إلا أن يكون حاكم البلاد منهم ، وأرسلوا للحكومة العثمانية نبأ ماحدث ، طالبين إليها إقرار ما أحدثوه من خلع خسرو وإقامة قائدهم مكانه .

وقد حدث فى هذه الأثناء أن سافر الألفى بك أحد زعماء

الأمراء المصريين إلى إنجلترة ، ذاهباً مع الجيش الانجليزى الذى عاد إلى بلاده ، بعد أن مكث فى الإسكندرية وداخل القطر عقب خروج الفرنسيين نيفاً وستة أشهر .

وأما خسرو باشا فإنه أسرع نحو المنصورة ، والجنود الأرنؤود تتعقبه ، وكان طاهر باشا فى أثناء ذلك يتردد على فوهة البركان المضطرم . ولم يكن سوى رجل أمى ، لا يكاد يعرف التركية ولا العربية ، وإنما كان يتكلم لهجة الأرنؤود الريفية ، ويميل إلى مظاهر الجهلاء فى التعبد ، ويتبع طرق الدراويش والعوام من الصوفية ، فلم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يتبين الطريق فى مثل هذه الظروف العصيبة . فلما زالت صدمة الانهزام عن جند الباشا المنهزم ، ثارت الحمية فى فرقة الانكشارية الأتراك ، ورأوا أن انتصار الأرنؤود على الباشا العثمانى ، وتولية كبيرهم محله ، سبة لهم ومنقصة من قدرهم ، فكرّوا على منافسيهم وطالبوا الباشا الجديد بمرتباتهم ، ولما عجز عن ذلك قتلوه ، وصارت القاهرة ميدان حرب بين الطائفتين ، ولا سيما ما حول الأزبكية ، إلى أن انتصر الانكشارية ، وأرسلوا إلى خسرو باشا يدعونه للعودة إلى القاهرة ، فلم يقض طاهر باشا فى حكم مصر أكثر من ستة وعشرين يوماً . واضطر الأرنؤود أن يتحصنوا فى القلعة مع

القائد الذى صار كبيرهم عند ذلك وهو محمد على باشا .

كانت هذه الحوادث فرصة سانحة للأمراء ، فإنهم أقبلوا من كل جانب نحو القاهرة ، وكان الشهر الذى مضى بين ثورة الجند بخسرو و بين مقتل طاهر باشا كافياً لأن يحشدوا جيوشهم حولها . ورأى محمد على أنه هو وجنوده الأرنؤود قد صاروا أعداء الدولة ، لحار بتهم لجنودها الانكشارية ، وثورتهم على خسرو ممثل السلطان ، ورأى سبيله الوحيد أن يتفق مع الطائفة الأخرى التى تشاركه فى سخط السلطان والعثمانيين ، وهى طائفة الأمراء . فأرسل إليهم يطلب الاتفاق معهم ، على أن يكون حليفهم ، وينضم إليهم برجاله ويمكنهم من طرد انكشارية الدولة العثمانية . ولم يمض بعد ذلك إلا أيام قلائل ، حتى كان الأمراء يتوافدون على القاهرة بمماليكهم ، وأرسل كبيرهم إبراهيم إلى كبير الانكشارية يأمره بالخروج من مصر ، فلم يجد ذلك القائد واسمه (أحمد باشا) إلا أن يخرج بجيشه ، وهم فى أشد حالات الضيق والمشقة ، لا يكادون يجدون ما يحملهم ، ولا ما يكفيهم من المؤونة .

واستقر الأمر بعض الاستقرار عند ذلك ، على أن عاد الأمراء إلى سابق عهدهم من حكم البلاد ، يشاركهم فيه ذلك القائد الأرنؤودى فى قلة من أتباعه . واختاروا الأمير إبراهيم بك نائباً

عن الباشا ، ريثما ترسل الدولة العثمانية حاكما جديداً من قبلها ، ليسير على سنة الحكم القديم ، الذى كان فيه ممثل السلطان صورة لا حقيقة لها إلى جوار حكم الأمراء المطلق . ولم يبطئ الأمراء بعد ذلك فى العمل على استرجاع سلطتهم فى البلاد ، فسار أحد كبارهم وهو عثمان بك البرديسى إلى شمال الدلتا ، فبدأ بدمياط وكان خسرو باشا متحصناً فيها ، وما هو إلا قليل حتى انتصر وأسر ذلك الباشا ، وأرسله إلى القاهرة ليسجن بها .

أقرت الدولة العثمانية الأمر الواقع وأرسلت من قبلها (باشا) اسمه على الطرابلسى . وكانت عادة الأمراء القديمة إذا جاء وال جديد ، أن يرسلوا إليه جماعة من أهل الدهاء منهم ليسبروا غوره و يعرفوا نواياه . ولم يكن على باشا من أهل الدهاء والعمق ، فنمت أقواله ورسائله عن أنه آت من قبل الدولة بعزيمة صادقة على الانتقام ، وأنه يحمل فى صدره من النية للأمراء مثل ما كان يحمل لهم خسرو . و بقى فى الإسكندرية أشهراً ولم يواصل سيره إلى العاصمة ، على عادة الحكام العثمانيين ، فرأى الأمراء المصريون فى ذلك آية أخرى على ما فى قلبه نحوهم من نية الشر والغدر . ورأى على باشا الطرابلسى وهو فى الإسكندرية أن البرديسى قد سار إلى رشيد بعد فتح دمياط ، وأنه فتحها وأسر

حاكمها السيد على باشا وهو أخوه الشقيق ، وخشى أن يسير بعد ذلك إلى الإسكندرية ، فجعل يعمل على الاستعداد للحرب ، ويحصن المدينة ويحفر حولها الخنادق ، بل إنه أمر بإعادة فتح سد البحر ، وأغرق الأرض التى فى جوارها ، فكان عمله هذا دليلا جديداً على أنه لا يضمر للأمراء إلا الحرب ، ولا يتوقع منهم إلا الحرب . غير أن البرديسى لم يرض أن يواصل سيره إلى الإسكندرية خشية الاصطدام به ، ولعله كان قد عزم عند ذلك على تدبير خطة فى الخفاء للقضاء على ذلك الباشا الجديد ، بغير أن يتعرض لحرب علنية ، قد تورطه هو وحزبه فى متاعب جديدة مع الدولة العثمانية . فعاد إلى القاهرة فى سبتمبر ليجتمع بشريكه إبراهيم وحليفهما محمد على .

وما كان الأمراء ليصبروا طويلا على مثل هذه الحال . فلما اجتمع البرديسى بإبراهيم ومحمد على ، وقلبوا الموقف على وجوهه ، وفكروا فى عواقبه ، رأوا أن يتخذوا خطوة حاسمة تجاه الباشا المعاند ؛ فأرسلوا إليه يدعونه للحضور إلى العاصمة مقر الحكم ، وكان الخطاب المرسل إليه موجهاً على لسان بعض المشايخ الذين أراد الحكام أن يتخذوهم ستاراً لأعمالهم . وكان البرديسى وشريكاه يستعدون فى الوقت عينه استعداداً

حربيا عظيما ، كأنما يتوقعون حدوث أحداث جليلة .

وأراد الباشا من جهته أن يلجأ إلى المداهنة والمكر ، فاستصدر فرماناً من السلطان جاء فيه أن الدولة قد قبلت شفاعته ، وعفت عفواً تاما عن الأمراء والجند . وقرىء ذلك الفرمان على مسمع من الأمراء والمشايخ ، فأظهروا جميعاً السرور وبادروا بإرسال الرد إليه ، طالبين منه أن يسرع بالحضور إلى مقر حكمه .

وهكذا كان الجانبان كلاهما يضمر السوء لصاحبه ، ويلجأ معه إلى الخديعة والرياء ، حتى يتمكن من القضاء عليه إذا لاحت له فرصة .

ومضت فى هذه المحاولات ثلاثة أشهر ، ثم اعتزم الباشا السير إلى القاهرة وهو متردد متحفز ، يحيط به جماعة كبيرة من الجنود على غير عادة الحكام فى مثل هذا السير . وبلغ فى سيره منوف فى شهر ديسمبر من عام ١٨٠٣ .

وأرسل حكام القاهرة الثلاثة جماعة من الأمراء ليقابلوا الباشا على عادة البلاد كلما جاء حاكم جديد ، وبقوا هم فى القاهرة فى انتظار وصوله ، ولكن مظاهر القاهرة كانت عند ذلك مظاهر الاستعداد للحرب ، لا مظاهر الأفراح المعتادة عند استقبال الباشا الجديد ، فقد أوقفت الجنود على أبواب المدينة ، وعند

مداخل الدروب ، ورتب الحراس على أبواب الأمراء والحكام ، وكان لا شك مع هذه المظاهر فى أن الأفق ملبد بغيوم منذرة بحوادث خطيرة .

وسار الباشا فى طريقه حتى بلغ شلقان ، وهناك قابله الأمراء والجند المرسلون للترحيب به . ولكن ذلك اللقاء كان أشبه بلقاء جندين عدوين ، إذ لم يستطع أحد الجانبين أن يخفى ما فى دخيلة نفسه ، ثم انكشف المستور فجأة ، فإذا بالأمراء المصريين يسرعون بمماليكهم إلى الالتفاف بالطائفة البحرية من جنود الباشا فأسروهم ، ثم أحاطوا بسائر جنده ، فإذا الباشا يرى نفسه وحيداً لا قبل له بمقاومة ولا منازلة . واضطر أن يسلم نفسه إليهم ، فساروا به حتى بلغوا منية السيرج ، وهناك أرسلوه مع جماعة من الحراس إلى الشرق ، ولم يسمع له بعد ذلك خبر ، فانه قتل فى الطريق ، قيل إنه قتل فى قرية القرين ، بعد مقاومة قتل فيها نحو عشرين من أصحابه بينهم ابن اخته . ووارت رمال الصحراء سر وفاته فيما توارى من الأسرار .

وأما الجنود الذين كانوا معه ، فقد أحاطت بهم طائفة كبيرة من جنود الأمراء ومن كتائب الأعراب ، وسارت بهم نحو الشرق . وقيل إنهم كانوا نحو ألفين وخمسمائة لم يعد منهم أحد

إلى مصر ، بل شيعتهم الصحراء ولم تكشف عن مآلهم كما أخفت سر سيدهم الباشا المسكين .

ووقف أهل القاهرة فى يوم صحو من أيام يناير سنة ١٨٠٤ ، ينتظرون إقبال الباشا الجديد ، الذى طالما سمعوا الأحاديث عنه منذ أشهر الصيف المنصرم ، فرأوا موكباً مقبلا فيه جنود الأرنؤود وفيه مماليك الأمراء ، ثم الأمراء تتقدمهم موسيقى شبيهة بموسيقى الفرنسيين وعلى رؤوس جنودهم خوذ من النحاس الأصفر ، ثم رأوا البرديسى ووراءه موسيقى الباشا ومتاعه ، ولكنهم لم يروا الباشا الجديد الذى كانوا ينتظرونه ، ثم ترددت بينهم همسات ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وانفرط عقدهم وأسرعوا وجلين إلى منازلهم ، فقد تبين لهم الأمر بعد انقضائه ، وعلموا أنهم كانوا يشهدون ملهاة تنطوى تحتها مأساة .

وما كادت ألسنة المجالس تنصرف عن ذكر حادثة على باشا ، ويخفت مثولها فى الأذهان ، حتى أتت الأنباء بعودة الألفى بك الكبير إلى رشيد ، يوم الأربعاء ٣ ذى القعدة سنة ١٨ (١٤ فبراير سنة ٤) بعد أن غاب عن البلاد نيفاً وسنة قضاها فى بلاد الإنجليز . فاهتزت القاهرة مرة أخرى هزة شديدة ، ولاح على ظاهر المدينة الفرح والبشر لعودة الأمير الكبير ، فتوافد الأعيان

إليها ليتفقوا على الاحتفال بمقـدمه ، ودب السرور فى قلوب أصدقائه الـكثيرين ، واشترك أهل القاهرة على عادتهم فى الاجتماع حول الأنوار ، والطرب إلى مجالى الزينة ومجامع السمار ، ولـكن رجال الدولة اعتزلوا فى خلوة من وراء تلك المظاهر ، يفكرون فيما هم صانعون لهذا الوافد الخطير .

وكان البرديسى يحمل لزميله الألفى غيرة ، وينفس عليه ما كان يراه له من المـكانة فى قلوب العامة والخاصة ، فـكان دائماً يأبى الاشتراك معه حتى فى أحرج الأوقات وأشـدها خطراً . فلم يرض بالاتفاق معه عند ما كان خسرو يحشد الجنود للقضاء على الأمراء ، ولو كان هذان الزعيمان اشتركا أو تساندا عند ذلك لـكان لهما معه شأن آخر غير ما كان من أمرهما . ثم حدثت الأحداث بعد ذلك وكان الألفى يتقدم دائماً طالباً الوفاق والاتحاد ، فلا يرضى البرديسى بذلك ، ولعله كان يحس أن اتفاقه مع هذا الزميل الممتاز ، يؤدى إلى اضمحلال شأنه وسلب الزعامة منه . وكان إبراهيم الـكبير رجلا لين الجانب بعيـد الغور عظيم الـكياسة ، فداهن البرديسى وماق له ، ولم يثر فيه الأثرة بمحاولة التصدر معه ، أو الإغارة على زعامته ، ولهذا كان البرديسى لا يجد بأساً من الاتفاق معه فى الحـكم . فلما رجع

الألفى من غيبته الطويلة ، كان لا بد للبرديسى من النظر فى موقفه منه ، أيسمح له بالاشتراك فى الحكم ودخول القاهرة واقتسام السلطان فيها ؟ ولو فعل ذلك لكان عمله فى نظره بمثابة نزول لزميله القوى عن حظ الأسد فى الحكم .

فلم يجد بدا من الاحتيال فى أمره مع أشد الحذر والتحفظ . وعلى هذا تظاهر بأعظم البشر ، وكانت الزينة التى أقامها فى منزله زينة الصديق الوفى الذى يهزه الولاء إلى المبالغة فى الاحتفاء بمقدم صديقه الحميم . ولكنه بادر فى الوقت عينه بإعداد خطة الإيقاع به ، وكانت خطة محكمة لا ينفذ منها شك ولا يتسرب منها سر .

وكان إبراهيم يحس ما عول عليه شريكه من تبييت الغدر بالألفى ، ولكنه لم يجرؤ على مخالفته فى ذلك الوقت ، إذ كان يعلم ما وراء هذه المخالفة من النكبات التى تصيب الحكم القائم فى صميمه ، لأنه كان يرى فى الشريك الثالث الألبانى خطراً داهما ، لم يخف عن عينه الناقدة وتجربته الطويلة و بعد نظره فى الأمور ؛ فقد كان محمد على قوى النفس ثاقب الرأى ، يملك نفسه فلا يكاد أحد يجد عليه زعزعة فى موقف من مواقف الشدة ، ولا لجلجة فى موطن من مواطن الخطر ، وأى الناس مثل إبراهيم

فى مقدرته على الحكم على مقادير الرجال ؟ فما كان يستطيع عند ذلك أن يخالف البرديسى فى خطته ، ويتعرض لثورته ، فى حين كان شريكهما الألبانى واقفاً حيالهما بفرقته الألبانية ، التى خرجت من معركة الأشهر الماضية منتصرة على سائر فرق الجيش العثمانى .

ودبر البرديسى خطته على أن تسير قوة لتقابل الألفى فى أثناء سيره إلى القاهرة ، وتلك القوة مكونة من بعض المماليك ومن بعض الجنود الألبانيين ، وتعمد أن يخفى حركاته وحركات محمد على عن الناس جميعاً حتى عن إبراهيم بك نفسه ، فلم يعلمه بحقيقة ما كان يجريه فى الخفاء . وفيما كان إبراهيم بك فى القاهرة يشرف على ترتيب ما يلزم لخروج موكب المحمل على العادة السنوية ، خرج البرديسى من القاهرة سرا ليشترك فى إنفاذ المؤامرة ، وخرج محمد على ليلا حتى لا يشعر أحد بحركة غير الحركة التى جرت عليها العادة عند مقابلة قادم كبير .

وتلاقى الألفى بمقدمة الموكب الذى أتى لاستقباله عند منوف ، وهو لا يعلم بما دبر له ، ولكنه كان يعرف أساليب الأمراء المصريين ، ويعرف طريقة زميله ومنافسه البرديسى ؛ فكان يقظاً متنبهاً ، ولهذا أدرك الخطة المبيتة له من أول بوادرها ؛

وما كاد يفطن لها حتى بادر بالهرب مع قليل من أتباعه ، فلم يشرع المتآمرون فى إنفاذ خطتهم ، حتى كان الأمير المقصود قد فاتهم وهرب إلى الشرق ، فبلغ فرع النيل الشرقى ، وعبر إلى قرية (قرنفيل) ، ثم لجأ إلى جماعة من الأعراب ، فاختفى عندهم وهو يشعر بالطلب فى أثره .

وكان البرديسى على الطريق ينتظر الأنباء ، ويترقب أعوانه عائدين بمنافسه مأسورا ، وما كان أشد خيبته وأعظم ثورته عند ما حملت إليه أنباء هروبه . فأسرع والغضب يستحثه ، فأرسل أعوانه إلى كل مكان للبحث ، فأخذوا أفواه الطرق ، وساروا مع جميع الرياح يتشممون أخباره ، وكان من بين الباحثين عنه محمد على فى جماعة من جنوده . ويظهر أنه لم يكن كثير الحرص على القبض على ذلك الزعيم الهارب ، فقد قيل إن الألفى كان فى خيمة فى نجع بعض الأعراب عند ما مرّ عليه محمد على وجنوده ، يسمع ضجتهم ويرى أشخاصهم . ولو كان محمد على حريصاً على أن يجده ، لما ترك ذلك النجع بغير أن يفحص فيه كل بيت ، إذ كان الألفى معروفا بصلته بالأعراب ، ومصاهرته لهم والمودة الشديدة بينه وبين رؤسائهم .

وكانت تلك الحوادث فى يومى الأحد والاثنين الموافقين

ليومى ١٨ ، ١٩ فبراير ، وبقى البحث جادا بقية الأسبوع ، ثم أخذ المطاردون فى العودة إلى القاهرة ، ولم يصيبوا إلا ما تخلف وراء غريمهم من التحف العجيبة ، والآلات الغريبة ، التى أتى بها معه من بلاد الانجليز ، وقد ذهبت نهبا بين الجنود والمماليك .

ولما عاد البرديسى من تلك الرحلة الخائبة ، كان فى أشد حالات الغيظ والضيق ، ولم تكن القاهرة عند عودته بالمستقر الآمن ولا الملجأ الحصين ، فقد عاد إليها ليجد دونه اضطرابا وثورة وضيقاً جديداً .

رأى محمد على مقدار أمانة البرديسى فى سياسته ، فعرف أنه رجل لا يؤتمن على مودة ، ولا يوثق بصداقته الظاهرة . وكان قد عاهده على الوفاء والولاء ، وجرح كل منهما يده وأذاق زميله من دمه ، علامة على عقد الأمانة والإخلاص ، ولكن حادث الألفى دله على أن تلك المظاهر لن تكون ذات أثر فى نفس البرديسى إذا شاء أن يستخلص ملك مصر لنفسه ؛ وهل كانت مودته لمحمد على لتدوم إلا ما دام محتاجاً إلى جنده لينصروه فى شدته ؟ وهل كان يقصد من التخلص من الألفى إلا أن يزيل من الميدان منافساً قويا ، يحس بأنه لن يقدر على الاستبداد بالحكم وهو على رأس الدولة إلى جانبه ؟

ورأى البرديسى أن محمد على لم يبذل قصارى جهده فى البحث عن الألفى ، ولا فى الاحتياط لسد مسالك الطرق عليه ، وكان من أثر هذا أن طارت إشاعات كثيرة تكاد تتهم محمد على بالتغاضى عن الألفى والتوانى عن اقتفاء أثره . وما كان من المتيسر بعد ذلك أن تستمر المحالفة بين هذين الرئيسين بعد عودتهما إلى القاهرة ؛ وما أحرانا أن نتصور لقاءهما عندذلك متجهمين ، تنعكس على وجهيهما آثار ما يدور فى نفسيهما من الشكوك والظنون ، وما يجيش فى صدريهما من التهم والموجدة ، ولن يمضى على ذلك الحين إلا أسبوعان أو ثلاثة حتى يبرح الخفاء وتنطق الأحداث بما حاولت الألسنة أن تخفى .

وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الانشقاق بين الزعيمين ، أن قام الجنود يطلبون ما تأخر من مرتباتهم ، وما كان محمد على صاحب الخزانة حتى يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأحالهم على شريكه فى الحكم ، وهو صاحب الجباية والأمين على أموال الدولة ، ولم يجد البرديسى منفذا من ذلك الموقف إلا أن يجيبهم إلى مطلبهم ، خشية تفاقم الأمور ، فعمد إلى الناس يستخرج منهم الأموال بوسائله الطاحنة التى اعتادها ، وجرى فى ذلك على سنته السابقة وسنة سيده مراد من قبله .

وضج أهل القاهرة من توالى تلك الفتن والمنازعات ، ورأوا حاكمهم لا تسكن له ثائرة ولا تطمئن له سياسة ، ثم هو فى أثناء ذلك يطؤهم ويثقل كواهلهم بالضرائب والمصادرات ، فتمنوا يوم سقوطه ، وهاجوا عليه وأطلقوا فيه ألسنتهم بالسب والتهم ، وكان الفقراء أشد الناس هياجا عليه إذ قاموا ثائرين وذهبوا إلى بيته ليسمعوه صوت غضبهم ، وألفوا لذلك أسجاعا كانوا ينادون بها فيقولون : « ايش تاخد من تفليسى يا برديسى » ؛ وصبغ النساء أيديهم بالنيلج ، وجعلن يندبن كما تفعل النائحات فى المآتم ، واضطروا مشايخ الأزهر أن يذهبوا معهم فى ذلك الموكب الصاخب ، كما اضطروا التجار أن يغلقوا متاجرهم احتجاجاً على تلك الحال المضطربة .

ورأى محمد على تلك فرصة لإسقاط منافسه الغادر ، فجعل جنده يشتركون فى الثورة عليه ، وظهروا بالانضمام إلى الشعب وجعلوا يحرضون الناس عليه .

ولم يجد البرديسى عند ذلك حزباً يستند عايه إلا قليلا من الأمراء والمماليك ، لأن غدره بالألفى قد أغضب جماعة كبيرة من كبار الأمراء الذين كانوا يجلون منافسه ، ويحبون عودته واشتراكه فى الحكم ، فلما شهدوا مؤامرته وخيبتها تغيرت عليه قلوبهم وتمنوا زوال دولته .

وهكذا اتسعت الثغرة تحت أقدام البرديسى ، وما كان لها إلا نهاية واحـدة وهى أن يحاول الاصطدام بشريكه الخطير محمد على تاركاً للحظ أن يحكم بينهما .

فما مضى على حادث الألفى إلا ثلاثة أسابيع حتى تم الانقلاب المنتظر ، وكان أسرع مما يخطر في الأوهام .

حاول البردبسى أن ينحنى للعاصفة ، ريثما يجمع أعوانه وأمراءه ، وكانوا مشتتين فى أنحاء البلاد ، بعضهم متربص للألفى و بعضهم يجوس خلال الريف ليجمع الأموال . ولـكن محمد على كان أسرع حركة وأقرب عدة ، إذ كان جنوده جميعاً فى القاهرة ينتظرون إشارته . فما راع البرديسى وزميـله الشيخ إبراهيم بك إلا وقوف الجنود الأرنؤود على أبوابهم وتسلط المدافع على دورهم وحصونهم .

ولمـا أحس البرديسى بهذه المفاجأة ورأى أول بوادر هجوم الجنود على داره بالناصرية ، لم يستطع الثبات ولم يفكر فى مقاومة ، بل قام من مجلسه الذى كان فيه ، متظاهرا بالقيام إلى تدبير الدفاع ، وخرج هاربا ورصاص المهاجمين يتبعه ، فلم يقف حتى بلغ مصر القديمة ، وترك من فى داره ليلقوا قضاءهم فى سبيله .

وأما إبراهيم فإنه حاول أن يدافع بعض الدفاع بمن كان

معه فى منزله بالداودية ، وكان فى أتباعه جماعة من أهل النجدة والثبات ، فحاربوا الليل كله حتى شعروا بالغلبة ودبت فيهم الهزيمة ، ثم بلغه هروب زميله قبل غروب اليوم السابق ، فعلم أن الأمر قد أفلت من يد حزبه ، وخرج من داره يحارب خصومه على الطرق وما بها من متاريس حتى بلغ جوار القلعة ، ثم عرج على الصحراء لينحدر إلى الوجه القبلى من وراء التلال ، وتوزع أصحابه الباقون وراءه بين القتل والأسر .

ولحق الفزع سائر الأمراء ومماليكهم الذين كانوا بالقلعة وبأنحاء القاهرة ؛ فخرج من يستطيع منهم الخروج ، ولقى سائرهم ما لقى المتخلفون من أعوان الأميرين ، وبقيت القاهرة بعد ذلك يومين وهى ميدان للفوضى ، وتخربت فى هذين اليومين بيوت الأمراء ونهبت ذخائرها وتحفها ، ولم تنج من النهب أخشابها وأدواتها .

وكان محمد على سريعاً فى رسم خطته كما كان سريعاً فى هجومه ؛ فإنه أسرع إلى القلعة وأنزل منها الباشا القديم خسرو ، وكان سجيناً فيها مدة ثمانية أشهر منذ أتى به البرديسى أسيراً من دمياط ، وجعله حاكما مؤقتاً ريثما يعين السلطان حاكما جديداً ؛ وكان ذلك فى آخر ذى القعدة من عام ١٢١٨ (١٢ مارس

سنة ١٨٠٤) . غير أن ذلك الباشا المسكين لم يبق فى الحكم إلا يوماً و بعض يوم ، ثم أرسل إلى بولاق ليعاد منها إلى تركيا ، خوفا مما قد يحدث بين الجنود من التذمر من توليته ، فإنهم لم ينسوا بعد عداوتهم القديمة له . و إنه لمن المضحك أن ذلك الباشا لم يفكر فى اليوم الواحد الذى أقيم فيه حاكما إلا فى أمر واحد خطر له عند ما وقع نظره على بيته الذى احتفل ببنائه فى أيام ولايته الأولى على النحو الذى وصفناه ؛ فإنه عند ما رأى ما أصابه من التهديم والتخريب ، بادر بطلب المهندسين والبنائين ليعيد قصته السابقة فى البناء ؛ ولم يجد من مسائل الحكم ولا من الظروف العصيبة التى حوله ما يحمله على الاتجاه لغير بناء منزله .

وكانت سقطة حكم الأمراء هذه المرة آخر عهدهم بحكم البلاد ، فإنهم لم يدخلوا القاهرة بعد ذلك حكاماً ، بل ما زالوا يحاولون و يعجزون حتى قضى عليهم محمد على القضاء الأخير بعد ذلك بسبع سنوات .

موقف السيد عمر مكرم
فى سنوات الاضطراب

كان السيد عمر فى هذه السنوات المضطربة معتكفاً عن تلك الحوادث الجليلة لا يكاد اسمه يذكر فى حادث منها ؛ فلا نسمع ذكره إلا فى مواقف قليلة ، ولم يكن منها موقف يتصل بإحدى تلك الحوادث السياسية الهائلة ؛ فإنه بعد عودته أرجعت إليه نقابة الأشراف التى نزعت عنه بعد خروجه من مصر عند مقدم الفرنسيين ، وكان لا بد له فى هذه الحالة من أن يتصل بالحكام بين حين وآخر ؛ فذهب إلى زيارة إبراهيم بك عند ما دعاه فى حفلة عقد زواج ابنته عديلة هانم ، وذهب إلى توديع الصدر الأعظم يوسف باشا عند خروجه راجعاً إلى تركيا ، وكان يحضر مع العلماء والأعيان فى اجتماع الديوان إذا عقده الباشا ليقرأ عليهم فرماناً أو ليشاورهم فى أمر ، وكان يحضر كذلك مع رؤساء الدولة وكبرائها فى المحافل الرسمية المعتادة التى ما كان ينبغى لمثله أن يغيب عنها كالاحتفال بالمولد النبوى أو سفر المحمل أو وفاء النيل . ولكننا لا نجد له ذكراً فى الحوادث

العامة إلا بعد أن مضى نحو ثلاثة أعوام على رجوع الحكم التركى ، وذلك عند ما تحرجت الأحوال ودعت إلى تدخله ؛ وإن لهذه السيرة لدلالة يجدر بنا أن نقف قليلا عندها لنطلع منها على بعض خلال ذلك الزعيم الفذ .

كان فى البلاد عند ذلك طائفتان من الأعيان ، طائفة من صائدى الوجاهة والثروة ، وطائفة من المتصدرين فى الهيئة الدينية . ولا نجد وسيلة لإيضاح موقف كل من الطائفتين إلا بالتمثيل ببعض أفرادها ، فلنجعل للطائفة الأولى مثلا فى سيرة المحروقى ، وللطائفة الثانية مثلا من سيرة الشرقاوى . وسنبين بعد ذلك موقف السيد عمر بإزاء كل من الطائفتين .

كان السيد أحمد المحروقى من كبار الأعيان ، وواسع الثروة ، شريف النسب ؛ وكان كبير تجار القاهرة ، وتدخل بصفته هذه فى الأمور العامة . وكانت وسيلته فى ذلك أن يتصل بالحكام ويساعدهم فى أوقات الحاجة مساعدة عظيمة ؛ فكان اتصاله أولا بدولة إبراهيم ومراد قبل الحملة الفرنسية ، فلما جاء الفرنسيون إلى مصر سقطت وجاهته بذهاب دولة الأمراء ، فهرب يريد الذهاب إلى الشام ، ولكنه لم يتمكن وأرجع إلى القاهرة بعد أن نهبت أمواله فى الطريق . فما لبث بعد ذلك أن اتصل

بالفرنسيين وأصبحت له عندهم حظوة شبيهة بما كان له فى دولة الأمراء ، وعين عضواً فى الديوان فى أيامهم وعاد إلى سابق مكانه بين التجار و بين رجال الدولة الجديدة ؛ فلما قامت الثورة المصرية الثانية فى أيام كليبر ، ظن أن دولة الفرنسيين قد زالت ، فاشترك مع الثائرين و بذل أقصى الهمة فى إمدادهم بالأموال والمؤونة ، إلى أن غلب الثائرون وعاد الفرنسيون إلى القاهرة ؛ فهرب إلى الشام خوفاً من انتقامهم فحلت نقمة الفرنسيين على دوره وأمواله ، و بقى فى الشام مع المهاجرين من المصريين ، ولكنه كان أكثرهم حركة وخدمة ، وكانت خدمته الكبرى مراسلة أصحابه فى مصر واستطلاع أخبار الفرنسيين بواسطتهم ، فأدى بذلك خدمة عظمى للجيش التركى الذى تحت قيادة الصدر الأعظم يوسف باشا . فلما عادت دولة الأتراك إلى مصر صار المحروقى من أكبر رجالها ، وزادت وجاهته عند حكام البلاد ، فاتصل بالصدر الأعظم مدة بقائه فى مصر ، ثم اتصل بخسرو باشا وأدى إليه خدمات جليلة ، وحصل من وراء ذلك على كثير من المنافع المالية ، وزاد نفوذه حتى صار بيته مثل ديوان من دواوين الدولة . فلما ثار الجنود على خسرو واضطروه للهروب ، هرب المحروقى معه ولكنه لم يستطع النجاة فقبض عليه وعاد إلى القاهرة مرة أخرى

مرغماً . ورأى نفسه بعيداً عن دولة الجنود الثائرين ، فقبع فى داره منتظراً أن يسفر الحال عن دولة جديدة ، حتى آلت الأمور إلى أيدى الثالوث المتحالف : إبراهيم والبرديسى ومحمد على ، ورأى علامات الاستقرار ، فاتصل برجال العهد الجديد وأدى إليهم من الخدمات ما كان يؤديه إلى الحكام السابقين ، وعاد إلى سابق عهده من السلطان والجاه إلى أن أسقط محمد على حكومة الثالوث ، فاتصل بالدولة الجديدة وصارت له فيها المكانة التى كانت له عند الدولة السابقة .

فالسيد المحروقى كان لايقصد إلا قصداً واحداً وهوأن يكون صاحب جاه ونفوذ ، وأن يتصل بحكام البلاد ويقف فى صفوفهم سواء أكانوا من الأمراء أم من الجنود ، وسواء أكانوا من المصريين أم من الفرنسيين . وقد أفلح فى أن صار عظيما فى الدول المتعاقبة ، ولكنه لم يكن له هم فى أن يرى فى البلاد نظاماً خاصا ولا دولة خاصة ، ولم يكن به حرص على أن يكون شعب مصر مستقلا أو منعما ، ما دام يحل فى مكان الصدر الذى تتطلع إليه نفسه .

وأما الشيخ الشرقاوى فهو الشيخ عبد الله بن حجازى ، وغلب عليه لقب الشرقاوى ، لأنه كان من قرية الطويلة قرب

القرين بالشرقية ، وقد ولد فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى أى حوالى سنة ١٧٤٠ للميلاد ، وعلى هـذا فقد شب وبلغ حد الرجولة فى أيام دولة الأمراء ، فشهد عهد إبراهيم ورضوان ، ونشأة على بك الـكبير ، ثم شهد زوال دولته ، وعاصر الحوادث إلى أن آلت إلى استبداد إبراهيم ومراد .

وصار فى أواخر القرن الثامن عشر شيخاً للأزهر ، فكان بحكم منصبه هذا رئيس الهيئة المثقفة فى البلاد ، له بين الحـكام مكانة و إجلال ، وتتطلع إليه العيون إذا أزمة أزمت ، وما أكثر الأزمات فى ذلك الوقت ؛ ولما اشتدت وطأة مراد و إبراهيم وضج الناس من سوء الحـكم وتنفست الثورة فى مختلف الأنحاء ، كانت أسماء الشرقاوى والسادات والأمير والبكرى وعمر مكرم هى الأسماء التى يكثر ترددها على ألسنة الناس ، فكان للشرقاوى فى هذه الحوادث قسط كبير ، وقف مع من وقفوا يدافعون عن حقوق الشعب فى وجه حكومة الطاغيتين ، ولـكنه كان رجل سلام ووداعة ، فـكان تدخله لا يعدو التوسل والنصح والرجاء . ثم جاءت الحملة الفرنسية ، فـكان الشرقاوى رجل سلام كذلك لا عهد له بالدفاع ولا قدرة له على المقاومة ، فلم يخرج مع الناس ، بل بقى فى داره حتى أسفرت موقعة امبابة عن

هزيمة الأمراء ، فذهب مع وفد العلماء والأعيان إلى الجيزة ليقابل بونابرت ويقدم له خضوع القاهرة بالنيابة عن أهلها . ثم كون بونابرت الديوان الوطنى ، فكان الشرقاوى أول اسم فيه ، واشترك منذ ذلك الوقت فى الحكم مع الفرنسيين ، ولبس الشارة المثلثة الألوان فى صدره علامة على الولاء لفرنسا ، مكتفياً بأن ينزع تلك الشارة إذا خرج إلى الناس . فلما ثارت القاهرة ثورتها الأولى كان كثير من الأعيان والمشايخ بين قوادها ، ولكن اسم الشرقاوى لم يكن بينها ، إلا أنه كان بين الذاهبين إلى بونابرت بعد هدوء الثائرين يرجوه فى الإفراج عمن قبض عليهم من رؤساء الثورة ، ولم يغضب من بونابرت عند ما رفض شفاعته ، ولم تثر له ثائرة عند ما رأى خمسة من أهل العلم يقتلون فى القلعة لاشتراكهم فى تلك الثورة ، ولم يتردد بعد ذلك فى أن يشترك فى الديوان الوطنى الذى أعاد بونابرت تأليفه عقب إخماد الثورة ، فكان اسمه أول اسم فيه ، كما كان فى الديوان السابق ، إلى أن قامت الثورة الثانية بالقاهرة ، واشترك فيها الناس على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم ، بعضهم اشترك بنفسه ، وبعضهم شارك بماله ورأيه ، وكان كثير من زعماء الثورة من المشايخ وطلبة الأزهر ، ولكن الشيخ الشرقاوى لم يكن فيمن

هبوا مع الشعب ، فلم يذكر اسمه إلا مع الرسل الذين اختيروا من كبار المشايخ ليفاوضوا فى الصلح و إبطال القتال . وكان رأيه ورأى هؤلاء المشايخ الكبار المبادرة إلى التسليم ، فأحنق رأيهم هذا جمهور الشعب الثائر ، فثار بهم وسبهم ، وضرب الشيخ الشرقاوى ورمى عمامته واتهمه بالارتداد والخيانة . ثم غلب القاهريون ومن معهم من الأمراء على أمرهم ، وانتهت ثورتهم بالخيبة مرة أخرى ، ودخل الفرنسيون بقيادة كليبر إلى القاهرة ، فانتقموا من أهل المدينة انتقاما عظيما بأخذ الأموال والحجر على الحرية ، حتى أنهم منعوا الناس من ركوب البغال والخيل وجمعوها ، ولكن الشرقاوى وطائفة من زعماء المشايخ كانوا ممن استثناهم كليبر من ذلك الأمر ، فقد سمح لهم بالسير على عادتهم وركوب ما شاءوا من الدواب على سابق عهدهم . ولما قتل كليبر وتولى مينو قيادة الجيش الفرنسى ، أعيد تكوين الديوان ، فكان اسم الشرقاوى للمرة الثالثة أول اسم فى ذلك الديوان ، ومازال شريكا فى حكم الفرنسيين مرعى الجانب هو والجماعة المتصدرة من زعماء العلماء ، كالمهدى والصاوى والسرسى والأمير وخليل البكرى ، حتى خرج الجيش الفرنسى من مصر وعادت دولة الترك إليها . وكان فى كل هذه الأثناء يستفيد من الحكم القائم

بالمرتب الخاص بأعضاء الديوان ، كما كان ينتفع بضريبة مالية يفرضها على الناس لقضايا يقوم بالسعى فيها عند الحكام ، وبالاستيلاء على تركات وودائع خرج أصحابها من مصر عند قدوم الفرنسيين ، فاتسعت ثروته اتساعا عظيما فى تلك الأيام وأصبح من أغنياء المصريين . ولما عاد الترك إلى حكم البلاد بعد ذلك ، تقرب إلى الوزير يوسف باشا ، وأخذ فى بناء القصور والتمتع بمباهج الحياة ونعيمها ، ولم يشعر بشىء من التردد فى أن يهدى إلى القائد التركى كتاباً ألفه فى التاريخ ، ذكر فى آخره مع السرور انقضاء الحكم الفرنسى وعودة الحكم التركى إلى مصر . واستمر بعد ذلك على جاهه وتصدره مع اختلاف القائمين بالحكم ، فلم يحدث حادث جليل فى البلاد إلا وللشرقاوى ذكر فيه ، وسيأتى ذكره فيما سنورده من الحديث ، وحسبنا أن نسوق الحديث ولا نعلق عليه .

ولنعد الآن إلى موقف السيد عمر ، فإنه لم يكن صائدا لجاه ولا ساعيا وراء ثروة ، بل كان رجلاً نبيلاً رأينا أمثلة من عفة نفسه وترفعه عن طلب الثروة ، بل رأينا بذله لما فى يده تلبية لنداء المكارم ؛ ولقد رأينا أنه لم يكن زعيم الشعب قبل نزول الفرنسيين بمصر ، عند اشتداد الحركات الشعبية التى كثرت

فى آخر أيام إبراهيم ومراد من أثر عسفهما وقصر نظرهما فى الحكم ، ولكنه كان عند ذلك كما قدمنا ناشئاً لم تتوثق صلته بالشعب ، إذ كان فى أول عهده لا يزال فى المحل الثانى بين أعيان البلاد . على أننا مع ذلك رأيناه يشترك فى عام ١٧٩٥ (أى قبل مجىء بونابرت بثلاث سنوات) فى الثورة الأهلية الكبرى التى أنتجت « وثيقة بيت إبراهيم بك » ، وكان هو أحد من وقعوا تلك الوثيقة . على أنه كان عند ذلك من أكرم الزعماء نفساً ، فانه لم يتحرك لأن ظلم الأميرين قد ناله بضرر خاص ، كما كان حال الشيخ الشرقاوى مثلاً ، بل تحرك لأن الظلم أصاب قومه ، فكان تحركه على الظلم نفسه ، ولنصره الحق لا ابتغاء منفعة ولا دفعاً لضرر خاص به . ثم جاء الفرنسيون ، فرأى نظام الحكم فى البلاد ينهار ، ورأى الطغاة لا يلبثون إلا قليلاً فى دفاعهم ، ثم يدفعهم الحرص على الحياة ونعيمها إلى الهرب أو التسليم ، فهزه ذلك الموقف هزة لم يستطع معها البقاء فى البلاد ليشهد مأساة عواقب الظلم والحكم الفاسد ، وآثر أن يضحى براحته وأمواله ويهجر أهله وأصدقاءه ويقنع بالتشريد والأذى ، على أن يستقر فى وطنه مع الذل والهون ، فذهب إلى الشام ، وترامت إليه أنباء الزعماء وقد استسلموا واشتركوا مع الأجنبى الغاصب ، ونالوا من وراء

ذلك ما ترغب فيه النفوس الصغيرة من الفوائد ، فلم يزده ذلك إلا اعتقاداً فى واجبه وثباتاً عليه . وسمع عن نهب داره ومصادرة أمواله ، فلم يعبأ بشىء من ذلك بل شارك الجنود فى مواقعهم ، وقام معهم بما يقومون به من الجهود المضنية فى سبيل طرد الأجانب عن بلاده ، وأبى أن يستقر له أمر حتى يعود إلى بلاده استقلالها وكرامتها . وعاد إليها مكرهاً ، فلم يلبث أن ثار على رأس الشعب الثورة الكبرى الثانية ، ولكنه اضطر للهجرة مرة أخرى بعد خيبة تلك الثورة . و بقى فى منفاه حتى عاد عزيزاً إلى بلاده بعد أن خرج منها آخر جنود فرنسا .

ونظر إلى البلاد فرأى حالا تفتت الكبد وتدمى الفؤاد ، فشغله ما رأى عن أن يطلب عودة مال أو عقار . حقا لقد أعيدت إليه نقابة الأشراف بعد بضعة أشهر ، ولكنه لم يظهر كبير اهتمام لذلك ، بل كانت كل حركاته تنم عن كراهة للحال التى آلت إليها البلاد ، وللأساليب التى كان الحكم يسير عليها عند ذلك ؛ فكان يتباعد عن الصدر الأعظم يوسف باشا إلا فى أكبر المناسبات التى لا بد له من الاتصال به ، ثم كان يبعد عن خسرو ، فلا نكاد نسمع له ذكرا فى صحبته ، ثم اعتزل الحوادث التى نشرت الفوضى فى البلاد من ثورات الجنود وعداواتهم ومنافساتهم .

كل ذلك فى حين كان كثير من أعيان البلاد يلتمسون كل وسيلة للاتصال بالحكام وللاستفادة من تقلب الظروف والحوادث كما فعل المحروقى والشرقاوى والسادات والمهدى وكثير غير هؤلاء. وقضى على تباعده ذلك وعزلته عن الأمور العامة مدة السنوات الثلاث التى أعقبت خروج الجيش الفرنسى من مصر، إلى أن آلت الحوادث إلى خروج إبراهيم والبرديسى من القاهرة، وقيام الشعب ينادى بضرورة إقامة حكومة جديدة، فسمع السيد عمر مكرم صوت الشعب يدوى. ورأى واجبه أن يشترك مع ذلك الشعب بتوجيهه وقيادته، فكان ذلك أول اشتراك جدى منه فى الأمور العامة بعد عودته إلى مصر.

فى حكم خورشيد

كان أحمد خورشيد باشا حاكما على الإسكندرية ، وكان حاكم الإسكندرية وحكام مدن الساحل من كبار موظفى الدولة يعينهم السلطان مباشرة ، فكان فى أثناء الحوادث الأخيرة لا علاقة له بالقاهرة ولا بأحزابها . وكان رجلا له كثير من حميد الخلال من بينها قسط كبير من الشجاعة ، ولكن شجاعته كانت تصل به أحياناً إلى حد العناد والجمود . واختارته الدولة العثمانية ليكون واليا على مصر ، فأمرته فجأة أن يترك مقر حكمه فى الإسكندرية ، ويتولى حكم مصر عقب الانقلاب الأخير الذى أحدثه محمد على ، وخروج الأمراء المصريين من القاهرة كما مر وصفه ، فوصل إلى العاصمة بعد أسبوعين من خروج الأمراء ، وقضى بها مدة سنة وأربعة أشهر كانت آخر مدة الحكم العثمانى بمصر . ولم تكن تلك المدة القصيرة مدة حكم حقيقى ، بل كانت استمرار النضال والاضطراب اللذين سادا على مصر منذ عاد الحكم العثمانى بعد خروج الفرنسيين .

لم يكن حكم خورشيد بدء سياسة جديدة للحكم العثمانى فإن

الدولة العثمانية كانت عند ذلك عاجزة كل العجز عن أن تدرك حقيقة موقفها ، وتعدل من نظام حكمها بما تقتضيه الظروف ؛ فإنها أصرت على سياستها التى تخبطت فيها منذ أيام محمد بك أبى الذهب ، ولم تستطع أن تنظر إلى الظروف الجديدة نظرة مستنيرة حكيمة ، ولو فعلت ذلك لكان وجه التاريخ قد تغير ، وامتنعت حوادث خطيرة أصابت الدولة وأصابت مصر ، من وراء السير على خطة عقيمة لا مخرج لها إلا من سبيل الاضطراب والفوضى .

حاولت الدولة العثمانية منذ خروج الفرنسيين من مصر أن تحكم البلاد بأن تقضى على الأمراء ، ليخلو لها الميدان فتنفرد بالحكم ، وغاب عن نظر ساستها أن الشعب المصرى نفسه ما كان يستطيع المقام على حكمها مع بقاء أساليبها العتيقة ، التى أصبحت لا تحقق آماله ، ولا تشبع كبرياءه . فلو نجحت تلك الدولة فيما أرادته من القضاء على الأمراء ، لوجدت نفسها حيال شعب ناضل عن استقلاله ، وقدم كثيراً من الضحايا ، وبذل من أمواله وأنفسه شيئاً كثيراً فى سبيل الكرامة والحرية ، وما كان من الممكن أن تستطيع الحكم المطلق فى مصر ، كما صوره ساستها فى خبايا قصورهم ، بل كان من المحتوم أن يصطدم ذلك الحكم بالروح المصرى الجديد ، إن عاجلا أو آجلا .

على أن الدولة العثمانية لم تنجح فى خطتها التى أملاها قصر النظر ، ألا وهى خطة القضاء على الأمراء ، فقد دبرت مؤامرة فى إثر أخرى ، ودسيسة بعد دسيسة ، للقضاء على هذه الفئة المحدودة ، وكانت فى كل مرة تخيب وتعجز . ولما خرج البرديسى و إبراهيم وسائر الأمراء من القاهرة وجاء خورشيد باشا لتولى الحكم ، كانت فكرته أن الحكم التركى قد صار على أبواب النجاح ، وأنه إذا ثبت وعقد النية على مطاردة الأمراء انتهى الأمر بفوزه ، ومهد السبيل إلى حكم مطلق تكون كلمة السلطان فيه هى العليا ، وهو الأمل الذى كانت الدولة العثمانية تحاول عبثا أن تصل إليه منذ وطئت أقدام سليم الأول أرض مصر .

بدأ خورشيد فى إنفاذ هذه الخطة منذ أول قدومه ، فلم يترك يوما واحدا من أيام حكمه القصير بغير أن يدبر تدبيرا جديدا فى سبيل تثبيت مكانه ، ومحاولة القضاء على الأمراء ، وأظهر فى ذلك عنادا عجيبا ، فلم يرض بالتنازل عن شىء ، ولم يرض بالتسامح فى شىء ، بل أعلن أنه لن يرضى مع الأمراء بأقل من محقهم و إزالتهم وتعفية آثارهم . وسار فى هذا النضال ، وأغرق فى هذا العناد ، وجعل كل همه محصورا فيه والتمس له كل الوسائل ، وركب فى سبيله كل المخاطر ، فكان فى هذا فشله ، لأنه أقفل عينيه عن كل ما حوله ،

فما زال حتى انهار المكان الذى وضع عليه رجليه ، وهو لا يزال ناظرا إلى غرضه الأول ، فهوى وتهدم معه الحكم العثمانى إلى الأبد .

كانت القاهرة عند ذلك معزولة عن كل القطر المصرى تحيط بها الجيوش المعادية من كل جانب ، فالبرديسى وأتباعه يجوسون خلال الريف المجاور حينا ، ويهبطون فجأة إلى أبواب القاهرة عند باب الفتوح وباب النصر ، وجهة الشيخ قمر والدمرداش والوايلى ، حتى إذا ما أرسل الباشا إليهم كتيبة لم تجدهم ، إذ يكونون قد أسرعوا على خيولهم إلى الصحراء نحو الشمال أو نحو الجنوب ؛ وظهر الألفى من مخبئه بعد قليل وجال بأتباعه فى نواح أخرى ينتظر الفرصة للهبوط إلى القاهرة ، ولولا العداوة التى بينه وبين البرديسى لاجتمعت قوتاهما وهبطا معا إلى القاهرة فأخذاها عنوة ، إذ ما كان خورشيد يستطيع أن يقاومهما مجتمعين بمن معه من الجنود الثائرة التى لا يوثق بإخلاصها ولا بشجاعتها .

وكان البرديسى يراسل فرنسا فى هذه الأثناء لتنصره ، وأتى إليه رسول من نابوليون وهو المسيو (فرامرى) ليفاوضه فى شروط معاهدة تضمن لفرنسا السيادة إذا نصرته . وكذلك كان الألفى يتصل بالانجليز ، إذ كان منذ عودته من بلادهم على أوثق الصلات معهم .

وامتنعت عن القاهرة الأموال التى كانت تعينها على تسيير الأمور ، ودفع مرتبات الجنود ، لوقوف الجيوش المحاربة على أبوابها ، ولأن الأمراء كانوا أحرارا فى الذهاب حيث شاءوا ، يجبون من الأهلين ما يمكنهم أخذه منهم من الأموال والمؤن ، فلم يجد خورشيد دونه ملجأ إلا أن يشتد على أهالى القاهرة فى استخلاص ما يمكن استخلاصه منهم بأشد الوسائل وأدنئها ، فلم يتردد فى وسيلة تخرجه من مأزق الإفلاس والعجز ، حتى قبض على نساء الأمراء واضطرهن إلى افتداء أنفسهن ببذل المال ، فعل ذلك مع السيدة نفيسة حرم مراد بك ، والسيدة عديلة ابنة إبراهيم بك ، كما فعله مع غيرهما حتى اضطررن أن يبعن حليهن ومتاعهن ، ويتكبدن أعظم المشقة فى سبيل افتداء أنفسهن . وكان لهذا الاعتداء أثر بالغ فى نفوس الناس والأعيان ، ولا سيما وقد كان القبض على النساء مما لم تجر به العادة فى أشد الأوقات حرجاً واضطراباً ؛ ثم أمر أهل القاهرة بدفع الضرائب مقدماً عن السنة ، ثم طالب الملتزمين بدفع ما عليهم من الأموال ، مع أنهم لا يتمكنون فى تلك الظروف التى تشبه الحصار من الذهاب إلى الريف لتحصيل الأموال من الزراع . وظن خورشيد أن رؤساء الأقباط يستطيعون ما لا يستطيعه غيرهم ففرض عليهم

أداء قسط كبير من المال . وتمكن بهذه الوسائل الشديدة أن يجمع مقداراً من المال مكنه من تسيير الأمور فى وقته ، ولكنه شعر بأن ذلك لا يغنيه ، فاضطر إلى أن يفرض مقداراً آخر على صغار التجار والصناع ، فأزعج ذلك عامة أهل القاهرة ، وبدأ الاضطراب يدب فيهم ، وأخذت نفوس الناس منذ أول حكمه تبعد عنه وتتحين الفرص للوثوب به . وكان السيد عمر مكرم عند ذلك ينظر إلى تلك الحال ويتحرق قلبه ، كلما تذكر ما بذل أهل مصر من الضحايا ، وما تحمل هو من المتاعب فى سبيل استقلال البلاد ، ورأى ما آل إليه الأمر من الاضطراب وسوء السياسة . فلم يجد بدا من العودة إلى تزعم الشعب والنطق بما يجول فى نفسه من الآلام .

وشعر خورشيد بأنه لن يستطيع مقاومة غضبة الشعب ، فما شعر بتحرك الزعيم الشعبى على رأس قومه ، حتى أسرع بإلغاء أمر جمع المال من صغار التجار وفقراء الناس ، ورجع عما فرض على العامة من الضرائب الثقيلة ، وعاد إلى الأمراء والأعيان وأصحاب الأموال من الأقباط واليهود يستخلص أموالهم بشتى الوسائل وأقساها ، بل إنه لجأ إلى وسيلة أشد إمعاناً فى الظلم وقصر النظر ، فكان يصادر السلع الآتية مع القوافل

من الخارج ، أو يرغم التجار الوطنيين والأجانب على دفع الأموال بالضرب والسجن والتعذيب .

ورأى أن الجنود الذين فى جيشه لا يستطيعون شيئا فى قتال الأمراء ، وأحس أنه لا يستطيع أن يبذل لهم من الأموال ما يرضيهم ويبعثهم على قبول الخروج للقتال ، فلجأ إلى سياسة جديدة ظنها مخرجة له من مأزقه ؛ وذلك أنه لجأ إلى زعماء الشعب وطلب إليهم أن يقوموا فى نصرته كما فعلوا عند ما نهضوا لقتال الفرنسيين من قبل ، وعقد لهم مجلساً حاول فيه أن يستنهض همتهم ، ويثير حماستهم لقبول جهاد الأمراء ، كما جاهدوا من قبل ، ولكن أى فرق بين الحالين ؟ لقد كان الشعب يقاتل الفرنسيين مدفوعاً بشعوره القومى وهو يرجو أن يعود الأمر إليه بعد خروج الأجانب من بلاده ، وما كان يقصد أن يخرج الفرنسيون من مصر لتحل محلهم شراذم من الطغاة الظلمة ، التى تفتك به وتفسد فى بلاده وتدمر معالمها ومصالحها . فلم يتردد الزعماء أن أجابوا بلسان واحد رافضين ما يعرضه ، بل لقد رفضوا أى نوع من الاشتراك فى ذلك النضال ، وأبوا أن يسمحوا له بفرض ضرائب على العامة وصغار التجار والصناع ، ولم يرضوا كذلك بأن يشترك الناس فى قرض عام ، مع أن الباشا وعدهم أن

يعيده للناس إذا ما انجلت الأمور وانفرجت الأزمة .

فلم يجد الباشا قوة يعتمد عليها فى ضرب الأمراء إلا جنده الثائر ، وأرسل فى الوقت نفسه يطلب من دولته المساعدة ، وكان طلبه طلب اليائس المستعجل ، الذى يريد رجالا يقدمهم للحرب من أى جهة وعلى أى وصف . ولبت الدولة طلبه وبعثت إليه من طلب من الرجال بعد حين ، ولكنهم كانوا آلة لسقوطه وخيبته كما سيأتى .

ولم يكن فى الجيش الحاضر بمصر عند ذلك طائفة تستحق الذكر ، أو يمكن أن يعتد بها إلا فرقة الألبان (الأرنؤود) ، الذين كانوا تحت قيادة محمد على وحسن بك أخى طاهر باشا المقتول . ولم يكن فى قواده أحد يمكن الاعتماد على شجاعته ومهارته فى الحرب إلا رجل واحد وهو محمد على . وقد انتفع الباشا بهذا القائد وبجنوده انتفاعا عظيما ، فوجهه إلى مختلف الجهات لمقاتلة المماليك ، فكان حيناً يخرجه إلى جوار القاهرة ، وحيناً إلى طرة ، فينتصر حيناً وينهزم حيناً ، حتى اضطر الأمراء عند قدوم الصيف إلى أن يبعدوا عن أبواب القاهرة ، بعد أن ضيقوا عليها الحصار نحو أربعة أشهر .

ولكن خورشيد رأى نفسه يكاد يكون لعبة فى يد الجنود

الأرنؤود الذين ينصرونه ، ورأى أنه لا قدرة له على أن يجبى من الأموال ما يكفى لتسكين نفوسهم الثائرة ، وكأنه رأى أن رؤساءهم لا يقومون بما ينبغى من الضغط عليهم ، واضطرارهم إلى الصبر والرضى بما يبذل لهم ، فلما أحس أن الأمراء قد بعدوا قليلا عن القاهرة ، بدأ يظهر الغضب على بعض رؤسائهم ، حتى عزم بعضهم على الاستقالة والخروج من مصر ؛ وكان من هؤلاء محمد على وأحمد بك صديقه وصادق أغا ، وكلهم من كبار الضباط . وكان الباشا يود لو تم إبعاد هؤلاء ، إذ كان ينتظر مجىء الإمداد من دولته ، ويرى أن بعد الأمراء عن القاهرة فرصة مناسبة للتخلص من هؤلاء الأصدقاء المخطرين . ولكن الضباط الغاضبين لم يستطيعوا الخروج من مصر ، لأن جنودهم أحاطوا بهم ومنعوهم من السفر ، وهددوهم إن فعلوا أن يبسطوا إليهم أيديهم بالأذى ، لأن فى خروجهم معنى التخذيل لهم والنجاة بأنفسهم من موقف يتعرض الجميع لمخاطره .

ولما لم يتم للباشا ما أحب من إبعاد الضباط الأرنؤود ، أراد أن يتخلص منهم بطريقة أخرى ، وذلك بأن يرسلهم إلى تتبع الأمراء بالصعيد . فكظم خيبته فى نفسه ، وتظاهر بالسرور والرضا ، وأنعم على حسن بك برتبة باشا كيما يدارى كيده ، ريثما تأتى إليه

الجموع التى طالب الدولة العثمانيــة بإرسالها إليه .

فسافر محمد على وحسن باشا إلى الصعيد فى الخريف ، مع قوة متحدة تبلغ نيفا وأربعة آلاف من جنودهم الأرنؤود . ولـكن أنى لمثل هذه القوة أن تستميت فى حربها ، وهى تحس أنها مرسلة إلى منفى أو مبعوثة إلى مجزرة ؛ فكان الجيش ينهزم فى كل موقعة ، وكان قائداه يحاولان تجنب الاصطدام بالأمراء ما استطاعا إلى ذلك سبيلا . فقضى الجيش فى سفره كل فصل الشتاء ، إلى أن أقبل الربيع ، ولم يستطع أن يبعد الأمراء إلى الجنوب ، بل إن جانبا منهم تقدم إلى الشمال حتى بلغ الفشن . وكان الباشا فى هـذه الأثناء يستحث الدولة لإرسال الإمداد إليه قبل عودة الألبان من غزوتهم ، وكان فى الوقت نفسه يتألف الأعيان ويزورهم ويتقرب إليهم ، ولاسيما السيد عمر ، فكان يذهب إليه بين حين وآخر فى منزله ، ويهدى إليه الخيول ، ويتحبب إليه بشتى الوسائل ، خشية أن يتحرك عليه شعب القاهرة قبل أن يتم استعداده .

وأقبلت الجموع الموعودة فى أوائل الربيع ، تسير متباطئة فى غير نظام ولا عفة ، حتى بلغت الخانكة ، وترامت أخبارهم إلى الصعيد ، فسمع بمقدمهم قائدا الألبان ، وعرفا أن الباشا قد حقق ما توقعاه من المكر بهما وبجندهما . فتركا الحرب وأقبلا

نحو القاهرة قبل أن يتم له ما أراد .

وفى يوم من أيام أبريل الدافئة ، أرسل الباشا إلى الأعيان ورؤساء الشعب وكبار الموظفين فى الجيش العثمانى بالقاهرة ، وأطلعهم على موقف القائدين الألبانيين منه ، ولبس فى ذلك المجلس مظهر الأبرياء ، يشهد الناس على غدر أعوانه وخياناتهم للواجب عليهم ، وطلب إليهم أن يقفوا معه فى هذه المحنة ، ويجتمعوا على الجنود العاصين ؛ واستعد بجموعه الجديدة لمحاربة أنصاره القدماء ، واضطر رؤساء الشعب أن يقيم منهم اثنان معه كل ليلة بالقلعة ، وكأنما أراد بذلك أن يجعلهما رهناً على هدوء الشعب فى ذلك الظرف .

وأراد أن يحمس الجنود الذين أحضرهم ليستعين بهم على مقاومة الأرنؤود ، ولكن محمد على كان أسرع خاطرا وأوضح خطة ، فإنه أرسل رسله إلى هؤلاء الجنود ، فأخبرهم أنه إنما جاء إلى القاهرة لكى يتسلم ما تخلف لجنوده من المرتبات ، ولم يجئ لمحاربتهم ولا لمعاداتهم ؛ فاذا ما تسلم من الباشا مرتبات جنوده عاد مع جيشه إلى أداء الواجب بغير مخالفة ولا معاندة . فرأى الجنود الجديدون أن موقف الجنود الأقدمين من الباشا مثل موقفهم منه ، وأن المرتبات إذا منعت اليوم عن الأرنؤود ،

فسوف تمنع عنهم فى الغد ، ولهذا لم يتحركوا فى نصرة الباشا ، واضطر خورشيد أن يقبل الضربة الجديدة ، ينظر إلى منافسيه يرجعون إلى منازلهم بالقاهرة على مرأى منه ، وهو عاجز عن أن يمسهم بأذى . وبدأ منذ ذلك الحين نضال صريح بين خورشيد والأرنؤود .

وكانت سياسة خورشيد مع زعماء المصريين هذه المرة أيضاً سياسة قصيرة النظر ، فما كان الشعب ليهدأ لاعتقال اثنين من زعمائه مناوبة كل ليلة ، وما كان الزعماء ليخلصوا له ويقفوا إلى جانبه فى نضاله وهم مرغمون معتقلون .

وقد كان هؤلاء الزعماء عند ذلك يسمعون ما حل بالناس فى الشرقية والقليوبية وأرباض القاهرة من أذى الجنود الجديدة ، الذين استقدمهم الباشا لينصروه على الأرنؤود ، فقد جمعتهم الدولة العثمانية من جبال حوران بالشام ، وكان اجتماعهم على طمع ما قد يجمعونه من مصر من المرتبات والمنهوبات ، فكان سيرهم فى البلاد كسير الجيش الفاتح يحل الخراب فى ذيولهم ؛ وكانت أول علامات اقترابهم من القاهرة ، أن دخل جماعات من أهل ضواحى القاهرة وهم فى أشد حالات الغضب واليأس ، جاءوا يشكون إلى العلماء والأعيان ما لقوه من الأذى والتشتيت ، إذ

طردهم هؤلاء الجنود القساة الفجرة من بيوتهم ، بعد أن أخذوا ثيابهم وأمتعتهم ، بل بعد أن اعتدوا على نسائهم وأبنائهم ، فلم ينج من عبثهم إلا من خاطر بنفسه وارتمى من سور منزله هاربا ، فلم يكن زعماء الشعب عند ذلك يميلون بحال من الأحوال إلى نصرة ذلك الحاكم ، الذى لا يستقيم فى سياسته ولا يبالى ما يحدث للناس فى سبيل إنفاذ خطته ، بل إنهم وقفوا منه عند ذلك موقف المحتج المغاضب ، وطالبوه أن ينظر إلى ما أوقده من نيران الفوضى وأن يحاول إطفاءها إذا استطاع .

وثار أهل القاهرة عند ذلك غاضبين لما نال أهل الضواحى من الأذى الذى يوشك أن ينزل بهم ، فتركوا أعمالهم واجتمعوا فى الأزهر وفيما يليه من المساجد والميادين ، وجعلوا ينادون بسقوط الباشا الأخرق الظالم . وكان السيد عمر عند ذلك على رأس الأعيان والعلماء ، يجتمع بهم كل يوم ليروا للناس مخرجاً مما هم فيه من الشدة . وظن خورشيد أن محمد على هو الذى يحرك الفتنة عليه ، فاحتال أن يتخلص منه بالمكر بعد أن عجز عن مقاومته بالقوة ، فأخرج أمراً سعى إلى الحصول عليه من السلطان بنقله إلى جدة والياً عليها ، وعقد الاجتماع المعتاد لقراءة الفرمان ، وإخطار محمد على بما حباه به السلطان من الترقية والرضى ،

ولـكن ذلك الاجتماع لم يعقد فى القلعة على العادة ، بل كان فى بيت أحد كبار الضباط ، وذلك لأن محمد على كان أبعد نظراً ، وأعمق حيلة من أن يذهب برجليه إلى سماع نبأ ترقيتـه فى محل الديوان الرسمى بالقلعة ، وخرج محمد على بعد الاجتماع وقد لبس علامة المنصب الجديد ، وأصبح من بعد ذلك يحمل لقب باشا ، تحمل على رأسه الأطواخ الثلاثة (وهى أعلام على شكل ذؤابات من الشعر يرفع اثنان منها على رأس البك وثلاثة على رأس الباشا) ، وسار فى موكب حافل وهو فى الحلة الرسمية التى أنعم الباشا بها عليه من فروة وقاووق ، وجعل ينثر فى طريقه الذهب والفضـة على الناس الذين اجتمعوا فى طريقه يحيونه ويدعون له ، إذ رأوا فيه عدوا للباشا الظالم ، وسمعوا منه قولا فيه عطف ومؤاساة لمـا كانوا فيه من الضنك والبؤس ، كما رأوا منه من قبل عطفاً ومواساة فى أيام عسف البرديسى بهم .

وقضى محمد على باشا بعـد ذلك أياماً كأنه يستعد للسفر إلى مقر ولايته الجديدة ، وكان الباشا يستعجل سفره خوفاً من تحرج الحال . غير أن الأمور سارت على غير ما كان يشتهى ، فان الجنود الأرنؤود تمسكوا بقائدهم وهددوه بالثورة عليه إذا هو تركهم وسافر ، وفعلوا فى ذلك مثل ما سبق لهم فعله معه منذ

أشهر ، عند ما أشيع عزمه على السفر مع جماعة من رفقائه كما تقدم . ولما غضب أهل القاهرة على الباشا وضاقوا بجنوده وقسوتهم ، ترددت بينهم همسات ما زالت تعلو ، حتى هتفوا بها وأصروا عليها . فلقد أصبح محمد على بعد تقليده الولاية يحمل لقب باشا ، فصار جديراً بأن يكون والياً على مصر ، بدلا من ذلك الذى يعسف بهم ويسوق عليهم الجنود الفجرة لإذلالهم . وما دام محمد على جديراً بحكم جدة ، فهو أولى بأن يبقى فى مصر ليكون حاكما عليها ، وبهذا مهد خورشيد من حيث لا يدرى سبيل محمد على إلى ولاية مصر .

فاجتمع الناس ألوفاً ، قيل إنهم بلغوا أربعين ألفاً ، فى جوار بيت القاضى بقرب الأزهر ، فى يوم الاثنين ١٣ مايو من عام ١٨٠٥ ، واجتمع زعماء الشعب فى داخل البيت ، حتى تكامل عقدهم ، وتشاوروا فيما بينهم فرددوا ما تنطق به ألسنة الأفراد ، من ذكر محمد على واستحسان توليته عليهم ، فرأوا أن ذلك خير حل لما هم فيه من الاضطراب ، إذ توسموا جميعاً فى ذلك الرجل الذكاء والعدل والقدرة والشهامة ؛ وكان السيد عمر مكرم أول من ردد أقوال الناس ، واقترح على المجتمعين ذلك الرأى . ولما استقر رأيهم على ذلك ، ساروا جميعاً فى ركب حافل إلى

بيت محمد على بالأزبكية ، وعرضوا عليه ما اتفقت كلمتهم عليه ، فتردد أولا ثم نزل على حكم الجماعة ، وقام إليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبساه الكرك والقفطان ، وقاما مقام الشعب فى تشريفه وخلع حكم البلاد عليه . وقبل محمد على أن يتسلم ذلك التشريف منهما وهما نائبان عن الشعب المصرى ، وأصبح من ذلك الوقت حاكما على مصر بإرادة مصر . وأظهر الشعب سروره فى ذلك اليوم وما بعده بالهتاف المتواصل ، وهو مجتمع فى الطرق والمساجد ألوفاً مؤلفة ، وصار يوم ١٣ مايو يوماً أغرّ فى تاريخ مصر ، إذ شهد اختيار المصريين لرأس الأسرة المالكة ، التى لا تزال إلى اليوم تزين عرش بلادهم ، وتحل فى قلوبهم محل الولاء والمحبة والعرفان .

وإذا كان التاريخ يذكر بدء ولاية محمد على باشا على مصر من اليوم التاسع من يولية سنة ١٨٠٥ ، فما ذلك إلا لأن تصديق السلطان على تعيينه لم يتم إلا عند ذلك ، وما أجدرنا أن نذكر أنه إنما قام فى الحكم برأى شعب لم يكن يرضى أن يخضع بعد لحاكم آخر ، إذا حاول السلطان أن يقيم سواه ، بل إن السلطان لم يرسل موافقته على ذلك التعيين إلا بعد أن عجز عن المقاومة ، وكان أهل مصر فى ذلك هم جند النصر والغلبة كما سيأتى .

عند ما بلغ نبأ هذا الانقلاب إلى سمع خورشيد ثارت ثائرته وظهر عناده ، فلم يرض أن يخضع لما رآه العامة والأعيان واتفقوا عليه ؛ بل خاطب الرسل الذين توجهوا لإعلامه بما كان قائلاً : « لقد ولانى السلطان فلن يعزلنى الفلاحون » . فلم يكن بعد ذلك بد من أن ينزله هؤلاء الفلاحون بالقوة من قصره بالقلعة ، وابتدأ النضال بين سلطان شعب مصر وسلطان العثمانيين منذ ذلك اليوم ، واستمر نحو شهرين ، وكان زعيمه وموجهه وروحه هو السيد عمر مكرم .

تحصن خورشيد فى القلعة ، مع جماعة من الجيش التركى وجماعة من الأرنؤود كان زعيمهم صالح أغا قوج ، واستعد للدفاع مصرا على المقاومة بالقوة إلا إذا أتاه أمر من السلطان العثمانى . ولسنا نستطيع أن نملك أنفسنا من الإعجاب بذلك الرجل رغم موقفه المعادى لمصر وميول أهلها وأمانيهم ، فلقد كان إصراره وعناده عند ذلك ينمان عن روح قوية ، وشجاعة عظيمة ، وإخلاص للواجب كما يراه ، قلما نجد له مثيلا فى حكام الدولة العثمانية عند ذلك .

وبدأ حصار القلعة بنوعين من المحاربين : النوع الأول جنود محمد على باشا ومن انضم إليهم من سائر فرق الجيش العثمانى ،

ومن قبائل العرب ، وهؤلاء كان نصيبهم من الحصار حماية نصف دائرة تبدأ من جانب الصحراء التى خلف القلعة ، مارة بالطريق المؤدية إلى القرافة ، وتنتهى عند جامع السلطان حسن . والنوع الثانى أهل القاهرة وقد وقفوا على متاريس أقاموها عند منافذ الطرق الكبرى الذاهبة إلى القاهرة ، وأخذوا على أنفسهم السهر فى الأزقة والدروب لحماية المدينة . وإنه لمن المعجب أن نتصور شعب مصر وقد حمل شتى أنواع الأسلحة من العصى والهراوى الغليظة (النبابيت) والبنادق والسيوف والخناجر ، وهم وقوف جماعات فى شبه صفوف الجنود ، وقد أقاموا من بينهم نقباء وعرفاء يأتمرون بأمرهم ، ويطيعونهم ويقومون على إنفاذ ما يلقونه إليهم من الخطط ، وهم بين تاجر وصانع ومحترف بحرفة أو صاحب مهنة ، ونفوسهم مضطرمة بالأمل الجديد الذى طلع عليهم ، يعتزون بأنهم يقيمون بناء استقلالهم بأنفسهم ويشترون حريتهم بدمائهم .

وقد حدث فى الأيام الأولى من الحصار حادث لا نستطيع أن نمر به بغير أن نقف عنده قليلا ، لنعرف منه شيئاً من أسلوب تفكير السيد عمر وعقيدته السياسية . فقد طلب خورشيد من الثائرين أن يرسل إليهم رسلا من قبله يفاوضونهم ويناقشونهم ، عسى أن يصلوا معهم إلى حل يحسم النزاع . فأرسل من قبله جماعة

كان رئيسهم أحد أتباعه من الأرنؤود اسمه (عمر بك)، وذهب إليهم جماعة من الثائرين كان السيد عمر على رأسهم ، وانعقد الاجتماع فى بيت حسن باشا الأرنؤودى ، فسأل عمر بك قائلا :

« كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) » .

وظن أنه لن يجد لذلك السؤال جواباً فتقوم الحجة على الثائرين ، وينصرف عنهم أتباعهم . فأجابه السيد عمر قائلا ، وكأنى به يبتسم عند ذلك ساخراً من منازله : « ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه . على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه » ، فقال عمر بك : « وكيف يجوز لكم حصارنا ومعاملتنا معاملة الخوارج الكفرة ؟ » . فقال السيد عمر مكرم بغير تردد : « إننا نقاتلكم لأنكم عصاة قد خرجتم على الحق وثرتم على القانون » . فلم ينفرط عقد ذلك المجلس إلا على

زيادة اليقين في قلوب شعب مصر ، وتأجج الحماسة في نفوسه ، واعلانه أنه حامي قانونه والمدافع عن حقوقه .

ولكن لم يمض على ذلك الحصار إلا أسبوعان حتى عاد جنود محمد على باشا إلى عهدهم السابق من التذمر والتقلب ، فطالبوه بمرتباتهم ، وهددوه بأن يخذلوه في الحصار ، ولم تجد معهم الحجج والوعود . ثم زاد عنادهم فثاروا وخرجوا عن الطاعة ، وأخذوا يهاجمون شعب مصر الذي كان مرابطاً عند متاريس الطرق ، وفي أطراف المدينة ، حتى جزع الباشا وظن أن الأمر قد أفلت من يديه . ولكن السيد عمر هدأ جزع صديقه الباشا ، وأكد له النجاح ما دام شعب مصر من ورائه . وأمر الناس أن يدافعوا عن أنفسهم إذا هاجمهم أحد من العسكر ، وملأ قلوبهم ثقة وقوة ، حتى استطاعوا أن يردوا كل محاولة من الجنود ترمي إلى إزعاجهم أو إيقاع الفشل فيهم . ثم أقام منهم فرقاً حلت محل الجنود الذين تخلوا عن أداء واجبهم ، فأصبحت القلعة منذ اليوم السابع من شهر يونية ، وكل من حولها من المحاصرين من أهل مصر وعامة سكان القاهرة . ولا ينبغي لنا أن ننسى أسماء بعض زعماء هذا الشعب النبيل ، ولو كان هؤلاء من أفقر الطبقات وأضعفها ، ولنترحم عليهم جاعلين إياهم رمزاً للمجاهيل من أبطال

تلك الثورة ؛ فقد خلفت لنا الأخبار أسماء حجاج الخضرى و إسماعيل جودة وابن شمعة شيخ الجزارين .

واستمر الحصار بعد ذلك على أيدى أهل مصر وحدهم ، وأصبح السيد عمر القائد الأعلى والزعيم الأوحد . فكانت الأوامر تلقى باسمه ، و يمر المنادى فى المدينة كل يوم يذيع فى الناس ما ينبغى لهم أن يقوموا به ، وما يجب عليهم أن يتبعوه ، وهو فى ذلك يبدأ النداء على أسلوب العصر قائلا « حسبما رسم السيد عمر أفندى والعلماء لجميع الرعايا » .

ولم يكن حصار القلعة عند ذلك هو العبء الوحيد الذى اضطلع به الشعب ، فقد كانت القاهرة فى شبه حصار من أطرافها ، لأن أمراء المماليك انتهزوا فرصة ذلك النضال واقتربوا من الأبواب ، وكان فى جنوب القاهرة جيش تركى يقوده قائد اسمه على باشا ، كان من قبل موجهاً إلى الصعيد لقتال الألفى بك ، فلما حدثت تلك الثورة عاد نحو القاهرة وأخذ يراسل خورشيد باشا يحاول أن يتفق معه على خطة للقضاء على شعب مصر . فكان على ذلك الشعب أن يلتفت فى الوقت عينه إلى الدفاع عن القاهرة من الخارج ، و إلى حصار القلعة فى الداخل ، وما كان أحد يظن أن هذا الشعب الأعزل المسالم يستطيع أن يصمد إلى

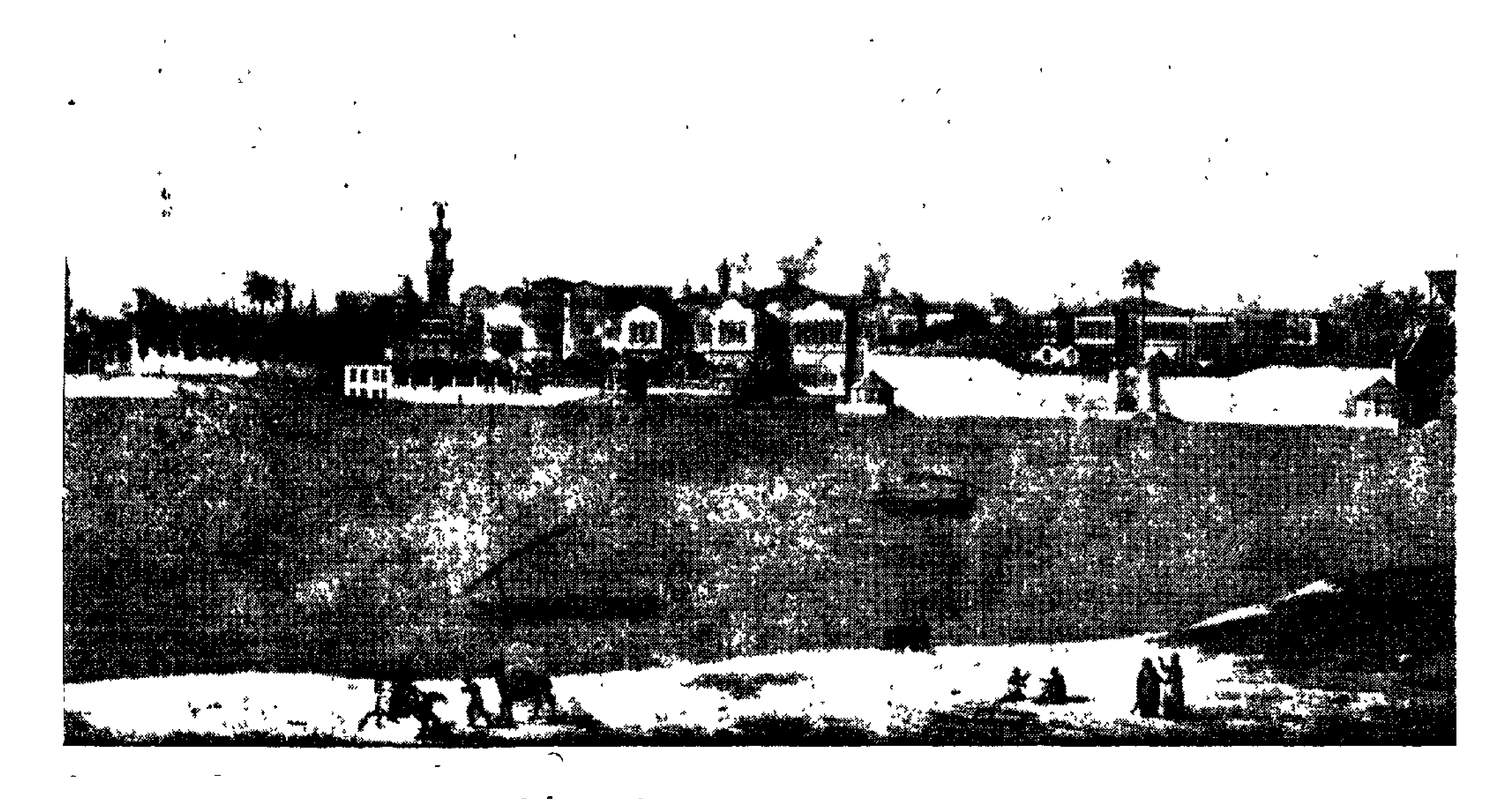
هذه الأعداء جميعها ، لولا ما بثه فيه زعيمه القادر من الحماسة ، وما نفثه فيه من قوة الإيمـان . وقد بلغت الأزمة أشدها فى اليوم السادس عشر من شهر يونيه ، إذ عول على باشا وخورشيد باشا على أن يرميا آخر ما فى جعبتهما ، ودبرا لذلك خطة جمعت بين المهارة الحربية والمـكر والخديعة . فقد اتفق على باشا على أن يستعد بجنوده فى الليلة التالية ويهاجم القاهرة من الجنوب ، فى حين يستعد خورشيد باشا بجنوده ويخرج على المحاصرين ، ويقذف عليهم فى أثناء ذلك نيران المدافع من القلعة فيأخذهم على غرة ، ويوقع فيهم الفزع فجأة . ثم رأى على باشا أن يعمد إلى حيلة فى الوقت عينه ، فأرسل إلى السيد عمر خطاباً تظاهر فيه بالرغبة فى التوسط بينه وبين الباشا حتى يقف القتال وتحقن الدماء ، وأنه سوف يحضر بنفسه وجنوده للتوسط ، حتى إذا لم يرض خورشيد باشا بالنزول على حكمه شارك شعب مصر فى حصار القلعة ، وأنزل خورشيد منها عنوة ، وطلب من السيد عمر أن يأمر الشعب ألا يتعرض له ولا لجنوده فى أثناء سيرهم نحو القلعة .

غير أن السيد عمر كان أعلم بأساليب العثمانيين من أن تخدعه تلك الحيلة ، وأتاه من أخبره بأن هذا القائد إنما يتظاهر بالمودة ويضمر الخديعة ، فأذاع فى تلك الليلة نداء على الشعب

ناشده فيه أن يسهر ويبذل أقصى ما عنده من الجلد واليقظة .
وأجاب الشعب نداءه أكرم إجابة وأجدرها بالإعجاب ، وكانت أولى علامات النصر أن ذهب حجاج الخضرى فى جماعة من أتباعه فكمنوا فى التلال المجاورة للقلعة من الجنوب ، ينتظرون ما يريد القائد التركى أن يفاجئ به إخوانهم . ولم يطل انتظارهم حتى طلعت عليهم أول طلائع الحملة فى قطار من الجمال عدتها ستون جملا ، تحمل المؤونة والذخيرة وتحرسها طائفة من الجنود . فخرج عليهم الكامنون وحاربوهم ، وقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة ، وانهزم الباقون ووقع القطار فى أيديهم غنيمة قدموها هدية إلى زعيمهم المحبوب .

فلما لم تنجح الخديعة لجأ القائد إلى الهجوم ، واندفع خورشيد باشا اندفاع اليائس فى قتاله . فتتابعت المعارك عند أبواب المدينة وعلى أسوار القلعة ، فما كان يمر يوم بغير موقعة فى أحد الجانبين أو فى الجانبين كليهما . وكان شعب مصر يخرج فى كل تلك المواقع منتصراً تزيده ضحاياه شجاعة واستبسالا .

وفى أواخر شهر يونيه بدأت بشائر انفراج الأزمة ، إذ أرسل السلطان رسولا يحمل فرماناً يأمر خورشيد باشا بالتسليم ، ويقر ما رآه أهل مصر من خلعه واختيار من يشاؤون . ووصل ذلك



سراى محمد على باشا المطلة على بركة الأزبكية
(حيث اختاره الشعب المصرى لحكمه)

الرسول إلى القاهرة فى اليوم التاسع من يوليه سنة ١٨٠٥ ، وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً ، إذ خرج أهل القاهرة جميعاً ليلاقوه ، ويشهدوا آية انتصارهم وعلو كلمتهم . فلما وصل الرسول فى موكبه الحافل ، ذهب والجماهير المحتشدة تحيط به ، حتى بلغ منزل محمد على باشا فى الأزبكية ؛ وكان حجاج الخضرى يسير فى طليعة الجماهير وفى يده سيف مسلول ، وابن شمعة إلى جواره ، تعلوهم علامات الابتهاج والاعتداد بالنفس . وقرئ المرسوم الذى يحمله الرسول على الناس ، وفيه أن محمد على باشا والى جدة سابقاً ، قد أصبح والياً على مصر ابتداء من اليوم العشرين من ربيع الأول (سنة ١٢٢٠) وهو اليوم الثامن عشر من شهر يوليه سنة ١٨٠٥ ، إذ قد رضيه العلماء والرعية ، وبذلك اعترف السلطان بما قرره شعب مصر فى يوم ١٣ مايو . غير أن خورشيد باشا لم يتزحزح عما كان عليه ، وبقى فى القلعة مصرًّا على عناده ، إلى أن انصرم شهر يوليه ، فلم يرض أن ينزل من القلعة إلا بعد أن هدده رسول السلطان بالتخلى عنه ، وإعلان عصيانه على دولته ، فنزل مرغماً عند ذلك ، وخرج من القلعة فى يوم الثلاثاء السادس من شهر أغسطس . وكان فى هذه الأثناء لا يزال يطمع أن يجد غرة من المحاصرين أو مساعدة من الجنود الذين فى خارج القاهرة ، فيغير .

وجه الحوادث بانتصار باهر على الثوار ، فلم يتحقق له شيء من ذلك مع كثرة المحاولات التي بذلها هو وحلفاؤه في هذا السبيل . وكان نزوله من القلعة في ذلك اليوم آية على انتصار شعب مصر و إنفاذ إرادته . وكأنا بالباشا وهو يمر في شوارع القاهرة قبيل الظهر ، وينظر إلى الجموع المحتشدة لرؤيته ، يتحرق غيظاً من نظراتهم الصامتة ، ويتأمل كيف استطاع ذلك الشعب في جلابيبه المتواضعة ومظهره السلمي ، أن ينتصر على جنوده ويرغمه على التخلي عن حكم مصر . وكأنا به قد أدرك عند ذلك ما تستطيع فعله تلك الجموع التي اعتاد هو وأمثاله أن ينظروا إليها نظرتهم إلى الشيء المهمل ، الذي لا يقام له وزن في تسيير الأمور . فقد علمه شعب مصر أن للشعوب قوة لا تقاوم إذا هي اتجهت بإرادتها نحو مقصد ، أو اندفعت بعواطفها نحو مثل أعلى .

فى أوائل الحكم الجديد

لم يكن تسليم القلعة إلا نصف الانتصار ، فإن الأعداء كانت محيطة بالقاهرة ومنبثة فى الأقاليم . وكان على الحكومة الجديدة أن تنظر فى إتمام الانتصار . ولم تكن الحكومة الجديدة إلا محمد على باشا ، وممثل شعب مصر المنتصر السيد عمر مكرم .

كان الأمراء المصريون يتنقلون حول القاهرة منذ اشتدت الأزمة بين خورشيد وشعب مصر ، وحاول زعيماهم البرديسى والألفى أن يتدخلا فى الحوادث كما مر . فما كاد خورشيد ينزل من القلعة ويهبط مع بقايا جنده فى السفن المنتظرة عند بولاق ، حتى أخذ محمد على باشا فى الاستعداد لمحاربة هذه القوى . ولم يكن موقفه منهم موقف القوى الواثق من قدرته ، بل كان لا يجسر على أن يخطو فى النضال خطوة جريئة . ولكن الأمل بدأ بعد قليل يطلع عليه ، وكانت أولى بشائره انتصاراً صغيراً فى يوم وفاء النيل الذى أعقب تلك الحوادث ، وكان للسيد عمر قسط وافر من فخر ذلك الانتصار الصغير .

كان الاحتفال بوفاء النيل فى ذلك العام فى اليوم الحادى

عشر من مسرى سنة ١٥٢١ ، وهو العشرون من جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ ، وذلك يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٠٥ . واستعد الناس للخروج إلى ذلك الاحتفال على عادتهم ، وكان المنتظر أن يخرج الباشا وجنوده للاشتراك فيه ، فتكون القاهرة خالية من المدافعين ، لانشغال الناس والجنود جميعاً فى المهرجان . فرأى الأمراء أن تلك فرصة مناسبة لمفاجأة تقلب النظام على غير انتظار ، واستعدوا لدخول المدينة فى أول الصباح ، فما أشرقت الشمس حتى كانوا قد اقتحموا باب الحسينية و باب الفتوح ، ودخلوا إلى طرق المدينة فى موكب صاخب ، تتقدمهم موسيقاهم و يتبعهم مماليكهم وجنودهم . وقصد أكبر الأمراء بيت السيد عمر و بيت الشيخ الشرقاوى ، وطلبوا منهما أن يساعداهم على الرجوع إلى الحكم و إثارة الشعب لنصرتهم . وكان الباشا قد علم بتلك النية ودبر لها خطة محكمة ؛ ولا نشك فى أن شريكه وصديقه السيد عمر كان يعلم كذلك بما عزم عليه الأمراء ، وما دبر لهم الباشا ؛ فلما ذهب كبراؤهم إليه اعتذر لهم بعدم القدرة على معاونتهم ، وصرفهم من عنده بعد أن أعلن فيهم أنه لن يساعدهم بنفسه ، ولن يدعو الشعب إلى مناصرتهم . فانصرفوا من عنده ليتموا ما يتوه من فتح القاهرة ، وكانت طرقاتها قد خلت من كل مانع ، ليس

فيها حرس ولا رصد ، لأن الباشا دبر ذلك بناء على خطة مرسومة ؛ إذ أمر بإخلاء طرق المدينة كلها من ناحية الشمال ليشجع الأمراء على الدخول والإيغال فيها ، ثم أوقف فى آخرها من الجنوب جماعات من جنده ، فرقهم فى جهات مختارة .

فلما بلغ الأمراء الطرف الجنوبى للمدينة قابلهم الجنود الكامنون فيه فجأة ، وأرسلوها عليهم ناراً حامية ، وكانت المباغتة أقوى من ثباتهم ، فأسرعوا نحو باب زويلة ، فوجدوا هناك فرقة صدتهم بمفاجأة أخرى ، فارتدوا فى غير تبصر نحو الشمال قاصدين الأبواب التى أتوا منها . وكان الباشا قد أمر بأن تقفل عقب دخولهم منها ، فأصبحوا فى داخل المدينة لا يجدون وسيلة للخروج ، فتفرقوا فى الأزقة ، ودخل جماعة منهم فى بعض المساجد ، وتسلق جانب منهم الأسوار ، وفروا هلعين إلى الصحراء . وأخذت الباقين نيران البنادق من أعلى المنازل ومن أسفل الطرق ، وأسر عدد منهم ، وسير بهم فى الأغلال إلى الباشا ، وهو فى منزله ينتظر أخبار مكيدته ، وكان فى هذه الأثناء قلقاً تتناوبه الوساوس والهواجس ، ويقلب الظنون على وجوهها المختلفة ، فإذا به يسمع ضجة الجند ، وما كان أشد سروره عند ما رأى جنوده مقبلين إليه بالأسرى فى أصفادهم ، وبرؤوس القتلى على أسنة الرماح من خلفهم ، وقد

قيل إنه امتلأ عند ذلك فرحاً ، ونظر إلى أحد الأمراء ، واسمه أحمد بك من كبار أتباع البرديسى ، وقال له متهللا : « وقعت فى الشرك يا أحمد بك » ولـكن ذلك الأمير لم يدع تلك الـكلمة تمضى بغير جواب ، فإنه كظم غيظه وحقده كظما لا يستطيع مثله أحد غير أمراء المماليك ، وتظاهر بالتعب والإعياء ، وطلب من الباشا شربة ماء ، فأخذته رقة لما كان الأسير فيه من البؤس ، وأمر له بكأس من الماء البارد ، وحلت قيوده ليستطيع أن يروى ظمأه ، ولـكنه لم يشرب ولم يعبأ بغير الانتقام من عدوه الخطير ، فخطف من بعض الوقوف سيفاً ، وكاد يفتك بالباشا ، لولا أن تـكاثر عليه الجنود وقتلوه .

وكان لذلك الانتصار على صغره أثر عظيم فى نفوس أهل القاهرة والجنود ، وعده الناس علامة على إقبال السعد على الباشا والدولة الجديدة . وفى الحق قد كان فاتحة انتصارات يتلو بعضها بعضا ، حتى توطدت الدولة الجديدة ، ولم يمض على قيامها أكثر من عام .

لم يبطئ محمد على باشا بعد ذلك فى محاربة أعدائه ، فأرسل إليهم البعوث واحدا بعد الآخر ، وكان موفقاً فى كل ما حاوله ، فانه طرد الدلاة الذين كانوا فى شمال القاهرة منذ أحضرهم خورشيد

باشا ، وقضوا هناك هذه المدة يفسدون فى البلاد التى حولهم من أرض القليوبية ، وما زال بهم حتى رأى آخر مفسد منهم يعبر الحدود إلى الشام ، ثم أخرج بعثاً إلى البرديسى ، واضطره إلى أن يبعد إلى الجنوب ، فتنفست القاهرة قليلا ، واستطاعت أن تفتح أبوابها وهى آمنة . وأما الألفى فإنه التزم فى أثناء هذه الحوادث خطة المسالمة ، راجياً أن يشركه الباشا فى الحكم ، ويقطعه بعض البلاد ، فرأى محمد على أن يطاول فى مفاوضته حتى يفرغ له ؛ فغضب الألفى من تلك المطاولة ، وعول على منابذته ، فاتجه إلى البحيرة وحاصر مدينة دمنهور وذلك فى أوائل مايو سنة ١٨٠٦ .

ولو أفلح الألفى فى أخذ المدينة لاتخذت الحوادث سيراً آخر فى اتجاه جديد ، وذلك أن الألفى لم يتجه نحو دمنهور إلا لقصد خفى ، فإنه كان حليفاً للانجليز ، لا تكاد تنقطع مراسلته لهم منذ عاد من بلادهم فى سنة ١٨٠٤ ؛ وكان يطمع أن يستولى على دمنهور ويتحصن فيها ، وهى مدينة صعبة المنال واقعة على مرتفع وعر ، وكان من أسهل الأمور أن يجعلها عاصمة له ، ويتربص فى انتظار المساعدة من حلفائه ، وكان الانجليز فى تلك الأعوام فى نضال الحياة أو الموت مع عاهل فرنسا بونابرت ، فكانوا لا يستطيعون أن يمدوا الألفى بالمساعدة الحربية ، لأن ذلك العمل

كان يعد اعتداء على تركيا ، ولم تكن عند ذلك عدوة لهم ، بل لقد كانت انجلترة تعمل على أن تستبقى مودتها فى سياستها الدولية ، فلم تستطع أن تساعده بأكثر من أن تسعى عند الحكومة التركية بالرضا عنه و بإمداده بقليل من المساعدة الحربية الخفية .

ولو استطاع الألفى أن يأخذ دمنهور ، لأمكنه أن يقيم بها بضع سنين ، متحديا قوى محمد على ، مكتفيا بأن يهبط بين حين وآخر على الجهات الشمالية من الدلتا ، فيجبى منها من الأموال ما يكفى للمقاومة إلى أن تتهيأ الفرص لحليفته أن تساعده ، وقد أدرك محمد على باشا والسيد عمر ما فى محاولة الألفى من خطورة ، ولكن محمد على لم يكن عند ذلك ليستطيع أن يتجه بكل قوته إلى الألفى ، لاضطراره لمحاربة فريق البرديسى فى الجنوب ، فتقدم السيد عمر فى هذه الأزمة بمساعدة كان لها الفضل فى تفريج الأزمة تفريجاً حاسماً ؛ فإنه أرسل إلى أهل دمنهور ، وهم من شعبه وأتباعه والمخلصين لدعوته ، وجعل يحرضهم على الدفاع ، ويضرب لهم الأمثال بما قام به إخوانهم فى القاهرة من التضحية والبطولة ، فاستجابوا لدعوته ، وحفروا حول مدينتهم خندقاً ، واستعدوا للاستماتة فى القتال ؛ ثم ساعدهم بما استطاعت الدولة أن ترسله إليهم من

المؤونة والسلاح والذخيرة ، حتى قيل إنه كدس فى المدينة ما يكفيها لمقاومة الحصار سنة كاملة .

وفيما كان الألفى يحاصر دمنهور ، وهو عاجز عن أن ينال منها مأربا ، وفيما كان أهلها يستبسلون فى الدفاع عنها ، وقلوبهم مملوءة بالحماسة التى أوقدها فيهم زعيمهم العظيم ، تحركت تركيا حركة جديدة ، تنم عن سعى جديد فى سبيل نصرة الألفى وإعادته إلى الحكم . ولا نشك فى أن تركيا ، وهى تتحرك إلى ذلك القصد ، كانت متأثرة بتدخل الإنجليز لإعادة حليفهم المخلص إلى الحكم ، ففى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٠٦ ، جاء إلى الإسكندرية أسطول تركى ، ومع قبطانه فرمان بنقل محمد على باشا إلى سلانيك ، وتولية موسى باشا بدله ، وإعادة الأمراء إلى الحكم على سابق عهدهم ، وما كان أشد ابتهاج الألفى بذلك النبأ عند ما بلغه ، إذ طلع عليه الأمل بعد أن كاد يخبو .

وأما القاهرة فقد وقع منها الخبر موقع الصاعقة — فإن أعيان مصر وأهلها رأوا فى حكم الباشا الجديد فى سنة واحدة شيئاً من الأمن والاستقرار لم يسبق لهم به عهد ، فشهدوا جيوش الحكومة ، لأول مرة منذ عهد طويل ، تنتصر على الأعداء المحيطين بالقاهرة ، وتبعدهم عن أسوارها نحو الشمال أو نحو الجنوب ، وأحسوا

شيئاً من الاطمئنان فى منازلهم ، بعد أن أزعجتهم فتن الجنود المتوالية ، وروعهم ما قاسوه على يد جموع الدلاة الفاسدة ، التى أصبح اسمها عندهم رمزاً لكل قسوة وشناعة . فلما جمع محمد على باشا كبار الأعيان وأولهم السيد عمر مكرم ، وأفضى إليهم بما كان من عزم الدولة على إبعاده عن مصر ، نظر بعضهم إلى بعض فى حيرة لا يدرون أيجب عليهم الخضوع لأمر السلطان ويضحون بذلك بأملهم الذى بدأ يشرق عليهم من الحكم الجديد ، أم يجب عليهم أن يخالفوه ويعيدوا سيرة الجهاد حتى يعود إلى النزول على حكم مصر وشعبها كما فعل من قبل ، وقاموا من مجلس الباشا وهم على غير استقرار لا تتضح لهم الخطة المثلى .

ومضى على ذلك التردد نحو أسبوع ، والرأى مضطرب ، والمستقبل يتأرجح كما تتأرجح السفينة على الموج المتلاطم ؛ وكان محمد على باشا فى هذه الأثناء لا تفتر له حركة ، فهو حيناً يجمع فى القلعة الأخشاب والمؤن وآلات الحرب ، وحيناً يسير فى طرق القاهرة يحيي الناس وهو مرتد لباساً قريباً من لباسهم ، وقد خلع عنه لباس الجنود والأغراب ، واتخذ له عباءة كالبرنس تزيل بعد الشقة التى بين الناس وبينه ، ثم زال التردد بعد ذلك الأسبوع ، عندما انتهى السيد عمر من مفاوضة زعماء الأمة ،

وقلب معهم الأمر على وجوهه ، حتى تبين لهم أن العودة إلى حكم الأمراء ونظام الحكم السابق لا يمكن أن يؤدى إلا إلى عودة المحن والمصائب ، ورجوع الاضطراب والفوضى ، واجتمع هؤلاء الزعماء فى منزل السيد عمر مكرم ، وأجمعوا أمرهم على كتابة خطاب للسلطان ، يبينون فيه أنهم لا يرضون بالحاكم الذى اختاروه بديلا .

غير أن قبطان الأسطول التركى لم يعبأ بذلك الخطاب ، وأراد أن ينفذ أمر السلطان بالقوة إذا استطاع ، فأرسل إلى الألفى أن يتحرك ليضرب محمد على باشا ضربة قوية ، فأقبل الألفى على دمنهور يضيق عليها الحصار ، لعله يصيب بها إذا سقطت فى يده نصراً يعلى من ذكره بين المصريين ، فيخذلهم عن نصرة واليهم الأثير عندهم .

ورأى السيد عمر أن تلك المدينة إذا سقطت فى يد الألفى ، كان لسقوطها أثر عظيم فى موقفه وموقف المصريين فى نضالهم الجديد ، فبادر بإرسال خطاب إلى أهل دمنهور يوصيهم بالثبات والجهاد .

ومضى يوليه ثم أغسطس والموقف لا يزال على ما كان عليه من الغموض ، فإن القبطان ما زال يعلق أمله على انتصار

الأمراء ولا سيما الألفى ، فى حين كان محمد على باشا لا يزال يستعد و يناضل و يتحبب إلى الناس ، والسيد عمر مكرم لا يكاد يذوق للراحة طعما ، بين اجتماع بزعماء الشعب ، وتدبر مع الباشا فى طريق الخروج من ذلك الموقف على ما يحقق أمل مصر ، واتصال بأهل دمنهور يشجعهم و يعينهم على ما هم فيـه ليمكنهم من مواصلة الدفاع .

ثم أراد الله أن يهيئ لمحمد على باشا وسيلة من وسائل النصر غير ما كان بين يديه من العدة ، وما كان خلفه من تأييد أهل مصر . وذلك أن القبطان التركى كان فى أثناء هذه المدة ينتظر أن يتفق زعماء المماليك فيما بينهم ، و يهبطوا على عدوهم الذى غلبهم على البلاد وعلى عواطف أهلها ، فيحيطوا به من الشمال والجنوب ، و يوقدوا عليه النيران فى صعيد مصر وأسفلها . وطالت المفاوضات وترددت الرسل بينهم ، ولـكن التنافس والتحاسد منع رؤساء الأمراء من أن يستقروا على خطة يجتمع عليها شملهم . فلما تطاول الزمن على تلك المحاولات ولم يجد القبطان فيهم متمناه ، عرف أنه يحاول اقتحام مضيق قد أصاب مياهه الجزر ، وأنه لن يرد ما تحتمه الطباع والغرائز ، وأقبل على محمد على باشا يفاوضه فى تجديد عهد الولاية على مصر . وجدد

الباشا كتاب المصريين الذى توسلوا فيه إلى السلطان أن يبقى لهم حاكمهم الذى اختاروه وارتضوه ، وحمل ذلك الكتاب الابن الأكبر للباشا وهو إبراهيم (بيك) ، وما لبث رد ذلك الكتاب أن جاء بالقبول فى أول أكتوبر ؛ وازينت القاهرة على عادتها إذ تباهها البشريات ، وأعادت إظهار الفرح والطرب للانتصار الجديد . وبذلك تنفس محمد على باشا ، وأقبل على ما كان فيه من التمهيد للملك واستقرار الأمر . ومرت الأشهر الثلاثة الباقية من ذلك العام فى نضال متقطع ، عرف فيه الأمراء أن أمرهم مدبر ، وأن الفرصة الذهبية قد أفلتت من أيديهم ، فاجتمع الحزن والحرمان على كبارهم ، فإذا بالبرديسى يمرض فى منفلوط مرضاً قصيراً ثم يموت فى ديسمبر من ذلك العام ، ثم إذا بالألفى يعجز عن أن ينال عند دمنهور فوزا ، فيجتاز إلى الصعيد ويمر بالقاهرة فى سيره حزيناً كئيباً .

وخرج محمد على باشا إلى الجيزة فى جنوده استعداداً وحذراً ، ورأى جيش عدوه يسير على حافة الصحراء مرتباً فى كراديس وفرق منظمة ، والموسيقى تتقدمه فى هيئة جليلة وترتيب بديع ، فلم يتمالك أن يشهد له بالعظمة ويقر له بالشجاعة والقدرة ، فى صراحة الرجل العظيم الذى لا يجد بأساً فى أن يمدح منافسه

وينصفه فى الحكم فقال : « هذا نابغة الزمان » . ولم يزل الباشا ينظر إلى ذلك الجيش الكثيف ، تارة بعينيه العاريتين ، وتارة بمنظاره المقرب ، حتى توارى عنه خلف تلال الصحراء نحو الجنوب .

وكأنا بذلك الأمير كان ينظر إلى القاهرة الكبرى فى أثناء مروره ، ويذكر ما كان له فيها من ماض حافل بالأحداث والذكريات ، وتجيش فى صدره الهموم ، ويعود إلى ذهنه ما شهد فيها منذ سنوات طويلة من أيام العز أو من تقلبات الحدثان ، بل لقد قيل إن الأشجان غلبته وأفعمت قلبه ، حتى جعل يحدث القاهرة عن بعد كما يتحدث المحب إلى أطلال الحبيب ، فما كادت المدينة تغيب عن عينيه ، ويقبل عليه الليل ، حتى أصابه مرض فجائى فانفجر شريان فى صدره ومات من ليلته (فى ٣٠ يناير سنة ١٨٠٧) .

وكان موت الألفى بعد موت البرديسى نهاية الخطر الحقيقى الذى يهدد محمد على باشا فى حكم مصر ، حتى ذكر بعضهم أنه قال عند ذلك : « الآن قد طابت لى مصر » . وكان موته فوق ذلك عاملا عظيما على تحول الحوادث كما سيأتى .

أمام الحمـــلة الانجليزية

فى ربيع ذلك العام فى شهر مارس ، جاءت الأخبار أن بعض السفن الانجليزية هبطت الإسكندرية وملكتها ، وكان ذلك بعـد شهر ونصف من موت الألفى بك حليف الانجليز ؛ وكأن القضاء أراد أمراً إذ قضى موت ذلك الأمير القوى قبيل وصول حملة حلفائه ، ولو كان حيا عند ذلك لسارت الأمور فى غير مجراها ، ولاتخذ التاريخ المصرى وجهة غير التى اتجه إليها .

سار الانجليز بعد الاستيلاء على الإسكندرية نحو رشـيد ، فبلغوها فى أواخر الشهر نفسه ، وكانوا يقصدون أن يسـيروا فى غزوتهم لمصر على خط السير الذى اتبعته الحملة الفرنسية من قبلهم .

وكان محمد على باشا فى ذلك الوقت فى أسيوط ، يحارب فلول جيوش الأمراء ، منتهزاً الفرصة السانحة من اضطراب أمرهم بعد وفاة زعيمهم البرديسى ، وانتصر عليهم فى كل موطن ، وأوقع بهم وقعة عظيمة عند منقباد فى أوائل ابريل .

وكانت رشيد لحسن الحظ فى حماية فرقة باسلة من الجيش ،

قائدها رجل شجاع واسع الحيلة ، دبر خطة جريئـة للدفاع عن المدينة ، وتمكن من صد الانجليز عنها مع قلة من معه من الجنود ، واضطرهم إلى الوقوف خارجها فى انتظار معركة فاصلة .

وكان الناس جميعاً يظنون أن دخول الانجليز إلى رشيد أمر محقق ، وأولم قنصل انجلترة واسمه (پتروتشى) وليمة فاخرة ، استعداداً لدخولهم ، ليتلقاهم فى المدينـة بالترحيب والتقريب ، فكانت تلك الوليمة الفاخرة من حظ القائد التركى المنتصر وأعوانه ، وكان فى هذا فكاهة مسلية وسط مناظر الدماء .

وترامت أنباء هذه الحملة الجديدة إلى الباشا فى الصعيد ، فأسرع إلى مهادنة الأمراء ، وعاد إلى القاهرة فبلغها فى العاشر من أبريل ، وكانت المعركة لا تزال تدور حول رشيد ، عند القرية التي خلد النصر اسمها وهى (الحماد) .

وكان أهل البلاد جميعاً قد اهتزوا لنبأ الحملة الانجليزية ، فتحرك أهل الوجه البحرى ولا سيما أهل دمنهور ، وأسرعوا إلى مكاتبة الزعيم الـكبير السـيد عمر مكرم يسألونه القيام فى الجهاد على عادته . وتحرك أهل القاهرة كذلك وبادروا إلى زعيمهم العظيم يستلهمونه ما يصنعون فى الدفاع ، ويستطلعون رأيه فى التجرد للقتال . فدعاهم السيد عمر إلى ترك الأعمال وبذل المـال

والنفس مرة أخرى فى سبيل البلاد ، وما كان أكرم ما بدا منهم ، وما كان أسرع ما استجابوا له ، فاجتمع الآلاف منهم فى بيت القاضى بين زعماء وعامة ، وأخذوا يدبرون الخطة للدفاع عن عاصمتهم ، وعزموا على أن يتبعوا فى ذلك خطة الفرنسيين ، ويقيموا الحصون ويحفروا الخنادق كما فعل هؤلاء عند حصار القاهرة الأخير . ولبس الناس لباس الحرب ، وحملوا ما استطاعوا حمله من السلاح ، واستعد الكثيرون منهم للخروج إلى رشيد للاشتراك مع جنودها وأهلها فى الدفاع .

وكان أهل رشيد وما جاورها من الريف قد بادروا بأنفسهم واشتركوا مع الجنود التى كانت بالمدينة ، وساعدهم جماعات من أهل مكة ومن المغاربة كانوا قد قصدوا مصر للتجارة ، فلما رأوا الحملة الأجنبية تغير على البلاد هزتهم الحمية إلى مساعدة إخوانهم المصريين ونصرهم فى الدفاع . وأقبل هؤلاء جميعاً على متاريس الانجليز يلقون بأنفسهم فى النيران غير مبالين بالحياة ، وصدقوا فى الحملة على العدو ، فلم يمض على الموقعة إلا قليل حتى انتصروا ، وتقهقر الانجليز بعد خسائر فادحة فى الجنود والقواد ، بين قتلى وجرحى وأسرى .

وعاد الباشا من الصعيد فى العاشر من ابريل كما مر ،

فذهب إليه السيد عمر مع وفود أهل القاهرة ، يعرضون عليه استعدادهم لبذل النفس والمال ، ويطلبون إليه أن يبيح لهم أن يجودوا فى سبيل الوطن بالدماء ؛ فهش لهم وبش ، ثم شكرهم على استعدادهم الكريم ، ولكنه أفضى إليهم بأن واجبهم فى النضال قد سقط عنهم ، بعد أن صارت قوة الدولة كفيلة بالدفاع ، وأن حسبهم من الدفاع أن يبذلوا من المال ما يكفى نفقات الجنود ومؤونة الحرب . فعاد السيد عمر والوفود من مجلس الباشا تتعثر بهم الخطى وتملأ صدورهم خيبة الآمال . فلما أتت إليهم أنباء الانتصار في رشيد لم تجد منهم حماسة ، ولم تثر فيهم نشوة أو طرباً .

كان موقف الباشا فى هذا موقفاً صريحاً باتا ، ليس فيه تشكيك ولا مداجاة ؛ ولهذا نرى أنه كان نتيجة تفكير عميق ، وروية هادئة ، ولا بد لنا من الوقوف عنده قليلا ، لنرى الباعث الذى بعث عليه ، والنتيجة الكبرى التى كان بدؤها عنده .

قضى محمد على باشا فى مصر نحو سبع سنوات ، تقلب فى أثنائها من ضابط فى الفرقة الألبانية إلى وال يحكم حكما حقيقيا على أكثر البلاد ، ويوشك أن يقضى على البقية الباقية من القوى المعادية له ، وقد تتبعنا سيرته إجمالا ، ورأينا كيف

تحالف مع شعب مصر على تحطيم الجبهة الهائلة ، التى كانت تقف فى سبيله وفى سبيل البلاد . غير أن الشعب لم يفكر عند ذلك فى نظام الحكم ، ولم يحدد بالدقة موقفه من الباشا الذى اختاره ، بل لم تكن له فكرة واضحة عما ينبغى أن يكون عليه الحكم فى العهد الجديد . وكذلك لم يفكر الباشا فى مستقبله مع هذا الشعب الذى حالفه ، ولم يحدد طريقة خاصة للحكم فيه .

وهذا ناشئ من أن الظروف الشديدة التى كان يجتازها الحاكم والشعب ، جعلت كل همهما منصرفاً إلى فكرة واحدة ، وهى تحطيم القوة التى كانت تهددهما معاً .

حقا إن شعب مصر كان يجاهد منذ أول القرن الثامن عشر لإصلاح نظام الحكم ، ويناضل لكى يحصل على حرياته وحقوقه ، فلم يدع فرصة توصله إلى غرضه هذا إلا انتهزها ، فلما رأى رجلا مثل محمد على باشا بين ظهرانيه ، وجد فيه السيف الذى يستطيع أن ينصره ، وجاهد ما جاهد فى سبيله ، توسلا به إلى الغاية التى ظل يقصدها طوال تلك السنين ، ولكنه عند ما أعلن إرادته باختياره حاكما عليه ، لم يوضح آماله ولم يبين كنه أمانيه ، واكتفى بأن اشترط عليه العدل والإصلاح .

ورأى الباشا أن حكم البلاد آل إليه ، وألقيت تبعاته على

عاتقه ، ولم يكن له بد من أن يعمل جهده على إزالة الركام التى خلفها النضال الماضى ، قبل أن يحاول بناء أساس دولته الجديدة . ثم كان عليه بعد ذلك أن يقيم بناء المدنية فى البلاد ، على نحو ما كان قائماً فى العالم الغربى فى وقته ، فإن مصر اتصلت برغمها بذلك العالم الغربى منذ دخل الفرنسيون إليها ، وكان محمد على باشا بغير شك يعرف تلك البلاد ومدنيتها ، ومقدار ما بلغته من التقدم المادى فى العلم والصناعة ، وما كان فيها من الأساليب الحديثة فى الحرب ، وما كانت تستخدمه من وسائل لإخضاع قوى الطبيعة وتسخيرها فى تقدمها المادى ، وكان لا بد له إذن من أن يرى الفرق العظيم الذى يفصل بين حال مصر وحال بلاد أوربا من تلك الوجهات كلها ، وأن يحاول جهده أن يسارع إلى إلحاق مستوى هذه البلاد بمستوى العالم المتمدين ، متخذاً لذلك أقرب الوسائل وأسهلها .

وكان هذا يتطلب منه مجهوداً وبذلا وسهراً متواصلا ، ولم يكن للشعب المصرى عهد بالنظر فى أمور نفسه ، ولم يكن فيه من يستطيع الباشا أن يعول على درايته فى الحكم أو مقدرته فى العلم الدنيوى ، أو كفايته فى الإنشاء والتعمير ؛ فوقف يسائل نفسه : أى الخطط أسرع توصيلا إلى قصده ؟ وأى نظم الحكم

أعون له على المضى فى إصلاحه و بنائه ؟ وكان الشعب فى أثناء هذا تملؤه الحماسة وتدفعه الرغبة فى التحرر ، لا يفكر فى شىء إلا فى أن يشارك فى حكم نفسه ، أو يساهم فى الدفاع عن بلاده ، ولم تكن له خطة واضحة فى طريق الحكم أو فى نظام الدولة .

فالحق أن الموقف كان شديد الغموض والتعقد ، وما كان من الممكن أن يهتدى فيه الحاكم أو الشعب إلى رأى قاطع ، لا يتطرق إليه شك ولا يجد أحد عليه مطعناً .

والظاهر أن الباشا عند ما تطلع حوله ورأى ميداناً مخرباً ، لا أثر فيه إلا للتدمير والهدم ، ورأى أن الحوادث الماضية قد تركت مصر كالمريض المتهالك ، لا يكاد يحس قطرة من الدم تجرى فى عروقه ، اعتقد أن واجبه الأول أن يداوى الجسم قبل أن يحاول مداواة الروح ، وأن ينصرف إلى تعمير المتهدم و إخصاب المجدب و إحياء المشفى ، حتى إذا تم له ذلك نظر فيما هو بعد ذلك من شؤون الحكم .

وهنا يتبادر إلينا سؤال لا نستطيع أن نكتمه ، وهو هل كان محمد على باشا على حق فى إبعاد الشعب عن الشؤون العامة ، أم كان الأجدر به أن يسايره ويشاركه حتى يتم الإصلاح المادى مع الإصلاح الروحى ؟ ولسنا نستطيع أن نتسرع فى

الإجابة على هذا السؤال ، لأن فيــه مجالا للرأى من جانبيه ، ومدخلا للجدل من ناحيتيه . ولـكننا مع ذلك لا نستطيع أن نمانع أنفسنا من أن نعرض المسلك الذى سلـكه الباشا فى حياته السياسية والعامة ، حتى نتمـكن من أن نحكم على الحوادث بعد أن نرى خواتيمها .

بدأ محمد على باشا سيرة الإصلاح وحده ، ولم يشرك الشعب معه حتى لا يتقيد بقيد ، ومضى فى سبيله كما شاء ، واستطاع فى سنوات قليلة أن يخلق من مصر قطراً جديداً ، فأحيا به الصناعة والزراعة والتجارة ، وأدخل التعليم ، وجند الجنود ، وفتح البلاد ، وأعلى علم مصر حتى بلغت قمة العظمة بين الدول . ولـكن هذه الدولة المجيدة لم تلبث بعده أن نكصت على عقبيها ، فأقفلت مصانعها ، وبارت تجارتهـا ، وأمحلت أرضها ، وهوى علمها ، وصارت كأن لم تغن بالأمس ، ولسنا بسبيل الإطالة فى ذلك القول ، فإنما نريد أن نخلص منه على أن الإصلاح على يد الحاكم المطلق يكون بغير شك أسرع وأمضى ، ولـكنه يكون كله قائماً على المصلح الواحد الذى يقوم عليه ويرسم خططه ، فإذا مضى عنه ذهب منه الروح المحرك والذهن المهيمن والساعد العـامل ، فيضمحل أمره ، ويعود كما بدأ حتى تدب إليه

الحياة مرة أخرى ، إذا قيض له مصلح جديد ، وإلا بقى على سكونه وركوده .

فسنة الشعوب أن نهضتها لا تزدهر ، إلا إذا كانت وليدة روحها ونتيجة أذهانها وثمرة سعيها ، فإذا ازدهرت تلك النهضة بقيت وزادت رونقاً وذكاء كلما مر عليها الزمان ، واستمرت حياتها ما دامت الشعوب حية قوية .

على أننا لا نملك أنفسنا من أن نعتذر عن الباشا العظيم بأنه إنما قصد إلى الإصلاح ، وأنه إنما كان يضمر كل الخير للبلاد التى اتخذها وطناً ، عند ما رأى أن ينتهج خطته فى التعمير وحده بغير مشاركة الشعب .

ولم يصل إلى ذلك الرأى فى لحظة ، ولم يختط تلك الخطة فى عجلة وقلة بصر ، بل كان ذلك الرأى وليد عقيدة بقيت دفينة فى نفسه منذ أكثر من عام ، لا يفضى بها إلى أحد ، ولا يسمح لكلمة أن تنم عنها لأحد من أهل مصر . وإنما نعرف أنه كان يضمر مثل تلك النية من ثنايا حديث تناجى به مع فرنسى اسمه (منچان) ، كان فى مصر فى سنة ١٨٠٦ ، وقام بقسط من الأثر فى حوادثها ، وألف كتابا فى وصف تلك الحوادث ، روى فيه أنه قابل الباشا مرة عندما جاء القبطان التركى إلى الإسكندرية

فى عام ١٨٠٦ ، يحمل أمر نقله إلى سلانيك . فقال له الباشا فى أثناء ذلك الحديث : « لقد ملكت مصر بالسيف ، ولن أتركها إلا بالسيف ! » ثم جعل يبين له أنه لا يعتد فى مقاومة السلطان إلا بجنوده وقوته ، وأنه لن يدخل شعب مصر فى أمور الدولة مرة أخرى . ولكن تلك النية التى كان الباشا يضمرها منذ ذلك الحين ، لم تظهر صريحة إلا فى ربيع ١٨٠٧ ، عندما ذهب إليه السيد عمر يسأله أن يشرك الشعب فى الدفاع عن البلاد أمام الانجليز ، فإنه أجاب السيد عمر تلك الإجابة الحاسمة التى عرف الشعب منها موقفه منه معرفة لا غموض فيها ولا تردد ؛ فقد تبين عند ذلك أنه لن يسمح له بالاشتراك فى تسيير سياسة البلاد ، ولا فى تدبير الدفاع عنها إذا دعا الداعى ، وأن موقفه لن يكون موقف المتصرف فى نفسه ، بل موقف التابع المأمور أو المغمور القاصر .

ولا نستطيع إلا أن نأسف على أن شعب مصر لم تبدأ حياته السياسية منذ ذلك الحين ، فإنه عاد إلى عزلته ينظر إلى حكامه من بعيد ، وهو لا يزال يتطلع إلى حقوقه وحرياته ، وتجيش فى صدره آمال لا يجد نفسه قادراً على النهوض إلى تحقيقها . ومضى عليه حين طويل من الدهر فى هذا السكون ، ثلاثة أرباع قرن مرت به وهو فى عزلته تلك ، ثم تغيرت

الظروف وحدثت أحداث جليلة هزته وأيقظته ، فبدأ جهاده مرة أخرى ، ولكنه كان عند ذلك بادئاً بدءاً جديداً ، إذ لم تتح له من قبل فرصة التجربة والمران على النظر فى شؤون نفسه . فارتكب ما يرتكبه المبتدئ من الأخطاء ، وزلت به القدم ، وتعثر واضطرب ، ولم يقدر على أن يحسن الجهاد ، أو يلتمس لنفسه عصمة من حصافة التجربة وكياستها . ولو كان بدأ حياته السياسية منذ أيام السيد عمر ، لقطع فى أثناء القرن التاسع عشر شوطاً بعيداً فى سبيل حريته ، ولكان فى أواخر ذلك القرن خبيراً بشؤونه ، عالماً بمواطن ضعفه وقوته ، ولاستطاع أن يتجنب العواصف والزعازع التى عصفت باستقلاله ، ويتحاشى التيارات الجارفة التى هوت به إلى الجنادل والمساقط . على أننا مع كل هذا لا ننكر على الباشا الكبير أنه إنما قصد إلى الخير ، ولم يدر فى خلده ما تخبئه الأقدار .

السيد عمر مكرم يعارض الباشا

كان السيد عمر مكرم فى أشق المواقف وأحرجها عند ما صدمه الباشا تلك الصدمة الشديدة ، فلو كان الذى صدمه حاكما لا تربطه به صلة خاصة ، لما وجد فى الأمر مرارة ، ولا أحس منه خيبة ، فطالما وقف الحكام فى مصر مثل هذا الموقف مع الأهلين ، بل طالما عرف أهل مصر فى حكامهم أكثر من هذا الحرص على إبعادهم عن أمور السياسة والحكم ؛ ولكن ذلك الباشا كان صديقه ، وقد قربت بينهما مواقف الخطر المشترك ، ووقف كل منهما إلى جانب الآخر ينظر إلى الموت أو إلى الانقلاب المؤذن بالهلاك ، فتعاونا وبذل كل منهما أقصى ما عنده من الهمة للتغلب على الأخطار ، حتى فازا بالنصر معاً ، وخرجا من المعمعة صديقين ، قد تكشفت نفس كل منهما للآخر ، وعرف كل منهما ما ينطوى عليه صاحبه من صفات القوة أو الضعف .

ولسنا نشك فى أن كلا من الرجلين كان يحس لصديقه محبة صادقة ، قائمة على التقدير والإكبار ، بل لقد بقى ذلك الحب

كامناً فى نفسيهما رغم الحوادث وتقاب الأمور إلى آخر الحياة ، وسنورد فيما سنذكر بعد أمثلة من دلائل ذلك الحب المقيم .

فليس من العجيب مع هذا أن نرى السيد عمر مكرم ينصرف من مجلس الباشا بعد أن تبين له ما تبين من الصد والرد وهو حائر لا يدرى ما هو صانع . أيقلب لصديقه ظهر المجن ويذهب بمودته إلى أعدائه فينصرهم عليه ؟ أيثير الناس عليه كما أثارهم على من سبقه من حكام مصر ويحاربه بهم كما حارب خورشيد من قبل ؟ إنه لن يستطيع شيئاً من هذا ، وما كان مثله ليفعله ، وهو الزعيم الحريص على مصلحة بلاده قبل كل شيء . فهبه انقلب على صديقه ، وأقبل على أعدائه يساعدهم ، ألم يكن له علم بأساليب حكم هؤلاء الأعداء ؟ وأى حزب آخر كان أجدر بالحكم من الباشا الجديد ؟ أهو حزب المماليك الذين قد رأى منهم الظلم مرة بعد مرة ، وشهد هو وقومه من عسفهم وطغيانهم ما شهد ؟ ذلك الحزب الذى كان يعسف بالناس ما اطمأن إلى السلام ، فإذا ما جد الجد واشتدت الأزمات من غارة الأجنبى تخاذل وولى ولم يغن فى الدفاع شيئاً ، ثم التمس الفرصة التى يتمكن فيها من الاتفاق مع الأجنبى ليعود إلى الطغيان تحت ظله ، مضحياً بالناس والوطن ، لا يفكر

إلا فى مصلحته الخاصـة ؟ إنه ما كان ليفعل ذلك ولو أدى الأمر إلى إقامة حكم مطلق على يد الباشا الجـديد ، فإن حكمه المطلق لم يكن على الأقل حكما ضعيفاً مفسـداً كحكم الطغاة من الأمراء . فلم يكن دونه إلا طريق واحدة يسلـكها وهو مغضب كاره ، وذلك أن يعتزل قليلا عن الحـكم ، وينصرف إلى النصح والوساطة فى مصلحة شـعبه ، إذا حدث ما يدعو إلى النصح أو الوساطة ، مؤملا أن تنفرج الأزمة ، وأن يحاول الحصول على حريات قومه وحقوقهم عن طريق المسالمة والنصيحة .

وكان السيد عمر من جهة أخرى يرى أن موقفه لم يكن على أساس قوى يمكنه من مقاومة الباشا مقاومة فعالة ؛ وذلك أنه كان يلمح فى الزعماء المصريين الذين حوله أمارات الحسـد والمنافسة ، وإن كانت آثارها لم تظهر بعد واضحة ، فكان هناك الشيخ الشرقاوى شيخ العلماء مثلا ، وهو رجل اعتاد أن يكون صاحب وجاهة فى الدول المتعاقبة ، وساءه أن يرى مكانة السيد عمر فى الدولة الجديدة ومحبته فى نفوس الشعب ، فكان ينتظر الفرصة التى تسمح له بإسقاط ذلك المنافس الخطير ، وكان السيد عمر يدرك أن أحب الأشياء إلى الشيخ أن يخذله إذا وقعت العداوة بينه وبين الباشا .

ولم يكن الشيخ الشرقاوى وحيداً فى منافسة السيد عمر والحقد عليه ، بل كانت هناك جماعة أخرى تتربص به الدوائر ، نذكر منهم الشيخ السادات ، والسيد الدواخلى ، والشيخ المهدى ، والشيخ الشامى ؛ وسنرى فيما بعد كيف اتهزوا جميعاً الفرصة لإسقاطه وتخذيله . فلم يجد السيد عمر مع هذه الظروف إلا مسلكا واحدا يسلكه ، وهو أن يدع الأمور تجرى فى مجراها بغير ثورة جديدة .

ولكنه لم يكن ليملك نفسه من أن تحس وقع الصدمة التى أصابته ، ولا أن يتحاشى الجفوة التى خيمت على صفاء نفسه ، فأخذ يقلل من التردد على صديقه الباشا ، و إذا زاره لم يظهر له تلك المودة الصادقة الصافية التى كان يبديها له من قبل فى غير تكلف ولا حذر ، ثم قلت تلك الزيارات تدريجاً ، فلا نكاد نسمع بأنه اجتمع بالباشا إلا لكى يتوسط فى إزالة مظلمة لحقت ببعض الناس ، أو لكى يحضر احتفالا عامًّا ما كان ينبغى لمثله أن يغيب عنه ، ثم زاد الجفاء فأصبح السيد الوقور لا يمتنع عن إبداء السخط على تصرف الباشا على مسمع من الناس ، فكان أحياناً يظهر كراهته لما يحل بالناس من الظلم على أيدى الجنود ، أو يشكو لما يشكون منه من الضرائب والأحمال ، أو ينتقد

ما يراه موضعاً للنقد فى خطط الباشا وأساليب حكمه ؛ وكانت هذه الأقوال بغير شك تنقل إلى الباشا ، ويعمد من لهم منفعة فى إيقاع النفور بينهما ، إلى نقلها مع التهويل والمبالغة والتشويه .

واستمرت هذه الجفوة عامين طويلين ، وأحدثت أثرها فى كل من الرجلين ، فكان كل منهما ينحدر نحو شىء من العداوة بغير أن يفطن إلى ذلك ، وكان لا بد لتلك الحال أن تؤدى إلى القطيعة والعداوة الصريحة عند أول داع إلى الخلاف . ولم يطل الأمد فى انتظار الداعى ، فقد حدثت فى عام ١٨٠٩ حوادث أدت إلى ذلك العداء المحتوم .

كانت البلاد فى أثناء هذين العامين الأخيرين قد انتقلت إلى حال جديدة من الأمن والنظام ، إذ قضى الباشا على كل مخالفة فى البلاد ، بعد أن حطم بقايا الثائرين فى أنحاء الأقاليم ، وأقبل على تنظيم الإدارة و إصلاح المالية ، فانتقل بذلك من مواجهة الأعداء إلى مواجهة الشعب ، و بلغ مفرق الطرق الذى يتقرر فيه المستقبل . فإن البلاد إنما خلصت من بقايا الاضطراب والفوضى ، وكان لا بد لحاكمها أن ينظر فى إصلاح أسس الحكم ، إذا كان يريد أن يقيم حكومة حقيقية ثابتة . وإن كانت الحرب مع الأعداء تكلف نفقة فى المال و بذلا من

الأنفس ، فإن الإصلاح الداخلى معناه تناول كل طبقات الشعب بالنظر والدرس ، وقد يحتاج الأمر إلى معارضة طائفة ذات نفوذ وسطوة ، أو إلى الاصطدام بالعقائد المقررة والنظم القديمة التى طال عهد الناس بها حتى ظنوها جزءاً متمما لحياتهم ، ومثل هذه النظم يكون إصلاحها من أعسر الأمور وأعقدها ؛ فكانت الخطوة الثانية أشد على الباشا من الحرب ، وكان إقدامه عليها أشق وأكثر خطراً .

تحمل الناس فى أول حكم الباشا كثيراً من الأحمال ، وأثقلت كواهلهم بالضرائب ، ولكنهم كانوا يتعللون بأن تلك الأحمال طارئة ما بقيت الحروب ، ويرجون أن تزول مع انقضائها ، فلما رأوا أن الباشا يريد أن ينظمها ليجعلها أساساً جديداً للحكم ، ثقل عليهم أمرها واستبشعوها وثارت نفوسهم عليها ؛ واتفق فى الوقت عينه قيام حرب جديدة بين الدولة العثمانية وبين الوهابيين الثائرين عليها فى بلاد العرب ، ولم تستطع الدولة أن تنتصر على هؤلاء الثوار ، فلجأت إلى الباشا وأمرته أن يستعد لمحاربتهم ، فكان لا مفر له من أن يصدع بالأمر حتى لا يتعرض لسخط الدولة المتبوعة ، ويعرض كل ما بذله فى مصر للضياع . وكان لا بد له كذلك من أن يجد سبيلا إلى المال الذى يساعده

على القيام بإنفاذ هذا الأمر ، فأراد أن ينظم الضرائب ويكسبها صفة الاستمرار والدوام ، ويعلن نظامها للناس ليستعدوا لها ويرتبوا أحوالهم على ما تقتضيه منهم ؛ وكان أكبر ما يخشاه أن يعجز عن تدبير المال ، لأن تجربته دلته على أن العجز المالى كان السبب فى إسقاط كثير من الحكومات السابقة .

وكانت الضرائب فى مصر موزعة توزيعاً غير عادل ، لأن أكبر حملها وأثقله ألقى على كواهل عامة الشعب ، وأعفيت منها طوائف كثيرة من الملاك ، وكان العلماء من هذه الطوائف الممتازة ، إذ كان كثير منهم يتمتع بدخل أراض فسيحة موقوفة ، ويبلغ الثراء ببعضهم مبلغ الأمراء وكبار الأغنياء .

وكان الباشا يرى من أول حكمه أن هذا الامتياز يعترض سبيله فى الإصلاح ، ولكنه آثر التريث فى الأمر ، فلم يقدم على حرمان العلماء من امتيازهم إلا إذا وجد الظروف مناسبة . على أنه كان يشعر من جراء ذلك بضيق شديد لم يملك أن يحبسه فى بعض المناسبات ، فقد حدث مرة أن بدرت من الشيخ الشرقاوى ألفاظ فى أثناء حديث معه يشتم منها أنه ينتقد بعض تصرف الباشا فى سياسته المالية ويصفه بالظلم والجور ، فلم يستطع الباشا أن يحبس عنه ردًّا صريحاً ، فقال له : « إذا

كنت أنا أظلم الناس فأنتم أظلم منى ، لأنى رفعت عن الأرض ما كان قد أضيف عليها من الفرض والمغارم إكراماً لكم ، وأنتم لا تزالون تأخذونها من الفلاحين » .

فلما كلفته الدولة بالتجهز لحرب الوهابيين رأى نفسه مضطرا للدخول فى حرب قد تمتد مدتها إلى سنوات ، وأنه سيحتاج فيها إلى كثير من الأموال ، فلم يستطع إلا أن ينفذ قصده فى الإصلاح سريعاً ؛ وجعل يعد العدة لتنظيم الأوقاف ومحاسبة المنتفعين بها على مقدار منفعتهم منها .

فاجتمع بذلك ألم العامة من الضرائب الثقيلة ، وفزع الخاصة من الخطر الذى يهدد امتيازهم ، واضطربت الأفكار مدة أشهر ، وظهرت علامات ذلك القلق فى أنحاء مختلفة ، وبدا على جو القاهرة ما يدل على توثب النفوس وهياجها .

واتفق فى ذلك الوقت أن ثارت قضية أخرى غير قضية المال ، وذلك أن أحد كبار حفظة الأمن قبض على شخص من أهل العلم بغير تحقيق وسجنه ، ولم يعرف الناس الجريمة التى قبض عليه من أجلها ، فرأوا فى ذلك مساساً بالحرمة الشخصية ، التى طالما حرصوا عليها فى أشد الأوقات اضطراباً وعسفاً ، والتى كتبت للشعب من أجلها وثيقة بيت إبراهيم بك الكبرى .

فاجتمعت آلام العامة وآلام الخاصة ، والمخاوف على المال وعلى الأنفس ، وتلبد الجو واكفهر ، وهبت عاصفة من الاستياء على القاهرة . وإذا كان العامة لا يستطيعون أن يظهروا ما يتألمون منه إلا بالشكوى والتوجع ، فإن الخاصة يستطيعون أكثر من ذلك ، فإنهم يقدرون على أن يجتمعوا ، وأن يحتجوا ، وأن ينتفعوا بثورة العامة فى تعزيز احتجاجهم . فما راع الباشا إلا اجتماع العلماء فى الأزهر يتذاكرون شكواهم ، والعامة من حولهم تضج وتصيح ، وتردد ما نالها من الأذى .

واتجهت أنظار الجميع إلى زعيم الشعب ينتظرون ما هو صانع فى تلك الأزمة ، وهتفوا باسمه ، ولجأوا إليه ليتدخل فى المطالبة بإنصافهم . وتريث السيد عمر فى أول الأمر ، وكان تريثه لأسباب كثيرة ، فقد عرف أن كثيراً من العلماء إنما ثارت ثائرتهم من أجل منافعهم التى كانوا يحرصون عليها ، لا من أجل حقوق العامة أو حرمة أشخاصهم ، وعرف كذلك أنه إذا وقف للباشا وجهاً لوجه لم يكن فى إمكانه الرجوع إلا إذا نزل الباشا على إرادته ، إذ كانت كرامته وسابقة مكانته فى الناس تأبيان عليه أن يتراجع أو أن ينهزم ، وكان على علم بما قد بلغه الباشا من القوة ، وما تنطوى عليه نفسه من الصلابة . وكان

فوق كل هذا عالماً بما فى نفوس كبار العلماء من الحسد له ، وأنهم لن يترددوا فى الكيد له إذا وجدوا لذلك فرصة .

غير أنه لم يلبث أن اضطر لترك هـذا التريث عند ما رأى إلحاح الشعب عليه ومداومة توسله إليه .

ولما عزم على ذلك رأى أن يكشف كل ما أخفاه طوال السنتين الماضيتين ، فجعل يصرح بأشد النقد لسياسة الباشا ومسلكه فى حكم المصريين ، بعد أن كان ينتظر منه أن يرعى حقوقهم وحرياتهم لما كان لهم من الفضل فى إقامة العهد الجديد . فاجتمع مع المجتمعين وهو فى شك من صدق عزيمتهم ، وأخذ عليهم المواثيق لينصرُن الحق ولا يرجعُن إلا بعد أن ينزل الباشا على إرادتهم ؛ ثم جعلهم يكتبون وثيقة ضمنوها ما يشكون منه ، وأرسلها إلى الباشا مع رئيس الديوان . وكانت حماسة المجتمعين تحمل على الظن أنهم لن ينكصوا ولن يترددوا .

لم يكن للباشا عهد بأن يجتمع العلماء والأعيان على عداوته مثل هذا الاجتماع ، وكان يعلم أن السيد عمر قد انحرف عنه ، ولكنه مع ذلك كان لا يظنه يواجهه بالعداء مواجهة صريحة ، فلما رآه يسير فى الطليعة والجمهور من ورائه عرف أن الأمر جد خطير ، وأنه مقبل على نضال عنيف .

وأراد أن يزيل أسباب الشكوى بالملاينة والمفاوضة ، قبل أن يتحرج الأمر ، ويخرج من نطاق المسالمة ، وأراد أن يقابل الزعماء ويعرض عليهم استعداده لإرضائهم ، فأرسل إليهم يرجوهم فى الحضور إليه لبحث الأمر والتشاور فيما ينبغى تقريره . ثم عمل على بث دعوته بينهم واستمالة من استطاع استمالته منهم ، حتى تزعزعت الوحدة ، واختلفت الآراء ، فقبل بعض الزعماء أن يذهبوا إليه ، وجعلوا يلومون من يتشدد ويرفض دعوة الباشا للمشاورة .

ولكن السيد عمر رفض أن يذهب ليفاوض فى تفصيل الشكوى ، قبل أن يعلن الباشا الأساس الذى يفاوضهم عليه ، وكان رأيه أن الخلاف قائم على مبدإ لا يقبل جدلا ولا مناقشة ، فإن الباشا لا يصح له أن يغير ويبدل فى نظم الحكم ، ولا أن يفرض ما يشاء من الضرائب ، ولا أن يحكم الناس بغير قانونهم وعاداتهم وما كسبوه من قبل من ضمانات لحرماتهم ؛ وهذا المبدأ لا يحتمل المناقشة ولا المفاوضة ، بل الواجب أن يبدأ الباشا بالتسليم به بلا قيد ولا شرط . ثم جعل يلوم الذين كانوا البادئين بالدعوة إلى الشكوى ، وأصبحوا البادئين بالنكوص على أعقابهم ، وأعلن أنه لن يرجع عما بدأ فيه ولو تركوه وحيداً .

فذهب الشيخ المهدى والسيد الدواخلى وحدهما للقاء الباشا ، وكانت مقابلته لهما آية تدل على ما اتصف به من السياسة و بعد النظر ، فإنه بدأ بالاعتذار لهما عما كان منه ، وجعل يبين لهما حسن قصده وصدق نيته فى الإصلاح ، وشدة رغبته فى المسالمة ، وقال لهما فيما قال : « إننى لا أرد لكما شفاعة ولا أقصد شرا ، فإذا رأيتم منى انحرافاً فإن واجبكم نصحى وتسديدى » . ثم جعل ينتقد موقف السيد عمر لأنه بدأ بالعداوة بعد الصداقة ، وتشدد فى رفض المفاوضة معه قبل أن يتبين مقصده ؛ ثم بين لهما أن الزعماء لم يفهموا قصده ، وأن الذى بلغهم مبالغ فيه ، وأنه مستعد للنزول عن كثير من خططه مراعاة لهم و إكراماً لرغبتهم. فما انفض ذلك المجلس حتى كان الشيخان ينتقدان السيد عمر ، و يتناولانه بأشد ألفاظ الطعن وأقساها ، حتى قالا فى حديثهما عنه : « ما هو إلا صاحب حرفة أو جابى وقف يجمع الإيراد و يصرفه على المستحقين ، وليس له قدر إلا بمؤازرتنا ، فإذا نحن تخلينا عنه لم يكن له بعد انصرافنا قدر ولا خطر » . فكانت تلك المقابلة الأولى بدء انتصار الباشا ، أو هى أكبر خطوة فى سبيل انتصاره ؛ إذ استطاع التفريق بين الزعماء ، وعرف كيف يستفيد مما فى أنفسهم من الحسد له .

ومن ذلك الحين تمكن الباشا من أن يفصل بين السيد عمر و بين سائر العلماء والزعماء ، وأمكنه بعد ذلك أن يستميلهم فرداً فرداً و يخلو للوقوف أمامه وحده فى معركة فاصلة ليستطيع بعدها أن يجمع كل أزمة البلاد فى يديه بغير منازع .

ولا بد من الوقوف هنا لنقول كلمتين عن هذين الرجلين اللذين كان على أيديهما تحول كبير مثل هـذا فى تاريخ مصر ، فإن مقابلتهما للباشا ، وموقفهما من السيد عمر ، وتخليهما عن الحركة فى إبانها ، كانت أكبر العوامل على نجاح الباشا فى إبعاد المصريين عن حق إبداء الرأى فى حكم البلاد .

الشيخ المهدى من أسرة قاهرية ، وكان أبوه من الكتاب الحاسبين اسمه فضل الله (أبيفانوس) ، وكان ميلاده حوالى ١٧٣٧ فلما بلغ الثالثة عشرة أسلم ودخل الأزهر ، وما زال به حتى أتقن العلوم الإسلامية وتتلمذ للشيخ الحفناوى الكبير ، وكان ينتسب إليه ، ثم لازم كبار المشايخ كالشيخ الدردير حتى صار من العلماء الذين يوثق بهم ، فتصدر للتدريس بالأزهر حوالى سنة ١١٩٠ (١٧٧٦ للميلاد) ، وكان مع ذلك كثير الاتصال بأهل الدولة ولا سيما منذ أيام القبطان حسن باشا الجزائرلى ، فاستفاد من ذلك فوائد جليلة ، واشتغل بالتجارة





الشيخ المهدى

وأخذ نصيباً كبيراً من الالتزام على عادة العصر ، فكان يلتزم بتحصيل الضرائب فى بعض جهات الريف ، ويحصل من وراء ذلك على فوائد مالية كبرى . ولما جاء الفرنسيون إلى مصر كان من أكثر المصريين إقبالا عليهم ، ونشأت بينه وبين كثير منهم صداقة متينة ، وحكى بعضهم عنه حكايات نذكر بعضها على سبيل التمثيل : حكى المسيو مارسل العالم الذى صحب الحملة الفرنسية أنه كان يكثر من زيارته ، ويصفه بأنه عميق الفكر حسن الفكاهة طيب القلب ، ولكنه ذكر عنه أنه كان كثيراً ما يشاركه شرب الخمر ؛ وأراد المسيو مارسل أن يداعبه مرة فقال له : « إن الدين الإسلامى يحرم شرب الخمر » ، فجعل يناقشه فى ذلك التحريم وحكمته ، حتى انتهى معه إلى أن علة التحريم هى الإسكار ، فقال الشيخ : « ولكن هذا لا يسكرنى » وأشار إلى الخمر ثم قال : « فهات زجاجة أخرى ياصاح » . وحكى عنه كذلك أن القائد الفرنسى أولم للعلماء وليمة فى الأزبكية عقب ثورة القاهرة الأولى . ولكن الذين أعدوا الوليمة أخطأوا فجعلوا أمام كل شيخ زجاجة مملوءة بالنبيذ الأبيض ، ففطن أحدهم إلى ذلك وظن الأمر مبيتاً ، وأن الفرنسيين قد عمدوا إلى ذلك سخرية منهم وانتقاماً مما سبق من عداوتهم فى أثناء الثورة ؛

وانزعج سائر العلماء وتحفزوا للقيام غاضبين ، فبادر الشيخ المهدى وجعل يبين لهم أن ذلك الذى أعد لهم إنما هو من عصير الفاكهة وليس من الخمر ، ثم قال : « ونحن لا نعرف ما هو والإثم ليس علينا » ، ثم شرب كأسه ، فلم يجد سائر العلماء بأساً من اتباعه فى ذلك ، وهدأت عاصفة الغضب بينهم .

وقد تخلف عن هذا العالم الفرنسى كتاب زعم أنه أخذه من الشيخ المهدى وترجمه من العربية إلى الفرنسية ، وهو مجموعة قصص فى ثلاثة أجزاء يعتقد أن مؤلفها هو الشيخ المهدى نفسه .

ومهما يكن من الأمر فالثابت من كل الأخبار سواء فى ذلك المصادر المصرية والمصادر الفرنسية أن الشيخ المهدى كان فى مدة إقامة الفرنسيين فى مصر أكثر المصريين تقرباً إليهم ، وأعظمهم نفوذاً عندهم ، وكثيراً ما أفاد أفراداً من المصريين بوساطته وشفاعته . فلما خرج الفرنسيون من مصر ، وعادت دولة الترك ، أصبح من كبار المتقربين إلى الدولة الجديدة ؛ وما زال يتقلب فى الصدارة مع الدول المتعاقبة ، حتى حدثت الحادثة الأخيرة التى نحن بصددها ، وكان عند ذلك قد بلغ منزلة أكبر الأعيان الأغنياء فى الجاه والسطوة . ولكنه كان يتهم بالتبذل فى أسلوب حياته ، حتى قال فيه المؤرخ الصادق

الذى ترجم له وهو صاحب عجائب الآثار : « وكان (الشيخ المهدى) على ماله من الغنى مفقود اللذة عديم الراحة البدنية والنفسية . . . . يتغدى بالجبن أو الفسيخ أو البطارخ ، ويبيت بأى مكان ولو على نخ أو حصير ، فى أى محل كان...الخ الخ » .

وأما الشيخ الدواخلى ، فقد نشأ نشأة مضطربة عجيبة ، بدأ حياته على عادة العصر بالتعلم فى الأزهر ، ثم لازم كبار العلماء ، واختص بالشيخ الشرقاوى إلى أن تأهل للتدريس ، ولما جاء الفرنسيون لم يظهر لهم عداوة ، بل أقبل عليهم وأقبلوا عليه ، ولا سيما عند ما صار شيخه الشرقاوى رئيساً للديوان ، فانتفع من وراء ذلك انتفاعاً كثيراً ، ثم أصاب ثروة طائلة على غير انتظار ، وذلك عند ما قتل عديله الحاج مصطفى البشتيلى الذى قاد الثورة فى بولاق ضد الفرنسيين ، فلما قتله الفرنسيون عقاباً على تلك الثورة لم يكن له وارث ، فاستولى الشيخ الدواخلى على ثروته بما كان له من نفوذ عند ذلك . ولكنه فى الأيام الأخيرة من حكم الفرنسيين قام بعمل مهد له سبيل الشهرة والسطوة فيما بعد ، وذلك أنه جعل يتجسس على الفرنسيين ويتتبع أخبارهم ويرسلها إلى السيد أحمد المحروق الذى كان مهاجراً مع السيد عمر مكرم وملازماً للجيش التركى فى الشام . فلما خرج الفرنسيون من

مصر وعاد الجيش التركى إليها ، قدمه السيد أحمد المحروقى إلى القائد المنتصر يوسف باشا ، وأعلى من ذكره عند أهل الدولة ، فما زال منذ ذلك الحين من الظاهرين فى الحركات السياسية ، والمتدخلين مع رجال الدولة ، والطامعين فى مكان الصدارة ، إلى أن حدثت الحوادث التى نحن بصددها .

فلما ذهب الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى إلى مقابلة الباشا كانا يخفيان فى نفسيهما موجدة وأطماعا ، وكانا يبيتان فى صدريهما وقيعة بذلك الرجل الشهم النبيل ، الذى كان ذنبه عندهما أنه يتربع على مكان الصدر الذى يتطلعان إليه .

واستمرت المفاوضة والمراسلة بين الباشا والزعماء بعد ذلك مدة أسابيع ستة ، وظل السيد عمر على رأيه الأول رافضاً أن يذهب للمفاوضة فى أمر يرى أن الباشا لا حق له فيه ، وأصر على أن يعدل الباشا أولا عن موقفه ، ويعلن ألا حق له فى تغيير نظام الضرائب بإرادته .

ولعله تجاوز حدود الاعتدال فى أثناء أحاديثه ، فكان يلمح أحياناً ويصرح أحياناً أخرى باستعداده للدفاع عن حقوق الناس بالقوة ، ولو أدى ذلك إلى ثورة عامة ، يعود فيها شعب مصر إلى حماية حقوقه بقوة ساعديه . وكانت حجته فى تشدده

وتشبثه برأيه أن مصلحة البلاد تتطلب وضع مبدإ ثابت وحد فاصل بين ما يجب للدولة من الحقوق وما يجب عليها من الحدود ، فكان دائماً يشير إلى أن الباشا قد لجأ إلى فرض الضرائب الثقيلة معتذراً بأن الضرورة القصوى تدفعه إلى ذلك دفعاً ، وكان يعد فى كل حالة من هذه الحالات بأن يعدل عن تلك الخطة إذا زالت الضرورة التى دعت إليها ، وأكد مواعيده هذه بالأقسام والأيمان المؤكدة ، فإذا كان قد عاد إلى السنة التى وعد بالعدول عنها فإن الأمر أصبح أمر مبدإ لا يحتمل مفاوضة ، لأن المفاوضة إنما تكون على مقادير ما يجبى وما يترك ، ولم يكن المطلوب عند ذلك تحديد مقدار الضرائب ، بل تعيين مدى الحق الذى يخول للحاكم فى فرضها وجبايتها .

والتمس الباشا كل وسيلة لحمل السيد عمر على التزحزح عن رأيه ، تارة بالرجاء وأخرى بالوعد ، ومرة بالملاينة ومرة بالبذل ، حتى قيل إنه عرض عليه مرة أن يرتب له فى كل يوم كيساً (قدره أربعون جنيهاً) ، وأن يهديه مبلغاً قدره ثلثمائة كيس عطاء معجلا ، فلم يرض من ذلك كله بشىء إلا أن يعدل الباشا عن خطته ، وأن يتنازل عن السنة التى سنها فى جباية الضرائب وفرضها بحسب مشيئته .

ووجد الباشا فى أثناء هذه المفاوضات تشجيعاً عظيما على الإيقاع بالسيد عمر من قبل منافسيه ، الذين أقنعهم عدول الباشا عن حرمانهم مما يتمتعون به من دخل أرض الأوقاف الخيرية ، فجعلوا يساعدونه بكل ما استطاعوا ، ويحاولون إساءة سمعة السيد عمر عند الناس باختلاق المطاعن عليه والمبالغة فى اتهامه وتجريحه ، وكان أكبر القائمين بهذا المسعى هم الشيخ السادات ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ المهدى ، والشيخ الدواخلى .

ولكن الباشا أبقى الأمر معلقاً ، ولم يسلك مع السيد عمر مسلكا قاطعاً مدة أسابيع طويلة ، إلى أن حدث حادث جديد أيقظ الحفيظة من رقدتها ، وأثار المشكلة بعد أن كادت تنسى .

أعد محمد على باشا حساباً ليرسله إلى الدولة العثمانية يشتمل على وجوه صرف ، تثبت أنه صرف مبالغ معينة جباها من البلاد ، بناء على أوامر قديمة منذ كان يوسف باشا الصدر الأعظم بمصر ، وأراد أن يعزز برهانه على صدق حسابه ، فطلب من زعماء المصريين أن يكتبوا أسماءهم على ذلك الحساب ، شهادة منهم بصرف تلك الأموال فى وجوهها ، وطلب من السيد عمر مكرم أن يكتب اسمه مع سائر الزعماء ، فأبى ذلك قائلا إن الضرائب المعتادة كانت تكفى لكل ما قام به الباشا من الأعمال

العامة ، وأنه لا يستطيع أن يشهد بغير ما يعتقد أنه حق .
فتألم الباشا أشد الألم لهذا ، ورأى أن السيد عمر قد خرج من وقفته الأولى ، التى كان فيها يدافع عن حقوق الناس ، إلى وقفة ثانية ، لا يقصد منها إلا قصداً واحداً ، وهو تعريض سمعته للسوء ، وإظهاره عند الدولة المتبوعة بمظهر لا يليق بالحاكم المأمون . وعلى هذا أخذ الأمر يتحول من خلاف على أمور عامة تتعلق بحقوق المصريين ، إلى خلاف على أمر خاص يمس شخصه وشرفه .

فعزم على أن يتخذ خطة فاصلة ، حتى لا يتطاول الخلاف بعد ذلك ، ويداخله التخليط والتعقيد ، فأرسل إلى السيد عمر رسالة أخيرة يطلب فيها منه أن يحضر لمقابلته فى الديوان . فأجاب السيد عمر قائلا إن الباشا إذا أراد مقابلته فلينزل هو من القلعة إلى بيت السادات ليلقاه هناك ، لتكون المقابلة على سواء . فكان فى هذا الجواب ما عده الباشا إهانة جديدة مست شخصه .
ولكنه مع ذلك كظم غيظه ولم يظهر ألمه ، ونزل إلى بيت ابنه إبراهيم بك فى المدينة ، وطلب الزعماء للذهاب إليه هناك . واجتمع الجمع إلا السيد عمر فإنه اعتذر بالمرض ولم يذهب .
وكان هذا آخر ما استطاعه الباشا من الاحتمال ، فعزم على

الضربة الفاصلة . فأعلن فى الجمع الحافل خلع السيد عمر عن نقابة الأشراف ، وأقام مكانه فيها الشيخ السادات ، وأمر بنفيه من القاهرة إلى دمياط ، بعد أن أشهد الجمع أنه قد بذل كل جهده فى سبيل الوفاق والسلام . وكأنا به قد أيقن قبل أن يقدم على هذه الخطوة الجريئة ، أن الزعماء كانوا جميعاً راضين عنه ، وأنهم كانوا يرون تلك الضربة عقاباً عادلا .

وكان هذا الحادث الجلل فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٢٢٤ ﻫ وهو يوافق العاشر من أغسطس سنة ١٨٠٩ للميلاد . ولعلنا لم ننس أن هذا الشهر (أغسطس) قد شهد خروج خورشيد باشا من القاهرة على أثر انهزامه — أمام شعب مصر — وكان السيد عمر عند ذلك هو زعيم ذلك الشعب المنتصر ، وأعلى المصريين إسماً ونفوذاً .

وإنه لمن عجائب الاتفاق أن يسافر السيد عمر من بولاق إلى منفاه فى يوم الأحد ١٣ أغسطس سنة ١٨٠٩ . على حين كان سفر خورشيد باشا من بولاق قبل ذلك بأربع سنوات فى يوم الأحد ١١ أغسطس سنة ١٨٠٥ .

وليس ثمة من شك فى أن محمد على باشا كان يعرف ما يجول فى نفوس الزعماء الذين ساعدوه على الإيقاع بالسيد عمر ،

فإنه كان خبيراً بالناس ، عالماً بما تنطوى عليه جوانحهم ؛ وطالما خبرهم فى مجالسه ، وسبر أغوارهم فى أحاديثه ، وأيقن أنهم إن كانوا تحركوا فى أول الأمر عليه ، وحاولوا إثارة الناس ضده ، فإنهم إنما فعلوا ذلك دفاعاً عن أموالهم وأسباب أرزاقهم ، ولم يكن منهم أحد يتحرك لفكرة العدالة والمصلحة ، إلا ذلك الرجل الأوحد الذى لم يتحرك إلا بعد أن أهابوا به وهزوا أريحيته وحركوا حميته . فلما أن تم له التخلص منه علم أن الآخرين لن يكلفوه مشقة ، ولن يعانى فى إسكاتهم نصباً ، فإنهم إنما يطلبون امتيازاً لأنفسهم ، وهو يستطيع أن يميزهم حيناً حتى تهدأ الأمور وتستقر ؛ فإذا ما هدأت الحال لم يتعذر عليه إنفاذ ما شاء فيهم ، غير خاش منهم شيئاً .

واشترك هؤلاء الزعماء فى اقتسام الغنائم بعد الإيقاع بزميلهم النبيل ، ولعلنا لا نكون سابحين فى الخيال إذا تصورنا الباشا البعيد الغور ، وهو يبتسم لهم إذ يعطيهم ما يشاؤون وينفذ لهم ما يريدون ، وهو فى قرارة نفسه يسخر من بخس أثمانهم وهوان أقدارهم ، إذا قاسهم بالرجل الذى نفاه وقلبه مفعم بتقديره وإجلاله .

وكان نفى السيد عمر بدء الخطوة الثانية التى أكملت للباشا سيره نحو حكم البلاد منفرداً ، وإبعاد الشعب عن التدخل فى

إدارة الشؤون العامة ؛ فإنه بدأ أولا منذ عامين بصد الشعب عن أن يقوم بنصيبه من الدفاع عن بلاده ، إذا دعا الداعى ، قيام الحر المتصرف فى شؤون نفسه ، وها هو قد أتم ما بدأ فيه منذ ذلك الحين ، بأن أبعد المعارض الذى كان يريد أن يجعل للشعب حقا فى مناقشة مدى سلطته فى فرض الأموال وصرفها ؛ فأصبح بعد ذلك قابضاً على السيف والخزانة معاً ، وصار السيد المطلق فى البلاد ، المتصرف فى كل شؤونها فى السلم والحرب .

السيد عمر فى المنفى

أبلغ السيد عمر أمر النفى والعزل ، فتلقاه بهدوء يشبه أن يكون فرحا وترحيباً ، وقال عند ذلك : « أما منصب النقابة فإنى راغب عنه وزاهد فيه ، وليس فيه إلا التعب . وأما النفى فهو غاية مطلوبى لأرتاح من هذه الورطة . ولكننى أريد أن أكون فى بلدة لا تدين لحكم (الباشا) ، إذا لم يأذن لى بالذهاب إلى أسيوط ؛ فاما أن يرسلنى إلى (الطور) أو إلى (ورنة) » .

ولنا أن نفهم من هذه الكلمات ما كان يجول فى نفس الرجل من الخواطر ، وما كان قد استقر فى قلبه من العقيدة . فلقد رأى أنه كان المعين الأول على قيام دولة أمل الناس فيها آمالا كثيرة ، وأمل هو فيها آمالا لا حصر لها . وكان يرى أن الحكم الجديد سيكون حكم أهل مصر ، يحقق لهم تلك الأحلام التى ما فتئت تغشى الأذهان منذ أواخر القرن الثامن عشر . ثم رأى أن الدولة الجديدة ، التى علق عليها كل تلك الآمال ، تقف ناظرة إلى الميدان المخرب الذى شهد مواقع انتصارها ، ولا تستطيع شيئا غير سلوك الوسائل التى اعتاد شعب مصر أن يكرهها ويثور عليها . ومرت

عليه أعوام ، وهو يحاول الاعتذار عن الدولة التى ساعد على قيامها ، مؤملا أن يأتى يوم تتمكن فيه من الإصلاح ، وتستطيع بعده أن تستقر على حكم شعبى ، ترعى فيه للناس حرماتهم ، وتطمئن فيه حرياتهم . ولكنه كان كلما أمل حلول ذلك اليوم وجده لا يزال بعيداً ، كما كان دائماً ، فأحس بعد حين أنه قد « تورط » ، وأنه لا يجد دونه سبيلا واضحاً . ولو كان السبيل الواضح أمامه هو سبيل الثورة ، لما تردد فى الدعوة إليها وخوض غمارها ، وهو رجل الثورات العنيفة ، ولكنه كان يعلم علم اليقين أن الدولة الجديدة مضطرة إلى أن تلجأ إلى ما يكرهه الشعب ، لكى تتوصل إلى إقامة البناء المادى الذى لا تقوم دولة إلا عليه . فلم يجد لنفسه منفذاً يخرجه من التورط الذى هو فيه ، إلا بأن يضحى نفسه ويستهدف للنفى ، حتى يجد لنفسه عذراً فى أن يصمت ويسكن . وإن الناظر فى أحوال تلك الأيام ليجد نفسه حيال سؤال ليس من الهين الإجابة عنه : فأيهما أولى بالحرص وأجدر بالتقديم ، أهو النظر إلى الناس وحقوقهم ، والترفق فى حكمهم ، واحترام إنسانيتهم ، والاحتفاظ بمشاركتهم فى الرأى فيما يمس حياتهم وأموالهم ، أم هو تعمير البلاد ، وتنظيم أساليب الحكم ، وتوطيد الأمن والاستقرار ؟ ولسنا نتعرض لهذا التساؤل

بالانتصار إلى جانب من هذين الجانبين ، فإنما نقصد أن نبين أن السيد عمر كان يرى الموقف من ناحيتيه ، لأنه كان فى الوقت نفسه زعيما للشعب وشريكا فى الحكم ، ومن ثم كان شعوره بالحيرة طبيعيا ، لا نرى معه عجباً فى ارتياحه إلى نبأ النفى ، عند ما حمله إليه زملاؤه .

ولا بد لنا هنا من ذكر مواساة الباشا لصديقه القديم فى هذا الظرف ، فإنه لم ينس سابق فضله وصداقته ، وما كان له من فضيلة معروفة ، فلم يضن عليه بشىء مما يخفف عنه ألم الصدمة وذل النكبة ، فإنه ما كان يريد نفى الصديق ، ولكنه أراد إبعاد الثائر . فلما استأذنه السيد المحروقى فى أن يكون وكيلا عنه ويقوم بالنظر فى حاجات أسرته ، لم يتردد فى إجابته إلى ذلك قائلا : « هو آمن من كل شىء ، وأنا لم أزل أراعى خاطره ولا أفوته » ، ثم أرسل إلى حفيده وغمره بالعطف والتكريم ، تخفيفاً عن أسرته وتعزية لهم فى نكبتهم .

وكانت مواساته هذه مواساة كريمة بالغة ، حتى حسب الناس أنها دليل على رجوع الباشا عن عزمه فى نفى صديقه ، فطارت الإشاعات أنه قد رضى عنه ، واستبشر أهله بذلك ، وتوقعوا العدول عن إبعاد شيخهم ، ولم يفطنوا إلى أن الباشا

الكبير إنما قصد أن يكرم صديقه القديم فى سقطته ، وأن يواسى أهله فى وقع الصدمة عليهم ، ولم يقصد أن يتردد فى سياسته ، أو يتشكك فى مقصده ، فإنه إنما عزم على أن يبعد الثائر الخطير عن طريقه الذى رسمه بعد تفكير وتدبير .

واجتمع الناس من زعماء وعامة فى الثالث عشر من أغسطس سنة ١٨٠٩ ليودعوا زميلهم وزعيمهم ، ولم يملكوا جميعاً دموعهم حزناً على فراقه وتقلب الأيام عليه ؛ وسارت السفينة فى ذلك اليوم من بولاق تحمله إلى دمياط ، إذ أصر الباشا على نفيه إليها .

ولنعد الآن إلى ذكر سائر قصة السيد عمر ، وفى النفس غصة وفى القلب حسرة . فقد بادر الشيخ المهدى بالمطالبة بثمن خيانته لزميله ، فذهب فى اليوم التالى إلى الباشا يطلب منه جزاءه ، فحقق له الباشا ما أراد وجعله ناظراً على أوقاف الإمام الشافعى ووقف سنان باشا ، وأعطاه هدية مالية قدرها خمسة وعشرون كيساً (أى نحو ألف جنيه) . وأما الشيخ السادات فقد اكتفى بعودة نقابة الأشراف إلى أسرته ، وكان فى نفسه ما فيها من انتقالها إلى السيد عمر منذ أيام إبراهيم ومراد ، وكان لا يزال يتطلع إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يظفر بها ، وينزعها من منافسه القوى ، حتى أتيحت له الفرصة فى تلك



الشيخ عبد الله الشرقاوى

النكبة التى كان هو أحد الساعين إلى إيقاعها به . وأما الدواخلى فقد اكتفى بالتقرب والحظوة ، وما يتبع ذلك من النفوذ والصولة فى البلاد ، ولما مات الشيخ السادات خلع عليه الباشا نقابة الأشراف ، تقديراً لما سبق له من السعى فى المساعدة على إسقاط الثائر الخطير السيد عمر .

واجتمع أكابر العلماء والزعماء يتبعون رئيسهم الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى ، فكتبوا شهادة ليرسلوها إلى الدولة العثمانية تبريراً لوقعة الباشا بالسيد عمر ، وأثبتوا فيها ما شاءت لهم نفوسهم من التهم ، فنعتوه فيها بما يعلمون أنه برىء منه ، فقالوا فيه : إنه أدخل فى سجل الأشراف أسماء أشخاص ممن أسلموا من المسيحيين واليهود ، وإنه أخذ من الألفى فيما مضى مبلغاً من المال ليساعده على تملك مصر ، وإنه كاتب الأمراء ليدخلوا القاهرة يوم وفاء النيل . (وقد سبق وصف تلك الحوادث وما كان للسيد عمر من الجهاد الخالص والبلاء الحسن فيها) .

ولكننا لا نملك أنفسنا من أن نحس شيئاً كثيراً من الغبطة ، إذ نعرف أن جمهور العلماء لم يرض عن أفعال كبارهم ، وأن واحداً من الكبار ، على الأقل ، قد أنكر فعل زملائه ، ولم يرض بالاشتراك فيه ، فإن مفتى الحنفية ، واسمه الشيخ أحمد

الطهطاوى ، أبى أن يضع اسمه على تلك الشهادة ، معلناً أنه لن يناصر الباطل ، ولو كلفه ذلك تحمل البلاء ، ولم يكذب ظن ذلك الرجل النبيل ، فقد عزله الأشياخ المؤتمرون عن وظيفة الإفتاء ، فبادر بأن طوى الخلع التى خلعوها عليه عند تقليده الوظيفة ، وأرسلها إليهم فى صمت وكبرياء .

وقضى السيد عمر فى منفاه بدمياط إلى ربيع سنة ١٨١٢ ، ثم نقل إلى طنطا فى أواسط شهر أبريل ، وكان فى هذه المدة كثير الضجر والضيق ، إذ كان لا يباح له الاختلاط بالناس ، وكان الحراس يلازمونه حيث سار ، فكان أشبه شىء بالسجين لما قيدت به حريته ، وكان يحاول أن يخفف من ضجره بأن يخلق لنفسه عملا يقبل عليه ، فلم يجد إلا أن ينتقل بين حين وآخر إلى شاطئ البحر يغرق أفكاره المضطربة فى أمواجه الصاخبة ، ثم رأى أن يبنى خاناً هناك لنزول التجار الذين كانوا يقصدون دمياط من سائر البلاد فى سفنهم ، وكأنما بذلك الرجل لا ينشغل قلبه بما هو فيه من ضيق عن التفكير فى الترفيه عن الناس والتخفيف من آلامهم .

وكان الباشا قد فرغ فى أثناء هذه السنوات الثلاث من كثير مما كان يملأ قلبه هما ، إذ خلا القطر من منافسيه بعد

انتصارات يتلو بعضها بعضاً ، وخلص له الملك بعد إيقاعه بأمراء المماليك فى مذبحة القلعة سنة ١٨١١ على ما هو معروف ، وأرسل حملة إلى بلاد العرب لإخضاع الوهابيين ، طاعة لأمر الدولة العثمانية ، بعد أن عجزت تلك الدولة عن إخضاعهم ، واستقر أساس الدولة المصرية فى داخلها على أساس متين ، بعد أن أخذ فى إصلاح ماليتها وإدارتها ، وتحسين موارد ثروتها ، ولهذا لم يجد بأساً فى أن يبيح لصديقه القديم من الحرية ما كان يحظر عليه ، ولهذا كان مقام السيد عمر فى طنطا أرفق به وأروح .

وأغلب الظن أن الباشا لم يكن ليمتنع عن الإفراج عنه فى ذلك الحين لو وجد منه ميلا إلى الخضوع ، أو لو سمع منه كلمة رجاء . ولكن السيد عمر لم يرض أن يطلب عفوا ، وتكبر أن يشكو ألماً أو ضيقاً مع كبر سنه وحاجته إلى الراحة والدعة ؛ وبقى فى طنطا نحو خمس سنوات أخرى ، وكانت عودته إلى القاهرة راجعة إلى مجاملة مهدت السبيل إلى إرجاعه من منفاه ، بغير طلب ولا رجاء ؛ فإن حرب الوهابيين كانت فى هذه السنوات قد انجلت عن انتصار بعد انتصار ، بقيادة القائد العظيم إبراهيم باشا ابن محمد على باشا ، إلى أن دخلت جنود مصر إلى الدرعية عاصمة آل السعود ، ورأى السيد عمر فى ذلك الانتصار مجدا

لبلاده لا ينبغى أن يفوته إظهار الفرح به ، فأرسل مع حفيده رسالة إلى صديقه القديم يهنئه فيها على ما أصاب من توفيق ، وكأننا به قد غفر له ما كان منه من الانفراد بالحكم والتشدد فى جباية الأموال ، لما رأى من توجيهه لتلك الأموال إلى وجوه المصلحة والمجد ، فما كان يمر به عام وهو فى منفاه بغير أن يشهد لصديقه القديم إصلاحا فى ناحية من النواحى ، حتى شمل إصلاحه نظام الإدارة وموارد الثروة المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية ، ورآه مع كل ذلك قد استطاع أن يرسل جيشاً إلى بلاد العرب ، فحارب شجعانها حتى دخل عاصمة ملكهم ، والبلاد لا تتزعزع ، ولا يثور فيها اضطراب ، ولا تحس أزمة ؛ فلا عجب إذا هزه إعجابه بمقدرة صديقه القديم ، وحركه شعوره بالفرح ، لما لقيت مصر من المجد على يديه ، إلى هذه التهنئة الكريمة الصريحة .

ولما بلغت تلك الرسالة الباشا ، اهتز لها وطرب ، وأقبل على حفيد صديقه يسأله عن جده وعن أحواله ، وأعاد عليه المسألة لعل له رغبة يحققها له . وأجاب ذلك الحفيد بأن جده إنما أرسل رسالته مهنئاً ، ولم يحمله بعد ذلك طلباً ولا رجاء .

فأرسل الباشا إليه أحد أتباعه يسأله فى خلوة عما إذا كان لجده مطلب يود تحقيقه ، فأجاب الحفيد بعد تمنع وتردد أنه

لا يرغب شيئا إلا أن تكون أمنية قديمة أن يذهب إلى الحجاز ليقضى الفريضة ؛ فأسرع الباشا عند ما علم بذلك إلى الإذن له بأن يعود إلى القاهرة ، ريثما يحل موعد الحج فيتخذ له أى طريق شاء فى البر أو البحر ، ثم قال : « إننى لم أتركه فى الغربة طول تلك المدة إلا خوفاً من الفتنة ، ولم يبق الآن ما يخيفنى من الفتنة ، فليعد إلى مقره ووطنه فإنه أبى ، وليس بينى وبينه إلا ما لا أستطيع أن أنساه من المحبة » . ثم أرسل إليه خطاباً ينم عما كان لا يزال له فى نفسه من التقدير ، وإنا ننقله هنا لما له من دلالة وهو :

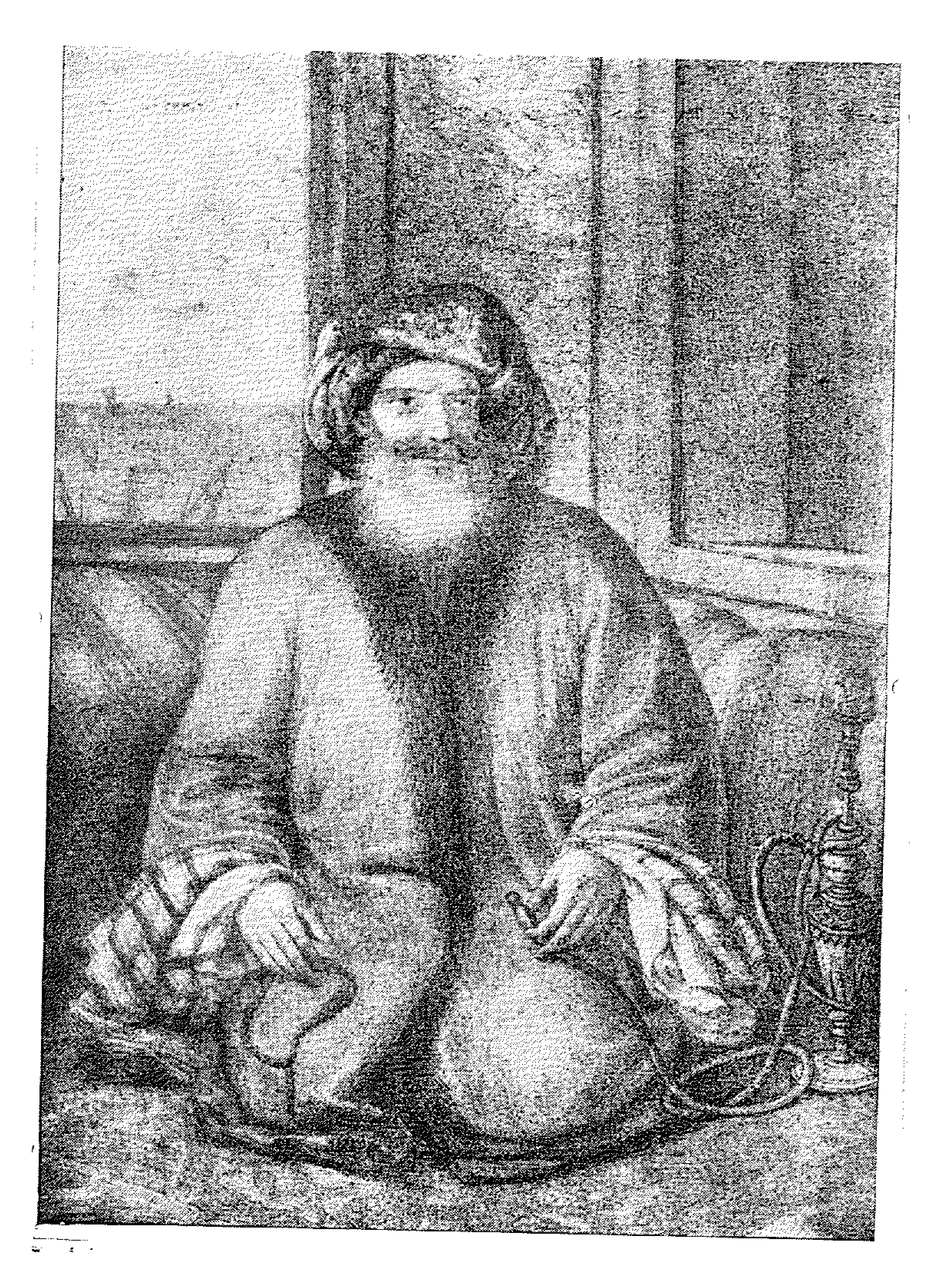
« إلى مطهر الشمائل سنيها ، حميد الشؤون وسميها ، سلالة بيت المجد الأكرم ، والدنا السيد عمر مكرم ، دام شأنه ؛ أما بعد ، فقد ورد الكتاب اللطيف من الجناب الشريف ، تهنئة بما أنعم الله علينا ، وفرحاً بمواهب تأييده لدينا ، فكان ذلك مزيداً فى السرور ، ومستدعياً لحمد الشكور ، ومجلبة لثناكم ، وإعلاناً لنيل مناكم ، جزيتم حسن الثنا ، مع كمال الوقار ونيل المنى . هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الإذن فى الحج إلى البيت الحرام ، وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام ، للرغبة فى ذلك ، والترجى لما هنالك ، وقد أذناكم فى هذا المرام ، تقرباً لذى الجلال

والإكرام ، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام ، فلا تدَعوا الابتهال ، ولا الدعاء لنا بالقال والحال ، كما هو الظن في الطاهرين ، والمأمول من الأصفياء المقبولين ، والواصل لكم جواب منا خطاباً إلى كتخدائنا ، ولكم الإجلال والاحترام مع جزيل الثناء والسلام . »

وعاد السيد عمر إلى القاهرة فى التاسع من شهر يناير سنة ١٨١٩ ، وارتجت القاهرة لتلقيه والترحيب به ، إذ خرج عامة الشعب إلى بولاق ليظهروا له قديم ولائهم ومحبتهم ، وقصده الأدباء والشعراء للتهنئة ، وإبداء ما يجيش فى صدور الناس من العطف عليه والأنس به . غير أنه اختار أن يعتزل فى داره ويتحاشى الظهور فى الجموع زهداً وتباعداً عن مواطن الظنون .

ولا شك أن تلك السنوات التسع التى قضاها فى النفى قد ارتفعت بسنه إلى أواخر الحلقة السابعة ، فلم يكن عند ذلك ليحتمل مشقة الانتقال أو ضجة المحافل .





محمد علي باشا (في سنة ١٨١٨)

بعد العودة من المنفى

لما عاد السيد عمر إلى القاهرة شهد أن الحال قد تغيرت ، وأن الناس قد تبدلوا ، وعلم أن الأجل قد جاء كثيرين ممن فرحوا فى نكبته وسعوا فى الوقيعة به ، وأنهم إنما تمتعوا من بعده أمداً قصيراً بنعيم زائل وظل حائل ؛ فقد مات الشيخ الشرقاوى فى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢) ، ومات الشيخ السادات بعد ذلك بعام واحد ، ثم مات الشيخ المهدى فى عام ١٢٣٠ ، (فى أوائل عام ١٨١٥ للميلاد) ؛ ومات الشيخ الدواخلى بعده بثلاثة أعوام (فى ١٨١٨ للميلاد) .

ولعلنا لا نبعد عما نحن فيه من إتمام سيرة السيد عمر ، إذا نحن عرضنا لبعض ما وقع لهؤلاء الزعماء الذين توفوا قبل عودته من منفاه ، فإن الحوادث التى وقعت لبعضهم لها دلالة ما كانت لتفوت الشيخ الجليل ، وفيها عظات ما كان ينبغى لها أن تخفى عليه ، ولا سيما أن أشد الحوادث وأقساها كان من حظ من كانوا أشد سعيا فى نكبته وأكثر حرصاً على الإيقاع به .

لم تمض سنتان على نفى السيد عمر ، حتى أتم الباشا مسح

أكثر أراضى القطر ، وفرض عليها الضرائب بغير تمييز طائفة من الملاك ، ووضع للضرائب قواعد ثابتة ، ولم يأبه للمشايخ الذين غضبوا لذلك وحاولوا المعارضة فيه ، بل أنفذ نظامه الجديد على رغم من غضب منهم لما ناله من الخسارة .

ولما مات الشيخ السادات كان موقف الباشا من أهله ومن ذكراه دالا كل الدلالة على ما كان يحمله له فى قلبه من قلة التقدير ، وعلى أنه إنما استفاد بعداوته للسيد عمر ، وجعله آلة مسخرة للإيقاع به ، ولكنه كان لا يحمل له فى قرارة قلبه تبجيلا ولا تكريماً ؛ فإنه لما مات كان الباشا فى بعض أسفاره بالفيوم ، فلما رجع إلى القاهرة أسرع فأمر بالحجر على أهله أن يتصرفوا فى أمواله ، وذهب جماعة من المشايخ إليه ليسألوه الإفراج عن تلك الأموال ، وقالوا له فيما قالوا : « إن بيوت المشايخ مكرمة ، ولم تجر العادة بالختم على أماكنهم » . فقال الباشا : « إننى لا أريد إهانة بيته ، ولا أطمع فى شىء مما يتعلق بمشيخة أسرته ، ولا وظائفها القديمة ؛ ولكن المتوفى كان طماعاً جماعاً للمال ، وطالت حياته وحاز أموالا وعقارا ، وكان لا يحب أهله ولا يخصهم بشىء ، بل كتب ما حازه لزوجته وهى جارية ثمنها مبلغ زهيد من المال ، ولم يكتب شيئاً لأولاد أخيه ،

فلا يصح أن تختص زوجته — وهى أمة — بذلك كله ، والخزينة أولى به لاحتياج الدولة إلى الأموال فى مصاريف الجنود ومحاربة الخوارج الخ . . . . » ثم أمر بإخراج نقابة الأشراف من بيته فقلدها السيد محمد الدواخلى ، وأعطى نظارة المشهد الحسينى للسيد المحروقى ؛ ثم صالح أسرة الشيخ المتوفى على أن تدفع للدولة ألف كيس وخمسة وخمسين كيساً (وهى نحو خمسون ألف جنيه) . وترك لها سائر أمواله لتتصرف فيها .

وأما الشيخ المهدى فقد أفاد ما أفاد من الحظوة والغنى بعد نكبة السيد عمر ، ولكنه كان كما قدمنا رجل تجارة ومضاربة لا قدر له فى الناس ولا بين العلماء . ويدل على ذلك أنه لما مات الشيخ الشرقاوى سعى جهده ليساعده الباشا على أن يكون شيخ الأزهر ، ونجح مسعاه فى مبدإ الأمر ، ولكن العلماء أنكروا اختياره وولوا الشيخ الشنوانى بدله ، بعد أن قضى مدة قصيرة على مشيخة الأزهر ، مستمدا العون من سطوة الباشا وبعض من يتقرب إليه من العلماء . فكان ذلك السخط الذى بدا نحوه من جمهور العلماء أكبر دليل على ما كان له فى نفوسهم من قلة التقدير . وقضى سائر عمره منصرفاً إلى تدبير الأموال والإقبال على المضاربة والتجارة والسعى فى مصالح الناس فى مقابل أجر

يؤجر به على سعيه . ولـكنه لم ينل من الحظوة فى دولة الباشا غير تلك الفوائد المـالية التى أفادها ، ولم يستطع أن يبلغ فيها من المـكانة شيئاً مما كان للزعيم النبيل الذى عمل على نكبته .

وأما السـيد الدواخلى فقد انتهى إلى نهاية أبلغ فى العظة وأقوى فى الدلالة . فإنه تولى نقـابة الأشراف عقب موت السادات ، وتقرب إلى الباشا وخدمه وتفانى فى ذلك ؛ فلمـا أنفذ الباشا خطته فى فرض الضرائب وتعميمها لم يستطع الدواخلى ولا غيره من الأعيان أو المشايخ أن يراجعوه أو يعارضوه . فاتفق أن تجرأ يوماً على الباشا ببعض القول ، وتجرأ على بعض أتباعه فخاشنهم فى الحديث ، وآلمهم فى بعض محاوراته ، فجعلوا يوغرون صدر الباشا عليه ، فلم يدر يوماً من الأيام إلا وقد أتاه أمر بالخروج إلى دسوق منفيا . ولم يمهل بل سيّر من ساعته إلى بولاق وسافر منها ولم يشعر بسفره أحد ، ولم يقف إلى جانبه صديق يواسيه . وأقبل جماعة من المشايخ يكتبون فيه شكوى يعددون فيها سيئات يعزونها إليه ، لـكى يرسلوها إلى مقر السلطنة العثمانية تبريراً لوقعة الباشا به . وقال فى ذلك صاحب عجائب الآثار : « وأنا أقول إن الذى وقع لهذا الدواخلى إنمـا هو قصاص وجزاء فعله فى السـيد عمر مكرم » .

وبقى الشيخ الدواخلى فى دسوق بضعة أشهر ، ثم شفع له السيد المحروقى فنقل إلى المحلة الكبرى ، وبقى بها دائم التألم والحنين ، لا ينقطع عن الشكوى والتضرع إلى الباشا ليعيده إلى موطنه ، ولكن الباشا أصر على رفض رجائه حتى توفى فى المحلة بعد نيف وسنتين قضاهما فى منفاه .

ولم يكن حال الحكم بعد عودة السيد عمر على ما كان عليه قبل نفيه ، فإن الباشا كان إلى قبيل نفى السيد عمر لا يزال يؤثر الحذر والحيطة فى الإقدام على خططه وإصلاحه ، خشية أن يثور الشعب على ما لم يعتده من النظم ، وتجملا مع الزعماء الذين كان يرعى لهم مكانتهم من الشعب . وكان صوت هؤلاء الزعماء عالياً مسموعاً فى ديوان الحكم يحله الباشا محله من التقدير والعناية .

ولكن نفى السيد عمر أزال من طريق الباشا الرجل الوحيد الذى كان يعارضه عن مبدإ وعقيدة ، وخلف له قوماً إذا عارضوا فإنما كانوا يعارضون من أجل مصالحهم وأموالهم . واستطاع الباشا أن يتحاشى التعرض لمصالحهم ، بل لقد استطاع أن يغمرهم بإحسانه وفضله حتى صاروا من أطوع أتباعه وأسلسهم قياداً .

فلما خلا له السبيل وخرج من حروبه منتصراً ، ومضت السنون على إصلاحه وتعميره ، فأصبحت البلاد على غير سابق

عهدها : أرض خصبة ، وصناعة نامية ، وتجارة مزدهرة ، وخزينة عامرة ، ونظام إدارى مستقر ، لم يبق له من حاجة إلى الحيطة والحذر ؛ فأقبل على إصلاحه وآماله ، غير ناظر إلى الشعب ولا مقدر لما قد يراه زعماؤه ، وقات اجتماعات الديوان أو امتنعت . وتمت له السيطرة على كل أمور البلاد وأصبح حكمه مطلقاً . ولما توفى كبار الزعماء كالشرقاوى والسادات ، لم يجد ما يخيفه من نفى أمثال الدواخلى إذا ما وجد منهم تدخلا فى أمر يرى أنه لا ينبغى لهم أن يتدخلوا فيه .

فلما عاد السيد عمر إلى القاهرة كان الروح المعنوى الذى فى شعبه قد خبا واضمحل ، وكان الحكم قد اتجه وجهة لا يستطاع الوقوف فى سبيلها ولا مقاومتها . ولا نشك فى أن ذلك الشيخ الجليل كان عند ذلك يتأمل فى مقدار ما جناه الزعماء الذين نافسوه وأوقعوا به ، فإنهم عندما أوقعوا به قد ضحوا بروح الشعب المصرى وأمله فى الاشتراك فى حكم نفسه .

وأقام السيد عمر بعد عودته فى بيت منعزل عن المدينة ، اتخذه فى مصر القديمة ، ولم يسمح لأحد أن يزوره إلا لجماعة قليلة من أقرب الأصدقاء وأصدق الأوفياء ؛ وأما الألوف المؤلفة من قاصديه ومادحيه والمتقربين إليه فقد باعدهم وصدهم وأوصد بابه دونهم ،

ولسنا نرى فى ذلك من عجب ، بل إن من كان مثله لا يمكن أن ينتظر منه أن يسلك مسلكا غير هذا .

لقد قضى الحياة فى ضجة الثورات وصخب الحوادث ، وقضى أعز سنيها بين النفى والتشريد مرة طائعاً ومرة مكرها ، فما كان أحب إلى مثله أن يركن قليلا إلى الهدوء والدعة ، وأن يقضى ما بقى من عمره فى تأمل ما فات ، والارتياح إلى تصور ما قام به من جليل الأعمال فى أداء واجبه ، والجهاد فى سبيل وطنه . وما كان أشد حاجته وهو فى سنه العالية إلى أن يستشعر الاطمئنان والهدوء ، ليرفه عن أعصابه المكدودة ، وليعزى نفسه فى آماله التى خيبتها الأيام . ولكنه لم يقض إلا ثلاث سنوات ، ثم قضى عليه أن يشرد فى آخر حياته ، وينفى للمرة الرابعة . ولذلك النفى قصة صغيرة نسوقها هنا مختصرة فى سطور .

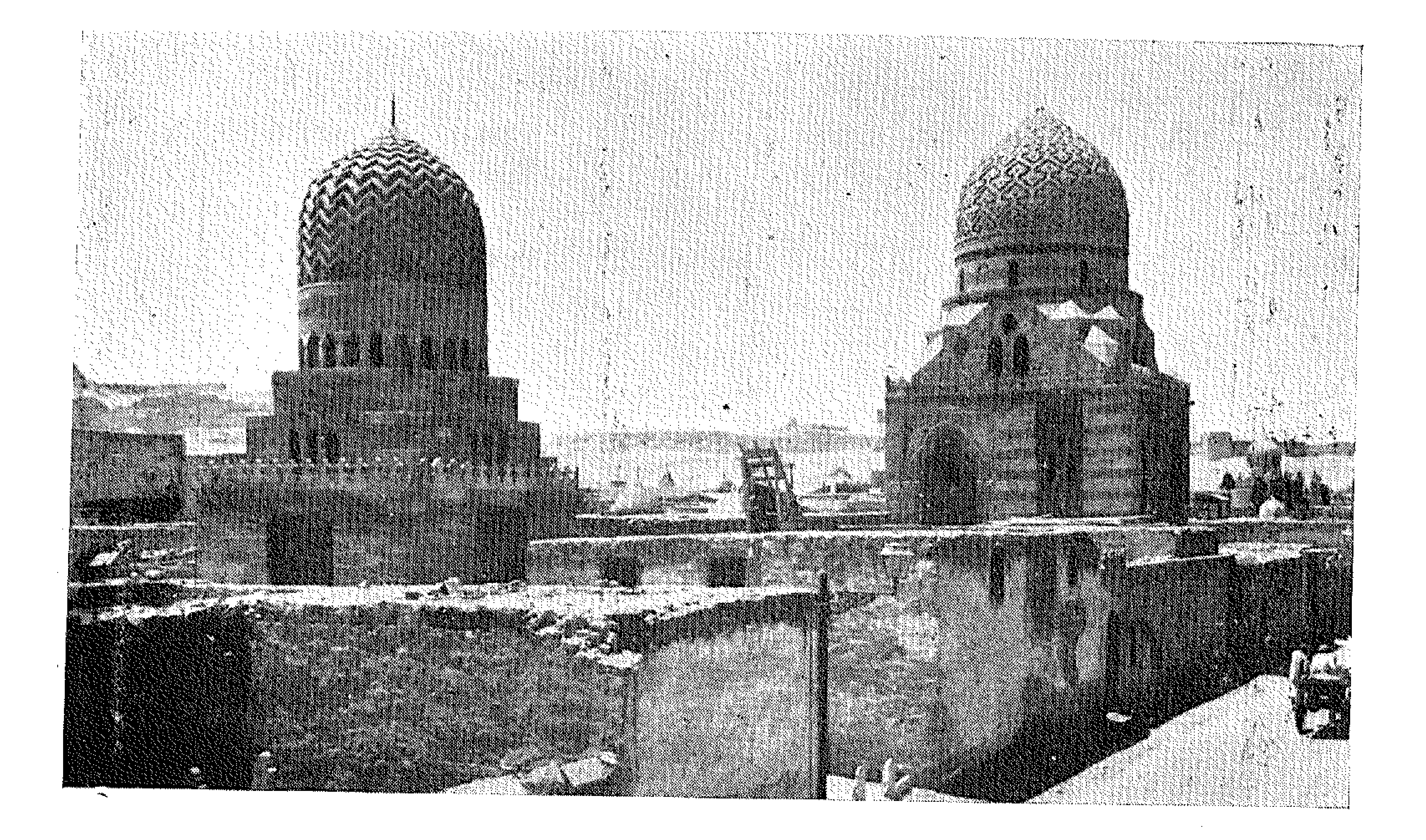
مضى الباشا فى سياسته المالية لا يخشى من أحد معارضة ولا ممانعة . وكانت الظروف تضطره لجباية الأموال من كل مظانها ، والتشدد فى جمعها أنّى استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكان فيما هداه إليه الاضطرار أن قرر جباية المال على المساكن فى القرى والمدن ، وبعث الجباة إلى الريف فى عام ١٨٢١ ، فجاسوا خلاله وفرضوا على منازل الفلاحين ضريبة تختلف مقاديرها إلى

خمس طبقات ، بين خمسين قرشاً على المنزل الواحد وعشرة قروش ، فكان لهذا أثر سيئ فى أهل الريف ، حتى جلا بعضهم عن منازله واتخذ الفلوات مسكناً . فلما جاء عام ١٨٢٢ زادت الضرورة الملجئة إلى جباية المال ، إذ وصلت إلى الإسكندرية فى يوم ٨ مارس سفن من الجزائر وتونس وطرابلس ، مع ثلاث سفن تركية ، ووصل أمر من السلطان بإمداد تلك السفن بالمؤونة وما يحتاج إليه الجنود فى الحرب ، لأن السلطان كان عند ذلك يعانى مشقة كبرى فى جزيرة كريت ، إذ ثار أهلها عليه واستماتوا فى حربه .

ولم يجد الباشا بدا من الاجتهاد فى إمداد ذلك الأسطول بما يلزم له ، ولكن هذا الطلب الذى لم يكن منتظراً زاد حاجته إلى الأموال ، فاضطر إلى أن يفرض على أهل القاهرة ضريبة على المساكن ، كما فرض فى العام السابق على مساكن الريف .

وإنما ركب هذا المركب الخشن مع ما جربه من حنق الفلاحين على تلك الضريبة ولستثقالهم لها ، لشدة حاجته إلى المال للضرورة الطارئة ؛ وبدأ جباية تلك الضريبة الجديدة فى أواخر شهر مارس .

بكره أهل القاهرة تلك الضريبة وأخذوا يقاومون جباتها ،



القبتان اللتان تكتنفان قبر السيد عمر مكرم

(تصوير الأستاذ الفنان عمر أفندى سعودى)

واصطدم بهم بعض أهل باب الشعرية ، فثاروا وضجوا وأقفلوا حوانيتهم . وعم الاضطراب حتى أوشك أن يؤدى إلى يوم من الأيام الصاخبة القديمة التى مرت فى عصر مراد أو البرديسى .

وفى يوم من أيام أبريل ذهب الناس إلى شيخ الأزهر — وكان عند ذلك الشيخ محمد العروسى ابن الشيخ الجليل الذى سبق لنا ذكره وهو الشيخ أحمد العروسى — واضطر الشيخ أن يذهب معهم إلى القلعة لإبلاغ الشكوى إلى كتخدا الباشا ، وكان الناس عند ذلك يلبسون السواد ويهتفون ويصخبون .

ولكن كبار العلماء والأعيان تدخلوا فى الأمر خوفاً من عودة الفوضى والاضطراب ؛ ولم يسكن الاضطراب لتدخلهم ، وبقيت النفوس كارهة هائجة . فلما لم يجد الناس فى الشيخ العروسى ما يوائم حنقهم ولا ما يجارى ثوبهم تلفتوا إلى الشيخ الذى عودهم من قبل أن يكون على رأسهم فى مثل هذه الحادثة . غير أن الشيخ كان لا يقوى على الثورة ولا يقبل عليها .

ولكن الباشا بلغته تلك الهمسات التى كان الناس يرددونها فى تلفتهم إلى السيد عمر ؛ ولم يكن بالرجل الذى يترك شيئاً للصدفة أو لعسى ولعل ، فلم يتردد عند ما بلغه هتاف الناس باسم السيد عمر فى أن يتدارك الأمر قبل أن يؤدى إلى حركة

تكلفه مشقة ، أو تعيد الاضطراب والفوضى .

فنى يوم ٥ أبريل من سنة ١٨٢٢ ذهب أحد ضباط الباشا بعد الظهر إلى السيد عمر فى منزله فى مصر القديمة (أثر النبي) ، وكان نائما فأوقظ ، ولما رآه الضابط قبل يده ووقف متأدباً ، وجرت محادثة قصيرة ليس أعظم منها دلالة ومغزى .

قال السيد للضابط : « خيراً إن شاء الله » .

فقال الضابط : « سيدى الباشا يأمر بسفرك إلى طنطا » .

فلم يسائله السيد عمر ولم يراجعه ، بل قال هادئاً : « متى أراد فأنا مستعد وسأعد سفينة للسفر » .

فقال الضابط : « كل شىء معد يا سيدى على ساحل النيل فى مصر القديمة » .

فهز الشيخ الوقور رأسه وقال : « إذن هلم » .

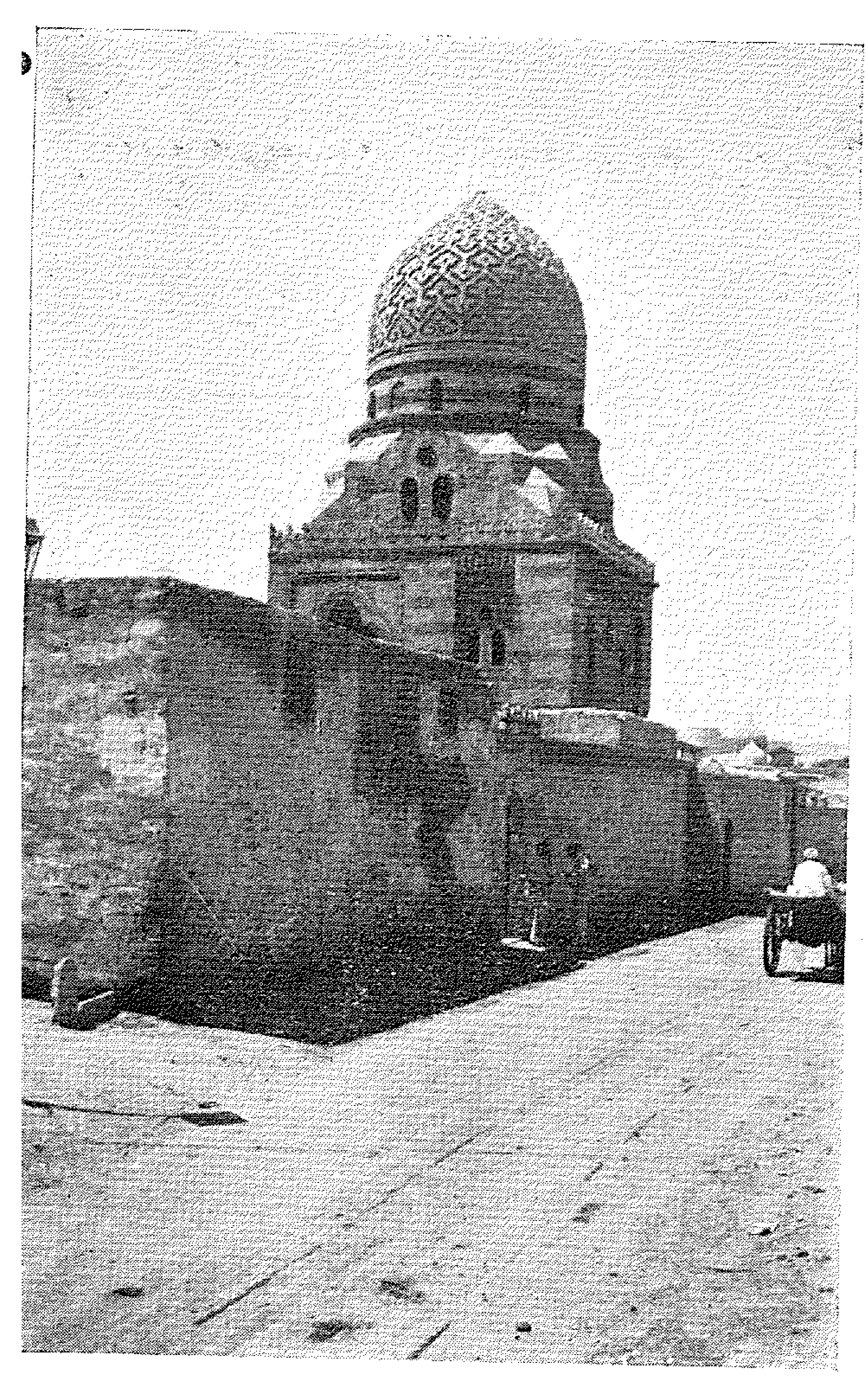
وسافر فى ذلك المساء منفيا إلى طنطا .

ولم يبق فى المنفى بعد ذلك طويلا فقد توفى فى العام نفسه[1] . وكانت سنه نحو سبعين عام .

وإذا أردت أن تزور قبره كان لا بد لك أن تبحث عنه

---

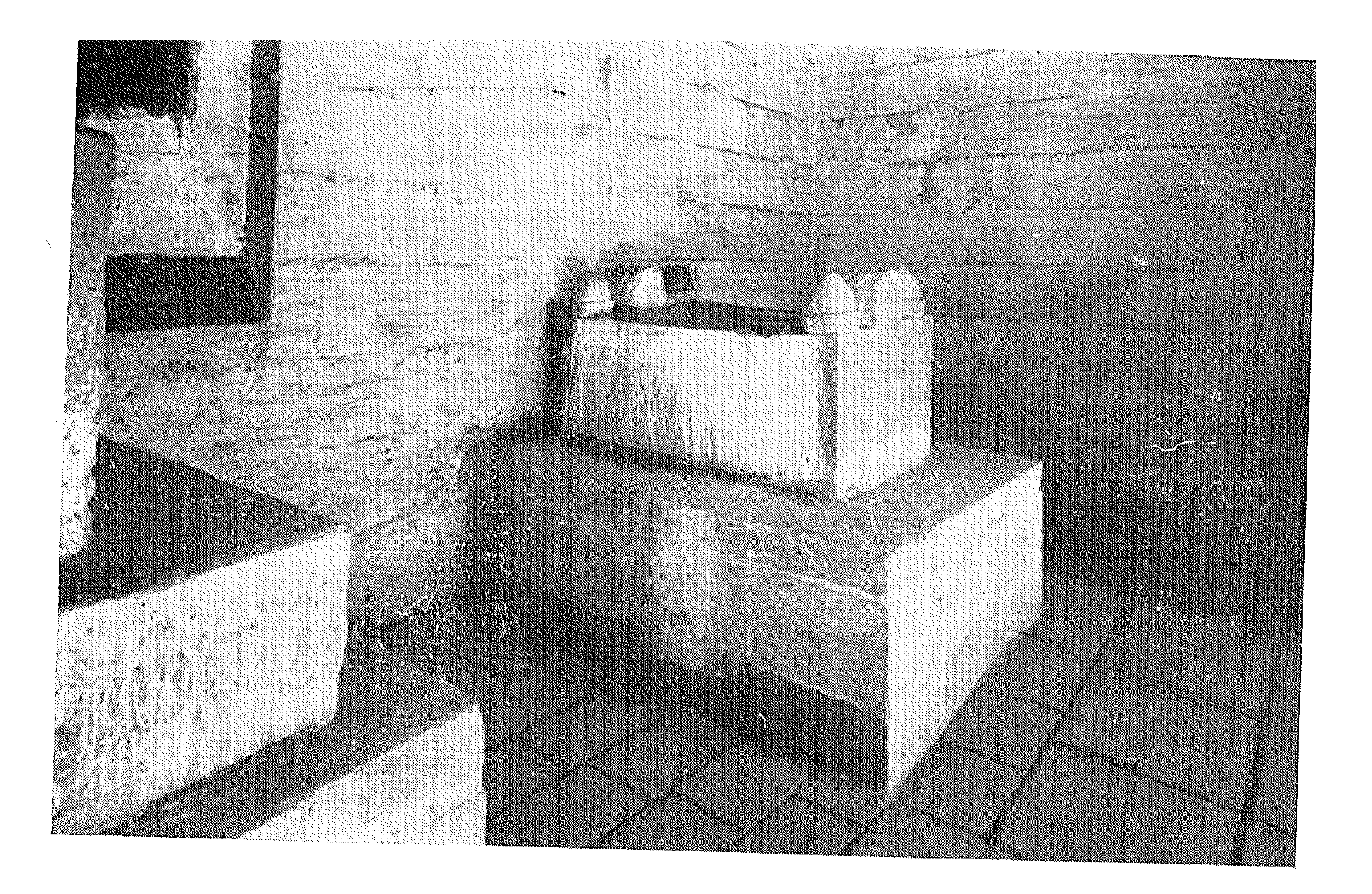
(١) أخذنا هذا التاريخ عن كتاب الأستاذ الكبير عبد الرحمن بك الرافعى ، إذ لم نستطع أن نعثر عليه فى كتاب آخر ولا فى أثر من الآثار .



قبة الأمير محمد ازرمك الملاصقة لقبر السيد عمر مكرم

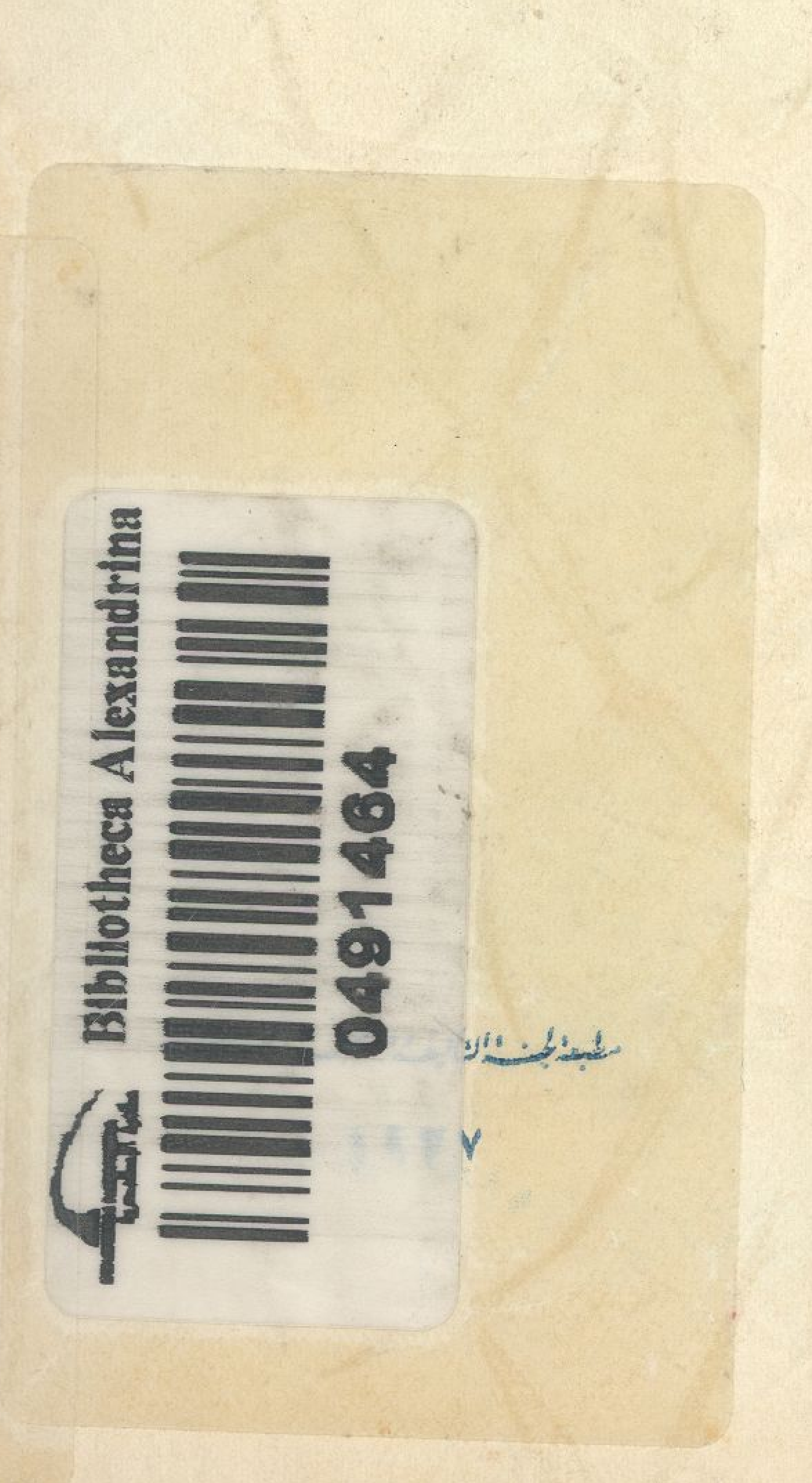
(تصوير الأستاذ الفنان عمر أفندى سعودى)

فى مدفن متواضع بين قبرين من مقابر الأمراء فى قرافة المجاورين ، لا يحمل اسماً ولا تاريخاً ، يقوم عليه بناء بسيط من حجر الجير ، لا يعلم إلا قليل أن تحته زعيم وطنى قد كان ملء مصر وحوادثها منذ نيف ومائة عام .



قبر السيد عمر مكرم

(تصوير الأستاذ الفنان عمر أفندى سعودى)


Bibliotheca Alexandrina
0491464